دكتور السيد عبد القادر عويضة

كلية اللغة العربية - جامعة الأزهر



الشعر الأموي في ظل الصراع السياسي

الطبعة الأولى

١٤١٢هـ - ١٩٩١م

مطبعة الأمانة

٣ شارع جزيرة بدران شبرا - مصر

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد النبى العربي الكريم ، وعلى آله وأصحابه والتابعين باحسان الى يوم الدين .

وبعد ...

فهذه دراسة للشعر العربى فى عصر من أرهى العصور الأدبية وأرقاها ، وهو العصر الأموى . وقفت فيها على الصراعات السياسية والمنازعات الحزبية والخلافات المذهبية : وأثر ذلك كله على الأدب بعامة وعلى الشعر بخاصة ، ومن ثم فقد وقفت بالتفصيل على دراسة الحياة العامة وملامحها التى بدت واضحة التأثير فى شعر هذا العصر ، وفى نهضته وأغراضه وخصائصه الفنية .

وقسمت دراستى هذه الى أربعة فصول :

تناولت فى الفصل الأول : الحديث عن الحياة العامة : السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية ... وغيرها من أنواع الحياة التى يعيش فى اطارها الناس فى كل عصر ، وكان لابد أن نفصل القول فى هذه الحياة وأن نقف على ملامحها وتأثيرها لا فى الشعر وحده ، ولكن فى الأدب بعامة — أى بشعره ونثره — لأن التأثير عادة يكون عاما ، ولأن الأدب — كما هو معروف — مرآة الحياة وشريانها النابض : فاذا كانت الحياة مشرقة ذات بريق ولمعان ، ظهر أثر ذلك فى الأدب ، واذا كانت الكآبة تسودها والحزن يعمها ، تبعا لمآسى السياسة وجبروتها ظهر ذلك أيضا فى الأدب .

وبذلك فقد عنينا بدراسة الحياة العامة وسياسة الحزب الحاكم التى شكلت هذه الحياة ولونتها وفقا لارادتها وسياستها حتى يستمر لهذا الحزب الحكم ، ويستقيم الملك ، وتظل البلاد فى قبضتهم : وقد تأثر الشعر فى هذا العصر بهذا كله .

وفى الفصل الثانى : تحدثت عن نهضة الأدب وجعلت الأهمية فى الحديث للشعر وأسباب النهوض به ، وتشجيع الخلفاء والولاة على رقية وازدهاره ، والنتيجة التى وصل اليها الشعر بعد هذا التشجيع. وكان من وسائل التشجيع التى اتبعها الحكام : أغداق الأموال الكثيرة على الناس فى البلاد ، وشغلهم بما يصرفهم عن السياسة والحكم .

ولما كان معاوية بن أبى سفيان المؤسس الأول لدولة بنى أمية على درجة كبيرة من الذكاء والخبرة بنفوس الناس وطباعهم ، فقد شجع على وجود الغزل واللهو والترف فى بلاد الحجاز لعلمه برقتهم ولين طبعهم ، وميلهم الى الغزل واللهو بل وميل بعضهم الى المجون .

وشجع على النقائض فى العراق لعلمه بكثرة الخلافات والمنازعات القبلية هناك ، وكثرة الأجناس والتيارات المتعارضة وأغدق عليهم الأموال الكثيرة ليكفيهم مئونة العمل ، وليدفعهم الى الهجاء والفخر والنيل من بعضهم البعض ، وأوغر صدور الناس فى القبائل حتى احتشدت العصبية القبلية وزاد سعيرها ، واشتعلت نيرانها ، وكانت النتيجة أن انشغل الناس بعصبياتهم وخلافاتهم عن النظر فى الحكم ورجاله . وشجع على المديح فى بلاد الشام التى فيها مقر حكمه ، فتجمع حوله من الشعراء أناس كثيرون مدحوه ومدحوا غيره من حكام الدولة الأموية ونالوا جوائزهم .

بالاضافة الى هذا كله ، وجدت الأحزاب السياسية المناهضة للحزب الحاكم وهى : حزب الشيعة ، وحزب الخوارج ، وحزب

الزبيريين • وكل حزب له شعراؤه الناطقون بلسانه والمعبرون عن رأيه، والمدافعون عن كيانه ، وتفنن شعراء كل حزب فى اثبات الحق لحـزبهم دون غيره من الأحزاب الأخرى • فنهض الشعر فى هذا الجو المتزاحم بالخلافات والعصبيات نهضة كبيرة ، وارتقى ارتقاء عظيما •

وفى الفصل الثالث : تحدثت عن الأغـراض الشعرية فى ضـوء الصراعات السياسية فوقفت على الأغراض الجديدة التى كان للسياسة دور هام فى وجودها مثل الشعر السياسى والشعر الشعوبى ، وعـلى الأغراض التى لها جذور قديمة ولكن عرض لها فى هذا العصر ما جعلها جديدة ، وذلك بتوجيهها الى خدمة السـياسة الحاكمة ، مثل الغـزل بأنواعه : التقليدى والعذرى ، ومثل النقائض والرجز والزهد •ووقفت بعد ذلك على الأغراض التقليدية التى تحمل فى طيها موضوعات، ومعانى وأفكارا جديدة مثل : المديح والرثاء والوصف، وغـيرها من الأغـراض الشـعرية التقليدية •

وفى الفصل الرابع : وقفت على خصائص الشعر فى العصر الأموى وما يتميز به عن غيره من العصور فى الموضوعات ، وفى الصور والمعانى والأخيلة والألفاظ والأساليب والموسيقا ، وأثر السياسة الحـاكمة فى هذا كله • ووجدت أن الشعر الأموى بهذه الخصائص التى توفرت له قد بلغ من أسباب الرقى ما لم يتوفر له من قبل •

هذا وقد أنهيت الحديث بخاتمة ذكرت فيها ملخصا موجزا لماتحدثت عنه فى هذا البحث • ورجوت الله تعالى فيه أن أكون قد وفقت فى هذه الدراسة ، وقدمت لطلاب العلم والأدب زادا ينتفع به •

والله أسأل أن يوفقنا لما يحبه ويرضاه ، انه خير مأمـول وأكرم مسـئول •

دكتور
السيد عبد القادر عويضة

الزقازيق
فى ١٩٩٠/٦/١٥

الفصل الأول

ملامح الحياة العامة فى دولة بنى أمية

أولا : الحياة السياسية :

كان الناس فى العصر الجاهلى شعوبا وقبائل متفرقة لا قانون يحكمهم ولا دولة تجمعهم ولا رابطة بينهم سوى العروبة واللغة العربية التى كانت عبارة عن لهجات مختلفة لكل قبيلة أو مجموعة من القبائل لهجة تختلف فى كثير من مفرداتها عن لهجات القبائل الأخرى ، وبذلك انفردت كل قبيلة فى حكمها عن غيرها فكثرت الحكومات وأصبحت كل قبيلة كأنها دولة بذاتها •

فلما جاء الاسلام وحد بينهم وجمعهم فى رباط مقدس لهم قانون هو القرآن ولهم حكومة عمودها رسول الله صلى الله عليه وسلم ولهم هدف أسمى هو التمسك بدينهم والمحافظة على تقواهم والعمل من أجل نشر دينهم فى وحدة واحدة ، وصف واحد ، وهذا كله بعد فرقة وتمزق واصرار على العناد الشديد وصدق الله العظيم اذ يقول مخاطبا رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم : « •• لو أنفقت ما فى الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم » •

وظل الحال هكذا فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم فى عهدى أبى بكر وعمر ولكن ما أن جاء عثمان بن عفان رضى الله عنه وأرضاه الا وقد ترك عنان الحكم والتصرف فى روافده • وشئون سياسته لكثير من ولاته وكان معظمهم من بنى أمية أقربائه فى النسب وذلك يرجع الى كبر سنه وانشغاله بآخرته أكثر من دنياه ، وان كان

معاوية بن أبى سفيان فى حديث له ذكر أن عثمان قد أصاب من الدنيا وأصابت منه حيث يقول : « رحم الله أبا بكر ، لم يرد الدنيا ولم ترده الدنيا وأما عمر فأرادته الدنيا ولم يردها ، وأما عثمان فأصاب منها وأصابت منه ، وأما نحن فتمرغنا فيها ، ثم كأنه ندم فقال : والله انه للملك الذى آتانا الله اياه »(١) .

ولقد كان هذا الدأب ، وهو التمرغ فى الدنيا والاصابة منها والاقبال عليها شيمة الأمويين جميعا الا عمر بن عبد العزيز ذلك الخليفة الورع التقى الذى تغير حاله بعد الخلافة عن ذى قبل ليكون مثالا للقدوة الصحيحة ، اذ كان قبل الخلافة مرفها عطر اللباس فاره المركب طيب الطعام يلبس الرداء بخمسمائة درهم ويستخشنه ؛ فلما صارت أليه الخلافة تزهد ، وأخذ نفسه بالشدة وصار يلبس الكساء بثمانية دراهم ويستلينه(٢) .

وانتهت خلافة عثمان بالفتنة التى أودت بحياته وفتحت على الناس أبواب الشر من كل جانب وقد عبر عن ذلك الشاعر بقوله :

لعمر أبيك فلا تجزعن ... لقد ذهب الخير الا قليلا

لقد سفه الناس فى دينهم ... وخلى ابن عفان شرا طويلا

وكان على علىّ بن أبى طالب أن يتقدم ليحل محل عثمان فى الخلافة لأنه كان حينئذ أكفأ من يتقلدها . وتقدم بالفعل وأعلن نفسه خليفة المسلمين الرابع ونقل مقر خلافته من المدينة المنورة الى الكوفة بالعراق والتف حوله أناس كثيرون ودعا له الخطباء على المنابر .

---

(١) الطبرى ١٨٦/٦ .

(٢) أنظر البيان والتبيين للجاحظ ١٢٤/٢ ، ط : هارون .

ولكنه لم يترك وشأنه ، اذ أن معاوية بن أبى سفيان الذى كان واليا على الأردن ثم على دمشق من قبل عمر ثم عثمان قد دعا لنفسه بالحكم وتقلد أمور الخلافة والتف حوله هو الآخر أناس كثيرون معظمهم من بلاد الشام ، ووقف لعلى موقف الند للند وجعل من دم عثمان الذى كان على بريئا منه تكئة له ، وأخذ يغرى الناس بعلى ويحرضهم عليه حتى كانت الحرب بينهما فى (صفين) وأوشك على أن ينتصر فيها ولكن حيلة عمرو بن العاص — عضد معاويه وذراعه الأيمن أنئذ — وسياسته الماكرة كانت السبب فى اطالة المعركة وتفتت الجند وتفرق الحزبين المتخاصمين الى ثلاثة أحزاب فى أول الأمر هم :

حزب على وهم المتشيعون له ولآل البيت النبوى الكريم ، وحزب معاوية وحزب الخوارج الذين خرجوا على علىّ ولم يرتضوا التحكيم وكفروا معاوية لانتزاعه الحق من أصحابه واتهموا عليا فى دينه لقبوله التحكيم ، مع أن عليا فى أول الأمر نصحهم بادامة الحرب وعدم التوقف فانها خديعة وانها من ألاعيب عمرو ومعاوية وهو يعرفها معرفة جيدة ولكن جنده حينما رأوا المصاحف على أسنة الرماح وسمعوا الدعوة للهدنة وطلب الرجوع الى القرآن الكريم ليكون حكما بين الناس فى قضيتهم توقفوا مجبرين عليا على ما وافقوا عليه .

ولم يترك على أمر الخوارج هكذا واعتبرهم أمة باغية فخرج وراءهم من منطلق قول الله تعالى : « وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ، فان بغت احداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء الى أمر الله »(٣) .

ولحق بهم يقاتلهم حتى ألجأهم الى مكان يقال له (حروراء)

---

(٣) سورة الحجرات : الآية : (٩) .

وسموا أنفسهم بالحرورية نسبة الى هذا الاسم كما سموا أنفسهم الشراة لأنهم فى اعتقادهم باعوا أنفسهم لله ، وأنهم المعنيون بقول الله تعالى : « ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله والله رءوف بالعباد »(٤) .

وقد قضى على على تجمعهم ووحدتهم وقتل كثيرا منهم وتفرقت فلولهم هنا وهناك . الا أنهم لم يتركوه يواصل مسيرته مع معاوية ولكنهم قدموا لمعاوية خدمة جليلة بدون قصد منهم لاسداء هذه الخدمة ، تطوع أحدهم وهو : عبد الرحمن بن ملجم فقتل عليا .

وكان على بنيه أن يواصلوا مسيرة أبيهم ضد من رأوا فيه منكرا، وكان أولى الناس بالخلافة من أبناء على هو الحسن ولكنه لم يكن مهيأ نفسيا لها الا أن أهل العراق قد وقفوا بجواره وبايعوه واجتمعوا على الأمر له ، فلما سار بهم الى بلاد الشام لمحاربة معاوية اذا بهم يختلفون عليه وعلى أنفسهم فى أمر الحرب . فضاق صدره وأرسل الى معاوية يسأله الصلح(٥) .

واجتمعت كلمة المسلمين وتم الأمر لمعاوية فى عام ٤١هـ بمجرد تنازل الحسن له وسمى هذا العام (عام الجماعة الأول) .

وحضر معاوية الى الكوفة لأخذ البيعة لنفسه ، فخطب الحسن فى الناس أمام معاوية قائلا : « أيها الناس : ان الله هداكم بأولنا وحقن دماءكم بآخرنا ، وان لهذا الأمر مدة والدنيا دول ، وان الله عز وجل قال لنبيه : « وان أدرى لعله فتنة لكم ومتاع الى حين »(٦) .

---

(٤) سورة البقرة الآية ٢٠٧ .

(٥) النجوم الزاهرة ١/٩٣١ ، الطبرى ٦/٩٣ ، ط : أولى .

(٦) الطبرى ٦/٩٣ ـ ويقصد بأولنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويقصد بآخرنا نفسه .

واستمر حكم معاوية عشرين سنة (٤١هـ — ٦١هـ) كان فيها سياسيا محنكا . فحافظ على بقاء الملك فى الأمويين بالمال يبذله والحكم يسع محكوميه أحباءه وأعداءه حتى أجبر الناس جميعا ممن ينضوون تحت سقف الدولة الاسلامية على الاذعان له والنزول على حكمه رضا أو كراهية ، علما بأن قلوب الناس قد امتلأت غضبا عليه وعلى الموالين له ، لأنهم اعتبروا خلافته غصبا سلبها معاوية من أصحاب الحق فيها وهم على وبنوه .

والأمويون يعلمون ذلك جيدا ، وهذا ما جعل معاوية يقول لأصحابه والموالين له : « ان الناس أعطونا طاعة وأعطيناهم أمانا ، وأظهرنا لهم علما تحته غضب ، وأظهروا لنا طاعة تحتها حقد ، ومع كل انسان سيفه ، وهو يرى مكان أنصاره ، وان نكثنا بهم نكثوا بنا ، ولا ندرى أعلينا تكون أم لنا ؟

ونتيجة لما عرفه عن الناس الذين يدينون له بالطاعة على كره منهم ، عمل على حصر أبناء الخلفاء وأصحاب النبى صلى الله عليه وسلم وذويهم فى مكة والمدينة وأغدق عليهم الأموال الطائلة واستن لمن جاءوا بعده من الأمويين فى الحكم تشجيع أهل مكة والمدينة على الغزل والغناء والاحساس بالترف والتعبير عنه ، كما شجع العراقيين على الهجاء والنقائض . وأفاض على الشاميين من عطاياه ومنحه فبذلوا الود له ومدحوه وأشادوا بسياسته وكذا بحسبه ونسبه ، ورفعوا منزلته فوق هامات الناس .

هذا وقد ابتدع معاوية نظام ولى العهد فجعل من ابنه يزيد ولى عهده وأخذ من المسلمين ، وكان هناك من الشعراء من أشاد بهذه البيعة وباركها وهنأ منبر الخلافة به فقال مسكين الدرامى :

اليك أمير المؤمنـــين رحلتهـــا تثير القطا ليلا وهن هجـــود
على الطائر الميمون والجد صاعد لكل أنـــاس طـــائر وجـــدود
اذا المنبر الغربى خـــلاه ربه فان أمـــير المؤمنين (يـــزيد)

ومن جاء بعده من الأمـــويين كان معظمهم يعهـــد بولايه العهـــد لأبنائه . والشعراء من ورائهم يهنئون ويمدحون ويباركون هذا الصنيع ولذلك لما أراد سليمان بن عبد الملك أن يعزل أخاه عبد العزيز عن ولايه العهد ويحولها الى ابنه (أيوب) أنشد جرير قصيدته التى قال فيها :

ان الامام الذى ترجى نوافلـــه بعد الامام ولى العهد (أيوب)

وكان معاوية أشد الناس حرصا على بقاء الملك فى بنى أمية فاتبع سياسة اللين بغير ضعف والقوة بغير قهر . فكان يقول لو كان بينى وبين الناس شعرة ما انقطعت قيل له : وكيف ذلك ؟ قال : اذا شدوها أرخيتها ، واذا أرخوها شددتها . كما كان ذا فراسة صادقة فى الرجال يولى أعمـــاله من يثق فى ولائه له واســـتطاعته النهوض بها على أكمل وجه فكان من أكثر المقربين له والمؤازرين لسياسته عمرو بن العـــاص وزياد بن أبيه والمغيرة بن شعبة .

قال عمرو بن العاص لمعاوية : أنا للبديهة وأنت للحلم ، وزيـــاد للدهاء ، والمغيرة لكل ذلك . وقـــال فى وصف زيـــاد : لو كان أبوه من قريش لساق الناس بعصاه .

وكان من سياسة معاوية أيضا : انه أغرى بعض الشعراء ببعض فكانت النقائض التى طـــار شررها بين شـــعراء العراق ، واتســـعت دائرة الخلاف بين القبائل والعشائر المناصرة للشعراء كما كان الأمر بين دارم واليربوع وكلتاهما من تميم حيث انتصرت دارم للفرزدق شاعرها

وانتصرت يربوع لجرير شاعرها ، كما عمل على اعادة العصبية القديمة بين القبائل بعد أن أخمد الاسـلام جذوتها ليشـغل الناس بالخلافات والاحن عن أمر الخلافة التى آلت اليه وعن سياسته التى يتبعها وأساليبه فى حكم البلاد ، وان كانت سياسته فى حد ذاتها لا بأس بها الا أن الذى شغل الناس ودفعهم للحنق عليه أمران :

أولهما : انتزاع الخلافة من على بن أبى طالب غصبا •

وثانيهما : صنيعه فى تولية يزيـد ابنه وأخذ البيعـة له من بعض المسلمين دون بقيتهم •

وترتب على نفخه فى بوق العصبية القبلية من جديد أن عادت تلك العصبية بين كثير من قبـائل العرب وبخاصـة بين اليمنية والقيسية اذ انتصر القيسيون لعبد الله بن الزبير حين تنازل معاوية بن يزيد عن الخلافة وانتصر اليمنيون لمروان بن الحكم ، وكانت الغلبة فى نهاية الأمر للقبائل اليمنية وآل أمر الخلافة لمروان بن الحكم ، وظلت العصبية بين هذه القبائل طوال حياة الدولة الأموية •

ولكن اذا كان معاوية قد اسـتطاع أن يخضـع مجموع المسلمين والعرب لسياسته وحكمه بدهائه وحنكته فان هناك فلولا من النـاس تحدوا مشاعره وكشفوا عن وجوههم لثام العداوة • ومن هؤلاء الخوارج الذين كونوا حزبا كبيرا وقضى على بن أبى طالب على كثير منهم وبقى جماعة كانوا من أشد الناس زهـدا وأكثرهم حمية للاسلام • وكانوا من أشد الناس عداوة لبنى أمية وكذا لشيعة الامام على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، وهـذا واضح فى الخطبة التى خطبها أحد زعمائهم وجاء فيها : « وأما بنو أمية ففرقة ضلالة ، بطشهم بطش جبرية ، يأخـذون بالظنة ويقضون بالهوى ، ويقتلون على الغضب ، ويحكمون بالشفاعة ، ويأخذون الفريضة من غير موضعها ، ويضعونها فى غير أهلها ، وقد بين

الله أهلها فجعلهم ثمانية أصناف ، فقال : « انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل » . فأقبل صنف تاسع ليس منها فأخذها كلها ، تلكم الفرقة الحاكمة بغير ما أنزل الله » .

وامتدح أبا بكر وعمر وعثمان فى أوائل حكمه ، فلما جاء الى سيدنا على كرم الله وجهه قال انه : « لم يبلغ من الحق قصدا ، ولم يرفع له منارا » .

وتناول الشيعة فرماهم بالجهل والبغاء ، وسخر منهم لأنهم يؤملون فى امام سيبعث بعد أن مات ، ويتولى أمور المسلمين .

ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد بل تطاول عليه كثير من أعدائه . ومن ذلك أن معاوية كتب الى قيس بن سعد بن عبادة : « أما بعد ، فانما أنت يهودى ابن يهودى » فكتب اليه قيس : « أما بعد فانك وثن ابن وثن ، دخلت فى الاسلام كرها ، وخرجت منه طوعا ، لم يقدم ايمانك ولم يحدث نفاقك ، ونحن بحمد الله أنصار الدين الذى خرجك منه ، وأعداء الدين الذى دخلت فيه والسلام » .

وغير ذلك كثير من المهاترات والبذاءات التى لاكتها ألسنة الفريقين : معاوية والمالئين له من الناس من جانب ، وأعدائه والمالئين لهم من الناس من جانب آخر .

وكل ذلك كان له أثره العميق فى نفوس الأدباء شعراء كانوا أم خطباء أم كتابا ، وظهر هذا الأثر فيما أنتجوه من الفنون الأدبية المختلفة .

وزاد من ذلك تعصب القبائل للأحزاب ، كل مجموعة من القبائل تتعصب لحزب وتدافع عنه بالسنان واللسان معا وكان لكل قبيلة الخطيب

والشاعر اللذان يرفعان صوت القبيلة فى مواطن المفاخرات والمنافرات وفى المديح والتهانى • وغير ذلك من الأغراض الشعرية •

ولكن معاوية بن يزيد كان على خلاف أبيه وجده • فحين توفى يزيد بويع معاوية بالخلافة على كره منه من الشاميين وناس كثيرين من بقية البلاد الاسلامية ، لكنه كان رجلا تقيا صالحا ، أحس أن الخلافة عبء كبير لا يستطيع هو القيام بحملها ولابد من التنازل عنها رأبا لصدع المسلمين ورجوعا بالحق الى أهله ، ولم يبق فى الحكم سوى أربعين يوما ، جمع الناس بعدها وخطبهم قائلا لهم : « أيها الناس انى ضعفت عن أمركم فاختاروا من أحببتم ، فقالوا : ول « خالدا » ، فقال : والله ما ذقت حلاوة خلافتكم فلا أتقلد وزرها ، ثم صعد المنبر فقال : أيها الناس ان جدى معاوية نازع الأمر أهله ، ومن هو أحق به منه لقرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على بن أبى طالب ، وركب بكم ما تعلمون حتى أتته منيته ، فصار فى قبره رهينا بذنوبه ، وأسيرا بخطاياه ، ثم قلد أبى الأمر فكان غير أهل لذلك ، وركب هواه ، وأخفه الأمل ، وقصر عنه الأجل ، وصار فى قبره رهينا بذنوبه وأسيرا بجرمه ثم بكى حتى جرت دموعه على خده ، ثم قال : ان من أعظم الأمور علينا علمنا بسوء مصرعه ، وبئس منقلبه ، وقد قتل عترة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأباح الحرم ، وخرب الكعبة • وما أنا بالمتقلد ولا بالمتحمل تبعاتكم • فشأنكم أمركم ، والله لئن كانت الدنيا خيرا فقد نلنا منها حظا ولئن كانت شرا فكفى ذرية أبى سفيان ما أصابوا منها • ألا فليصل بالناس حسان بن مالك وشاوروا فى خلافتكم • رحمكم الله • ثم دخل منزله وتغيب حتى مات بعد أيام » (٧) •

وكان ما تحدث به معاوية بن يزيد قد تناقلته الركبان فى جميع أنحاء

---

(٧) النجوم الزاهرة ١/١٦٤ •

البلدان التي تحت حكمه وارتاحت النفوس لما قاله وبخاصة نفوس المتشيعين لآل البيت الشريف ، وكان هذا حافزا لعبد الله بن الزبير لتنصيب نفسه خليفة على المسلمين ، وبالفعل فقد بايعه أهل الحجاز والعراق ومصر وخراسان وفارس ، واختلف عليه أهل الشام اذ وقف أغلبهم بجوار مروان بن الحكم يؤازرونه ويناصرونه ضد بن الزبير وانتهى أمر الخلافة لمروان وانتقلت بذلك الخلافة من البيت السفياني الى البيت المرواني • ولكن حكمه لم يطل فبويع بالخلافة من بعده لابنه « عبد الملك » الذى كان أكثر أهل البيت المرواني حنكة وسياسة وأعظمهم اهتماما بالأدب ونقده •

ولم يطب له أن يكون خليفة وينازعه ابن الزبير فيها فظل يقاومه ويتعقب جيشه حتى قتله فى سنة ٧٣ هـ وخلص له أمر الخلافة على البلاد الاسلامية جميعها وسمى هذا العام « عام الجماعة الثانى » •

وظل الأمويون يتولون الحكم الواحد منها بعد الآخر الى أن أنتهت دولتهم فى سنة ١٣٢ هـ بهزيمة مروان بن محمد •

وبهذا يكون الخلفاء الأمويون الذين تولوا الحكم وخضعت لهم البلاد الاسلامية ثلاثة عشر خليفة هم :

١ — معاوية بن أبى سفيان ، (٤١ — ٦١ هـ : ٦٦١ — ٦٨١ م)
٢ — يزيد بن معاوية ، (٦١ — ٦٤ هـ : ٦٨٠ — ٦٨٣ م)
٣ — معاوية بن يزيد ، (٦٤ — ٦٤ هـ : ٦٨٣ — ٦٨٤ م)
٤ — مروان بن الحكم ، (٦٤ — ٦٥ هـ : ٦٨٤ — ٦٨٥ م)
٥ — عبد الملك بن مروان ، (٦٥ — ٨٦ هـ : ٦٨٥ — ٧٠٥ م)
٦ — الوليد بن عبد الملك ، (٨٦ — ٩٦ هـ : ٧٠٥ — ٧١٥ م)
٧ — سليمان بن عبد الملك ، (٩٦ — ٩٩ هـ : ٧١٥ — ٧١٧ م)
٨ — عمر بن عبد العزيز ، (٩٩ — ١٠١ هـ : ٧١٧ — ٧١٩ م)

٩ — يزيد بن عبد الملك ، (١٠١ — ١٠٥ هـ : ٧٢٠ — ٧٢٤ م)
١٠ — هشام بن عبد الملك ، (١٠٥ — ١٢٥ هـ : ٧٢٤ — ٧٤٣ م)
١١ — الوليد بن يزيد بن عبد الملك ، (١٢٥ — ١٢٦ هـ : ٧٤٤ — ٧٤٤ م)
١٢ — يزيد بن الوليد بن عبد الملك ، (١٢٦ — ١٢٦ هـ : ٧٤٤ — ٧٤٤ م)
١٣ — مروان بن محمد بن مروان بن الحكم ،
(١٢٦ — ١٣٢ هـ : ٧٤٤ — ٧٥٠ م)

ثانيا : الحياة الاقتصادية والاجتماعية :

لاشك أن الفوارق الطبقية فى الحياتين الاقتصادية والاجتماعية موجودة بين المجتمعات البشرية فى كل زمان ومكان بحيث يؤثر الرقى الاقتصادى فى حياة الشعوب والأمم فتنعم وتترف وربما تلهو وتعبث • كما يؤثر انحطاط الاقتصاد وانخفاضه فى انحطاط الشعوب والأمم فتتدهور الحياة فتصاب المجتمعات بالكآبة والحزن • واذا كان هناك فكر وثقافة وأدب فانما يصاب بما أصيبت به تلك الأمم من الكآبة والحزن ويتأثر تأثرا شديدا بذلك •

واذا ما نظرنا الى العرب فى الجاهلية وما كانوا عليه فى حياتهم الاقتصادية من ترف أو شظف فانهم كانوا قبائل بعضهم يعيشون فى البادية وبعضهم فى الحضر ، والمعروف عن أهل البادية أنهم أهل رعى وترحال هنا وهناك بين ربوع البوادى سعيا وراء الكلاء والماء والفوارق الطبقية بينهم تكاد تكون متقاربة ، لأنهم جميعا يعيشون حياة اقتصادية متقاربة • أما أهل الحضر فهم أهل تجارة أو زراعة واقتصاد هم أكبر حجما من اقتصاد أهل البوادى والفوارق الطبقية واضحة بينهم أكثر •

ولذلك فان الشاعر من هؤلاء وأولئك اذا كان مترفا منعما ظهر ذلك فى شعره ، واذا كان فقيرا بائسا ظهر ذلك أيضا فى شعره ، وظل الحال

هكذا الى أن جاء الاسلام وانتشر بين الناس ، فكان من مبادئه ادابة الفوارق الطبقية والعنصرية بين من عمهم الاسلام بفضله ، وجعل الفوارق دينية فقط « أن أكرمكم عند الله أتقاكم » • كما جعل فى أموال الأغنياء حقا للسائل والمحروم • ولكن بقى هنـاك غنى وفقير وكلاهما يعيش وفق تعاليم الاسلام وبمنطقه من الزهد والعفة • والغنى يجـود والفقير لا يأخـذ أكثر من حاجته ولا يتطلع الى أكثر من قوت يومه • وذلك لأن النبى صلى الله عليه وسلم كان يخشى عليهم الغنى ويحذرهم من الانجراف فى تياره ، كما ورد فى حديث النبى صلى الله عليـه وسلم الذى يقول فيما معناه : « انى لا أخشى عليكم الفقر ، ولكن أخشى أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها فتهلككم كما أهلكتهم » •

ولكن ما أن جـاء العصر الأموى واتسعت الفتوحات الاسلامية واختلط العـرب بالعجم وكثرت الأموال من فىء الحروب ومن الخراج والجزية ، واتسعت آفاق التجارة والزراعة ، ورأى العرب فى بلاد العجم مالم يروه من قبل فى بلادهم من القصور الباهرة والأثاثات الفاخرة ، ومن الثياب وألوان الطعام والشراب والزينات المختلفة • الا وقد بهروا بذلك كله وحاولوا التقليد ، وشجعهم على ذلك وجود الأموال الطائلة التى أفيضت عليهم وما كان من سياسة الأمويين وبخاصة معاوية المؤسس الأول للدولة الأموية التى امتاز بالدهاء وبعد النظر ، حيث شجع على الترف والنعيم وعلى اشاعة الغزل والرقص والغناء بين شباب الحضر وبخاصة فى مكة والمدينة تلهيا وصرفا لهم عن التفكير فى السياسة وأمـر الخلافة التى انتزعها معاوية ممن هم أحق بها منه وهم آل بيت النبى صلى الله عليه وسلم وبالأخص من على بن أبى طالب ، مع علم معاوية بذلك كله •

وترتب على ذلك أن النظرة المـادية قـد اتسعت وقوى أثرها فى

نفوس الناس ، وتطلعوا الى تقليد العجم فى حياتهم وملاذهم ، وكثرت المدائح بين الشعراء للتكسب وابتغاء الغنى ، وكان اعتراف الشعراء بذلك واضحا فى شعرهم ، يقول فى ذلك ذو الرمة :

وما كان مالى من تراث ورثته ولادية كانت ولا كسب مأثم
ولكن عطاء الله من كل رحلة الى كل محجوب السرادق خضرم(٨)

وكان المهالبة فى هذا العصر مضرب الأمثال بين الناس والشعراء فى الجود والكرم حتى قال فيهم بكير بن الأخنس :

نزلت على آل المهلب شاتيا فقيرا بعيد الدار فى سنة محل
فما زال بى الطافهم وافتقادهم واكرامهم حتى حسبتهم أهلى (٩)

وقال فيهم أيضا :

وقد كنت شيخا ذا تجارب جمة فأصبحت فيهم كالصبى المدلل (١٠)

وحين مات المهلب قائد الجيوش الأموية فى خراسان رثاه نهار ابن توسعة بقوله :

ألا ذهب الغزو المقرب للغنى ومات الندى والجود بعد المهلب (١١)

وكأن الغزو ليس جهادا فحسب ولكنه فى نظر بعض الناس والشعراء فى العصر الأموى قد انحرف هدفه قليلا عن عصر صدر الاسلام فأمسى الشعراء يبتغون به الغنى ويسعون اليه الى جانب الجهاد دفاعا عن الدين ابتغاء مرضاة الله عز وجل .

---

(٨) الديوان ٦٣٣ .
(٩، ١٠) التطور والتجديد فى الشعر الاموى . د/ شوقى ضيف ، ص ١٢٠ ، ط ٥ دار المعارف .
(١١) الطبرى ٢/١٠٨٤ .

وأصبح الشاعر يطلب صراحة دون مواربة أو حاجة الى حسن التخلص ، ومن ذلك ما قاله جرير فى مدحه لعبد الله بن مروان على لسان زوجه أم حزرة .

تعزت أم حزرة ثم قالت ... رأيت الواردين ذوى لقاح
تعلل وهى ساغبة بنيها ... بأنفاس من الشبم القراح
ثقى بالله ليس له شريك ... ومن عند الخليفة بالنجاح
أغثنى يا فداك أبى وأمى ... بسيب منك انك ذو ارتياح
سأشكر أن رددت على ريشى ... وأنبت القوادم فى جناحى (١٢)

بل أكثر من هذا أن الشحاذة قد انتشرت بين كثير من الناس والشعراء فى هذا العصر دون حرج . ومن هؤلاء : الحكم بن عبدل الكوفى الذى قال مخاطبا أبا طلحة الذى اشتهر بجوده وكرمه :

يا أبا طلحة الجواد أغثنى ... بسجال من سيبك المقسوم
أحيى نفسى فدتك نفسى فانى ... مفلس — قد علمت ذاك — عديم
ليس لى غير جرة وأصيص ... وكتاب منمنم كالوشوم
واكاف أعارنيه نشيط ... هو لحاف لكل ضيف كريم (١٣)

وأصبحت المادة تؤثر فيهم وتسيطر عليهم سيطرة كبيرة نتيجة كثرتها بين أيدى الفئات الكثيرة منهم مما أهل عليهم من خراج البلاد المفتوحة وجزية أهل الذمة ومما أفاضه عليهم الخلفاء قطعا لألسنتهم واستجلابا لقلوبهم وحفزا على التفاف الناس حولهم . فتطلع الناس الى المزيد من الترف والنعيم وعاش كثير منهم حياة لهو ومجون لدرجة أن منهم من شرب النبيذ محلا لها طالما هى من غير العنب على اعتبار أن

---

(١٢) ديوان جرير ص ٩٧ .
(١٣) الاغانى ٢/٤٠٤ .

المحرم انما هى الخمر المعصورة من العنب ، وأكلوا وشربوا فى صحاف من الفضة الأنيقة وربما الذهب ايضا ، ولبسوا الثياب المطرزة بأنواع الزينة والوشى المحلى بالزخارف والمصنوعة من الخز الرقيق • واختلطوا كثيرا بأناس البلاد المفتوحة وتزوج كثير منهم وانتشرت بينهم عادات العجم وتقاليدهم بفعل هذا الزواج وكذا الاسترقاق والتسرى ، وأيضا الدياة معهم ومخالطتهم ولم يكن هنـاك نص شرعى ينص على التفرقة بين العرب وغيرهم ولكن الآيات القرآنية والأحاديث النبـوية جميعها تنص على أن المؤمنين أخوة • « ان أكرمكم عند الله أتقاكم » •

فأدى ذلك الى كثرة الاختلاط واتسـعت موجات التأثر بعادات الأعاجم وتقاليدهم وامتدت مجالس الطرب والغناء والمنادمة على نغمات الموسيقا • لا سيما وأن العرب كان استعدادهم كبيرا لذلك وبخاصة فى مكة والمدينـة بحكم تشجيع الخلفـاء لهم على ذلك ولأن قرائحهم كان استعدادها طبعيا لهذا النوع من التسرى والتسـلى • ويقول الدكتور شوقى ضيف فى ذلك :

« واذا رجعنا نبحث فى شعر الحجاز والشام لهذا العصر وجدناه فى أكثره يؤلف لهؤلاء المغنين ، فهو شعر غنائى بالمعنى الكامل ، اذ هو يعبر عن أحوال وجدانية • فمعظمه يدور حول قصـة الحب ثم هو يؤلف ليغنى فعلا ، وهذا هو معنى اكتماله من الناحية الغنائية » (١٤) •

وقد ظهر فى هذا العصر شعراء اشتهروا بالغزل والغناء والتعبير عن الحب فى شعر وجـدانى يعبر عن ذوق رفيع وأثار الترف والنعيم وحياة اللهو والقصور بادية عليه • من هؤلاء الشعراء عمر بن أبى ربيعة، وابن قيس الرقيات والعرجى والأحوص والوليد بن يزيد وغيرهم •

---

١) التطور والتجديد فى الشعر الامـوى ص ١٠٢ ط ٥ دار المعـارف •

واهتم الناس فى ذلك العصر بهــذا النوع من الحيــاة اهتماما كبيرا ــ أعنى حياة الغناء والطرب وما ينجم عن ترف الشباب وفراغهم من اللهو والمجون ــ لدرجة أن الغالبية العظمى من الناس ومنهم كثير من الفقهاء والمحدثين كانوا بين مغن ومستمع للغنــاء والجميع يطرب لذلك حتى ليخيل « لمن يتصفح كتاب الأغانى أنه لم يعد للناس فى مكة والمدينة فى أثناء هذا العصر من عمل سوى السماع للغناء حتى العبــاد والفقهاء كانوا يطلبونه • ويروى أن مالكا صــاحب المذهب المعروف حاول فى أول أمره أن يكون مغنيا ، واشتهر عطاء وابن جريج من فقهاء مكة باقبالهما على سماع المغنين (١٥) •

واذا استثنينا معاوية بن أبى ســفيان المؤسس الأول لدولة بنى أمية من التلهى بالغنــاء والطرب على الرغم من تشجيعه على ذلك ، لانشغاله بأمور الدولة وتوطيد أركانها ، ولسياسته المتميزة التى تجمع بين الحزم واللين فى وقت واحد،واذا استثنينا عمر بن عبد العزيز أيضا لتقواه وورعه ، فان بقية خلفاء هذه الدولة قد صلبوا المغنين والمغنيات وانتشر الطرب والرقص فى بلاطهم ، تسريا لهم عمــا يقمون به من أعمال الجهاد وانهاء الصراعات والمنازعات المختلفة • وتقليدا لمــا كان الأعاجم يفعلونه فى بلاط الزعماء منهم •

بل ان من خلفاء الدولة الأموية من وصــل به الاهتمام لدرجة أن أرسل فى طلب المغنين والمغنيات ولو كان ذلك اشتراء لهم • كما هو الحال مع يزيد بن عبد الملك الذى « اشترى مغنيتين مشهورتين احداهما بأربعة آلاف دينار وهى حبابة • والثانية بعشرين ألفا وهى ســلامة القس •

---

(١٥) المرجع السابق /١٠١ ، وانظر الاغانى ٢٢٢/٤ ، ٢٥٧/١، ٣١٦/١ •

ونشأ ابنه الوليد على مثاله فكان بلاطه يكتظ بالمغنين من مثل معبــد ، ويحيى قيل ، والهذلى ، والأبجر ، وأبى كامل الغزيل » (١٦) •

واذا كان الشعراء فى الجاهلية لهم حب وغزل وغناء وطرب فان الفارق جد كبير بينهم وبين شعراء العصر الأموى ، واذا تطورت الأذواق تبعا لتغير الأحوال والظروف وترققت الطباع نتيجة لحياة الترف التى عاشــها العــرب من ناحيــة ولاختلاطهم بالعجــم وتقليــدهم فى أمور حياتهم من ناحية أخرى ، ولم يكن ترفهم وعيشهم الناعم نتيجة لجهد يبذلونه وعرق يتصبب منهم وانما كانت الأموال الطــائلة تتدفق عليهم من غير هذا ولا ذاك بل كان الفراغ طويلا وكثيرا ، وقــد ملئوه بالسمر والطرب والشعر الرقيق الذى يصلح لهذا كله ووجد منهم من تميز بحبه وغزله ورقة شعره وشعوره كالأحوص الذى تصور أن الحياة كلها عشق وهوى وأن الذى لم يعشق فهو أشبه بالصــخر الجلمد حيث يقــول :

اذا أنت لم تعشق ولم تدر ما الهوى
فكن حجرا من يابس الصــخر جلمدا

ولا أدل على ذلك من شعره فى الذلفاء الذى يسيل رقة وعذوبة ، يتحدث فيه عن حبه لها فى جميع أحوالهــا ، حين تمشى وحين تقوم ، وحين ترضى عنه أو تهجره ، وحين تغنى أولا تغنى ، فحبها مرض تمكن من قلبه لا يفارقه ولا يستطيع الافلات منه • يقول الأحوص :

انمــا الذلفاء همى   فليــدعنى من يلــوم
أحسن الناس جميعا   حــين تمشى وتقوم
حبب الذلفاء عندى   منطق منهــا رخيــم

---

(١٦) التطور والتجديد فى الشعر الاموى • وانظر الاغــانى ١٣/١٤٩ ، ٨/٣٤٣ •

أصل الحبل لترضى وهى للحبـل صروم
حبها فى القلب داء مستكن لا يريم (١٧)

وقد كان هواه لها من منطلق هواه وحبه للغنـــاء والطرب وأن أكثر ما حببه فيها صوتها الرخيم ، ولا عجب فى ذلك فهو شاعر الحب والغناء فى عهـــده •

وهكذا كان شعر المترفين من شعراء الدولة الأموية الذين تهالكوا على المرأة ووجدوا لذة شـــديدة فى الحديث عنها ســـواء أقبلت عليهم أو أدبرت عنهم وبعد أن كانت المرأة لا تستحوذ الا على مقدمةالقصيدة فى الجاهلية ثم يتركها الشاعر ليتحدث عن بقية أغراضه ، وأكثر ما كان الغزل تقليديا •

اذا بالشعراء الغزلين فى العصر الأموى قد أفردوا لغزلهم قصائد ومقطوعات خاصة بالغرض ذاته ليعبروا فيه عن مشاعرهم الرقيقة تجاه المرأة وشغفهم بها ، تعبيرات سلسة عذبة يقصد الشاعر أن يتغنى بهـــا ويتغنى بها غيره من الناس ، وهى فى أكثرها تعبر عن الحب الصادق الذى ملأ على كلا الجنسين حياتهما وليس مجرد التقليد للقدماء من شعراء الجـــاهلية فى مفتتح قصائدهم ، وان كان الاستهلال بالمطـــالع الغزلية قد ظل باقيا فى كثير من قصائدهم •

هذه هى حياتهم الاقتصادية والاجتماعية لا نستطيع أن نفصـــل احدى الحياتين عن الأخرى • لأن الاقتصاد اذا عم رخاؤه ظهرت آثاره على المجتمع ، وهذا ما حدث فى العصر الأموى • تدفقت عليهم الأموال، وامتدت اليهم أسباب النعيم فعاشوها ونعموا بها ، فسكنوا القصـــور وشاهدوا الرقص واستمعوا الغناء ، ونظم شـــعراؤهم الغزل الرقيق

(١٧) ٨/٢٠٠ طبعة دار الكتب المصرية •

الذى تلقفه المغنون وتناقله الركبان ، وانتشرت مجالس الطرب فى أماكن كثيرة من الدولة الأموية ، ولكن فى بلاد الحجاز أكثر ، حيث انها كانت المعنية من قبل الدولة بتشجيع الخلفاء الأمويين على اللهو والطرب ، قضاء للفراغ الشديد الذى عاشوا فيه ، وصرفا لابناء الصحابة عن أمر الخلافة والحكم •

ثالثا : الحيـــاة الفكرية :

معروف أن الأمة العربية فى العصر الجــاهلى كانت أمة أميــة وغير متجرفة فى اختلاطها بالأمم المجاورة اللهم الا فى التجــارة لبعض القرشيين ومخالطة الجوار للعرب المتاخمين لغير العرب كما هو الحــال بالنسبة الغساســنة والمناذرة الذين جاوروا الروم والفرس وتأثروا ببعض عاداتهم وتقاليدهم فى المــأكل والملبس والكلام وطرق المعاملة الا أن عرب شبه الجزيرة العربية وهم أكثر العرب بروزا فى ذلك الوقت كان تأثرهم ضئيلا جدا فى الحواضر التجارية أى فى مكة ويثرب وغيرهما من الحواضر المعروفة آنذاك ، أما البوادى فقد كانت شبه مغلقة على نفسها ، مستقلة بذاتها وحيــاتها البدوية بعيــدة عن تأثير الحضـــارة والعمران ونظام الحياة المعروفة للحضريين •

ولا يعنى أن المدن التجارية قد وصلت الى شىء بعيــد الغور فى المعرفة والثقافة بحكم تحضرها واختلاطها تجاريا بالبلاد المجاورة فى أسواق التجارة أو حين الذهاب الى ملوكهم للمديح والتكسب •• وغير ذلك • ولكنها كانت قريبة فى معارفها من أهل البادية ، اذ كانت معارفها محدودة بدائية لا تتعدى الأشياء الظاهرة ، بمعنى أنها فطرية قريبة وغير معقدة ولا ملونة بألوان الفكر والترتيب المنطقى الذى يعتمد على مقدمات ونتائج ، فما كانوا يعرفونه عن الطب وعلم الأثر والقيــافة وغيرها من المعارف كلها كانت بدائية ساذجة •

أما الأثر الأقوى الذى كان لهم فهو الشعر واللغة • اذ كان الشعر أعظم أثر فكرى وحضارى للعرب قبل الاسلام ، اشترك فيه البــدو والحضر على السواء ، ولم تكن هناك من سمات تميز هــذا عن ذاك الا فى رقة بعض ألفاظ الحضر وغلظة ألفاظ البدو ، وفى اقتصار شعراء البدو على وصف ما تقع عليه عيونهم فى الصــحراء من الخيول ، بل والأغنام المنازل ، ومن طعامهم وشرابهم وحياتهم الخاصة ثم النظر فى السماء ووصف المطر والنجوم والشمس والقمر ، وكذا وصف مخاوف الطبيعة أو الفهم للحيوانات الضارة الفاتكة فيها •• الى غير ذلك من أوصافها •

وفى اضافة الحضريين الى كل هذه الأمور ما تشــاهده عيونهم فى البلاد التى يذهبون اليها للتجارة والتى يختلطون بأهلها من وســائل الطعام والشراب وأوانيها ومن قصورهم ومنازلهم وحدائقهم وملابسهم، وما الى ذلك مما يرونه زائدا على مشاهدات البدو •

وعند هؤلاء وأولئك كان الشعر ســجل حيــاتهم ، ووعاء علمهم وثقافتهم ومظهر تفوقهم ووسيلة طربهم وغنائهم ، يعبرون فيــه عن أحاسيسهم ومشاعرهم ، وهو وسيلة اعلام بالنســبة اليهم ، فى كل موقف أو حادثة يتقدم الشــاعر والخطيب ليقول كلمة قبيلته ويعبر عن رأيها وينقل صوتها •

وبهذا كان أسمى ما عرفه العرب قبل الاسلام وما عرفوا به انما هو الشعر ثم الآثار النثرية من الخطابة وسجع الكهان والحكم والأمثال• وبعض الكتابات القليلة النادرة التى لا يمكن أن توصف بها ، بل تظل توصف بأنها أمة أمية لغلبة الأمية عليهــا •

فلما جاء الاسلام ونزل القرآن الكريم نقل العرب من الأميــة وحمية الجاهلية الى سلم الحضارة والفكر وأخذ يصــعد بهم ويرتقى

حتى صار العرب أرقى الأمم آنئذ ، حضاريا وثقافيا • وكانت أول آية من القرآن الكريم نزلت على الرسول صلى الله عليه وسلم انما هى دعوة للعلم والمعرفة وهى قول الله تعالى : « اقرأ باسم ربك الذى خلق ••• » وصحبت دعوات القرآن الكريم للعلم والمعرفة دعوات من الرسول صلى الله عليه وسلم من مثل قوله صلى الله عليه وسلم : « تعلموا العلم من المهد الى اللحد » وقوله صلى الله عليه وسلم : « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة » الى آخر ما ذكر فى القرآن الكريم والأحاديث الشريفة التى تحض على ذلك وتحرص عليه •

وأخذ طلب العلم طريقه فى الاتساع ، وأخذت الكتابة والقراءة تتسع دائرة كل منهما كثيرا تبعا لحاجات الاسلام ودعوته فكان هناك كتاب الوحى الذين كتبوا القرآن الكريم فى عهد أبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنه نقلا مما كتب فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم من الأديم والعظام وسعف النخيل •• وغير ذلك ، ثم فى عهد عثمان مما كتب فيه فى عهد أبى بكر رضى الله عنه وعن بقية أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما كتبت لرسول الله صلى الله عليه وسلم العهود والمواثيق والكتب التى أرسلها الى الملوك والقياصرة من رجالات الدول المجاورة للجزيرة العربية أو غير المجاورة طالبا فيها منهم الدخول فى الاسلام •

وتوالت بعد ذلك كتب الخلفاء الراشدين وعهودهم وكبر حجم الكتابة فى عهدهم كثيرا حيث اتسعت رقعتها فى عهد عمر اتساعا كبيرا وأصبحت جزءا أساسيا من أعمال الدولة الاسلامية فتضمنت كل تعاليم الدولة وكل ما رسمته سياسته للمسلمين وأهل الذمة من العلاقات السياسية والاقتصادية فى الخراج وقسمة الغنائم وكل ما يتصل بالأنظمه للشعوب والبلاد المفتوحة •

واتسعت كذلك فى عهدى عثمان وعلى رضى الله عنهما • بل اتسعت

فى عهد على أكثر وتنوعت فى معانيها وأهـدافها ، حيث كثرت الأحزاب واتسعت ميادين الحروب وكثرت جبهات القتال ، وهذا ما جعل كتبـه تجنح فى أكثرها الى نواح سياسية •

فلما جاء العصر الأموى كانت الحاجة الى الكتابة والتـدوين أكثر من ذى قبـل لانتشـار الثقافة واتسـاع الحضـارة بعـد اتسـاع رقعةالأرض الاسلامية هناوهناك واختلاط العرب بالعجمورؤيتهمعندهم اضافات جديدة تضاف الى معارف العرب وعلومهم • وكان الاختلاط بين العرب والعجم أساسه الفتوح الاسلامية حيث كانت اللغة العربية تسير مع الجنود العرب أينمـا رحلوا أو حلوا • وحين يتم الفتح لبلد من البلدان كان يقيم عليها مجموعة من الجند الحمـاة ، وعليهم أفراد من العرب وغالبا ما يكونون هم أمراء هذه البلاد بعد فتحهـا ، ويتكثر تعاملهم واحتكاكهم بأهالى هذهالبلاد ، والتعرفعلى أحوالهم ومجاراتهم فى الكلام ، وكذا فى العادات والتقاليد،كما يحاول العجم المحكومون تعلم لغة العرب ومجاراتهم هم أيضا فى العادات والتقاليد ، ونشأ الاقبـال منهم على تعلم الدين الجديد ولغته ، فأكبوا على ذلك وصاروا علمـاء فى الدين واللغة • وفى ذلك ذيوع وانتشـار لكل فروع العلوم الدينية واللغوية • ولم يكن الأمر متوقفا على تعلم العجم الدين واللغة العربية وآدابها فقط ، بل انهم قد أضافوا الى العرب ونقلوا اليهم معـارفهم وعلومهم المختلفة من الطب والكيمياء والفيزياء والفلسفة والمنطق •• وغير ذلك •

وكان على العـرب والمسلمين أن يدونوا العلوم العربية والدينية وأن يضيفوا اليها ما وصلهم من علوم ومعارف الأمم المختلفة • وقـد دعتهم الى ذلك فى العصر الأموى دواع كثيرة •

منها وجود عناصر أعجمية كثيرة تعرف القراءة والكتابة ونظـام

التدوين ، فهى تقوم بدور عظيم وعليها يعتمد التدوين اعتمادا كبيرا •

ومنها أن الحرب والجهاد قد أهلك أعدادا كبيرة من العلماء والشعراء الذين أخذ العلم والشعر عنهم مشافهة وكثير من رواتهم ، ولابد من تقييد العلم وتدوينه حتى لا يضيع بموت الحفظة والرواة •

ومنها : حاجتهم الى المعارف الوافدة ، والتى لا يستفاد منها الا بتدوينها ومراجعتها والاضافة اليها ، والاستفادة منها كلما تطلب الأمر •

ومنها : حاجة الملك والسياسة الى مراجعة العلوم المختلفة التى يستفيد منها الحكام فى نظام حكمهم ، وصولا بدولهم الى مراقى الحضارة والثقافة ، والى الحياة الفاضلة •

وساعد على كل ذلك انتشار الكتابة ورقيها فيما بينهم ، ووجود العناصر الأجنبية من الفرس والروم واليونان وغيرهم من أصحاب الثقافات القديمة والتى تضيف الى ثقافة العرب وحضارتهم ثقافة وحضارة جديدة •

وكان أهم ما دون فى العصر الأموى من العلوم والمعارف :

التفسير : وقد رويت فيه روايات كثيرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم دون بعضها واكتفى الرواة بمشافهة أكثرها ، كما رويت عن أصحابه رضوان الله عليهم أجمعين روايات مختلفة قائمة فى بعضها على النقل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وفى بعضها الآخر على الاجتهاد والرأى الخاص •

الا أن هذا العلم قد اتسع نطاقه فى العصر الأموى عن ذى قبل ، وكان أشهر التفاسير وأولها تدوينا هو تفسير ابن عباس المتوفى

سنة ٦٨ هـ ، ثم تفسير مجاهد المتوفى سنة ١٠٤ هـ • وقيل أن تفسير مجاهد هو أول ما دون من التفاسير (١٨) •

هذا وقد عاش فى العصر الأموى جماعة من القراء الذين عنـوا بالقراءات القرآنية ورواياتها منهم : ابن كثير المتوفى ١٢٠ هـ وعبد الله بن عامر المتوفى ١١٨ هـ وعاصم المتوفى ١٢٨ هـ ويزيد بن القعقاع المتوفى ١٣٢ هـ وجماعة من مخضرمى الدولتين الأموية والعباسية كأبى عمـرو بن العلاء المتوفى ١٥٤ هـ ، وحمزة المتوفى ١٥٦ هـ ونافع المتوفى ١٦٩ هـ والكسائى المتوفى ١٨٩ هـ •

وقد اتسع هذا العلم واتسعت الدراسات القرآنية التابعة له ، واشتغل به وبعلوم القرآن عامة مجموعات ضخمة من العلماء فى العصر العبـــاسى •

الحديث : أما الأحاديث النبوية الشريفة فكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قد شغلوا أنفســهم بها واهتموا بها اهتمـامهم بالقرآن الكريم وروى أن عبدالله بن عمر بن العاص كان يدون بعضها ، وأن أباهريرة كان هو الآخر يكتب أحاديث رسول‌الله ﷺ ولكن الرسول ﷺ كان يخشى أن تلتبس آيات القرآن بأحاديثــه فى أذهان النـــاس فتنطق الآية على أنهـا حديث ، أو الحـــديث على أنه آية ، فنهى عن تدوين الحديث حتى يكون المدون هو القرآن فقط • فقال فى حـــديثه الشريف : « لا تكتبوا عنى ومن كتب عنى غير القرآن فليمحه ، وحدثوا عنى ولا حرج ، ومن كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار » •

ولكن بعد الفتوحات الاسلامية وانتشار الاسلام فى أنحاء كثيرة

---

(١٨) راجع : دراسات فى تاريخ الادب العرب فى ازهى عصوره للدكتور / محمد عبد المنعم خفاجى /١٩ ، مطبعة المدنى •

من الأرض ودخول كثير من الناس فى الاسلام ، واختلاط العرب بالعجم مع موت كثير من حفظة الحديث ورواته عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، اقتضت الحاجة تدوين الأحاديث الصحيحة ، واشـــتغل كثير من علماء العصر الأموى بذلك من أمثال : عاصـــم بن ســـليمان المتوفى ١٤١ هـ وخالد الحذاء مولى قريش المتوفى ١٤١ هـ ، وشعبة بن الحجاج المتوفى ١٦١ هـ وغيرهم كثيرون •

وروى ان عمر بن عبد العزيز (٩٩ — ١٠١ هـ) قـــد استخار الله أربعين يوما فى تدوين الأحاديث النبوية ، ثم أمر ابن شـــهاب الزهرى أو ابن جريج أو أبا بكر بن حزم بجمع الحديث وتدوينه ، فتم ذلك وبعث بنسخ منها الى الأمصار الاسلامية •

وروى أيضا أن لمحمد العامرى المتوفى ١٢٠ هـ كتابا ســـماه الموطأ جمع فيه الأحاديث لتكون أساسا للفقه ، وكانوا يفضلونه على موطأ مالك ، وعابوا عليه أنه لم يصحح عقد الرجال (١٩) •

ولمـــا كان تدوين الأحاديث النبوية عرضة للتزيد نتيجة لضعف نفوس بعض الناس الذين أرادوا أن يخدموا أغراضهم ودعوتهم ، كما هو الحال مع عبد الله بن سبأ الذى تشيع فى ظاهره ودعا لعلى بن أبى طالب دعوات مغرضة — وعلى منه براء — قامت على أمور ثلاثة هى : الوصية والرجعة والتأليه • أى أن النبى صلى الله عليه وسلم أوصى لعلى بالخلافة ولكنها انتزعت منه ، وأن عليا سيرجع فى آخر الزمان ويرد الناس عن طريقهم المعوج الى الطريق المســـتقيم ، وأن الاله ســـيحل فى على حلولا جزئيا • وذكر أحاديث من عنده تخدم دعوته التى كانت سببا فى فتنة كثير من الناس وتشيعهم •

---

(١٩) دراسات فى تاريخ الأدب العربى أزهى عصوره ص ٢٠ د/ محمد عبد المنعم خفاجى •

وكما كان الحال أيضا مع المهلب بن أبى صفرة الذى كان يضع أحاديث من عنده وينسبها للنبى صلى الله عليه وسلم ليشد بها أزر أتباعه من المسلمين ويضعف أمر الخوارج .. وما كان غير ذلك من بعض الناس .

فكان هذا الأمر دعوة ملحة للمسلمين للوقوف على الأحاديث الصحيحة والتمييز بينهما وبين الأحاديث الموضوعة .

فاندفع العلماء والفقهاء لهذا العمل الهام ، وكان من أشهرهم فى العصر الأموى ما ذكرناهم آنفا من أمثال : الزهرى وأبى بكر بن حزم وعاصم بن سليمان .. وغيرهم .

النحو : وكان أمر تدوينه ضرورة ملحة ، وذلك لاختلاط العرب بالعجم أثناء الفتوح الاسلامية وبعدها ، اذ كثر اللحن واللغط فى الألفاظ العربية وبدأت المسافة تتسع شيئا فشيئا بين اللسان العربى الخالص والعربى المشرب ببعض الألفاظ الأعجمية وبالتالى باللسان الأعجمى . وكان لابد من تدوين النحو وتقنين الاعراب والبناء حفظا للنحو من الضياع ، ومجهود أبى الأسود الدؤلى واضح ومعروف فى هذا الأمر . وقد وضع الحضرمى أيضا فى العصر الأموى كتابا فى الهمز .

الشعر : وهو من أهم العلوم والآثار العربية التى اشتغل بها فى العصور الأدبية الأولى ، فأخذ الرواة والمؤدبون فى رواية الشعر الجاهلى وتدوين كثير من قصائده ومقطوعاته واهتموا به اهتماما كبيرا ، ويقال : أن أول من جمع الشعر الجاهلى حماد الراوية المتوفى ١٥٦ ه ، ثم جاء المفضل الضبى المتوفى ١٧٨ ه فألف كتاب (المفضليات) ثم جاء من بعده الأصمعى (١٢٣ — ٢١٦ ه) فألف كتابه الأصمعيات .. وهكذا اتسع هذا النطاق فكانت جمهرة أشعار العرب لأبى زيد القرشى، والحماسة لأبى تمام .. وغيرها من المختارات الشعرية .

الأدب : ويقصد به الكتب التى ألفت فى الفتوحات وفى أيام العرب وأحاديث الخلفاء والحكام وغيرها — وهى مزيج من كلام العرب وشعرهم وحكمهم وأمثالهم • وقد اشتهر من بين من ألفوا فى ذلك أبو مخنف بن يحيى الأزدى المتوفى ١٧٥ هـ — كما اشتهر عبد الحميد بن يحيى الكاتب المتوفى ١٣٢ هـ برسائله الأدبيـة التى تعتبر من أهم التراث الأدبى فى العصر الأموى •

التاريخ : وقد عنى به الأمويون عناية فائقة خلفا لمعاوية مؤسس دولة بنى أمية الذى استكتب رجلا من أهل اليمن هو عبيد بن شرية الجرهمى بعض أخبار الأوائل فكتبها له وكتب وهب بن منبه كتبا كثيرة فى التاريخ منها : المبتدأ والخبر والتيجـان فى ملوك حمير ، وقصص الأنبياء ، وكتب الزهرى وأبان بن عثمان وعروة بن الزبير وغيرهم كتبا كثيرة فى المغازى والسير ، وكان أولها سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ومغازيه •

الفقه الاسلامى : وقد اشتغل به جمع غفير من الصحابة والتابعين فى العصر الأموى • ويقال : ان أول كتاب فى الفقه الاسلامى فى العصر الأموى ، هو كتـاب أملاه زيد بن على بن الحسـين على تلامـذته فى هـذا المجـال •

أصول الدين : ويقصـد بها : المسائل المتعلقـة بالذات الالهيـة والعلاقة بين الايمان والاسلام • والمسائل المتعلقة بالرسل وصفاتهم ودعواتهم ، وكثير من المسائل الدينية المتعلقة بالمسائل الدنيوية ، وقد نالت مسألة القضاء والقدر اهتمام أكثر من اشتغلوا بأصـول الدين ومسائل هذا العلم • وقد ألف واصل بن عطاء كتابا فى المرجئة وآخـر فى التوبة وثالث فى معانى القرآن ، وألف وهب بن منبه كتابا فى القدر وألفت فى مسائل الدين كتب كثيرة غير هذه •

الموسيقى والألحان : وقد كثر الاهتمام بها فى هذا العصر نتيجة تشجيع حكام بنى أمية للغناء والغزل فى أنحاء دولتهم وبخاصة فى مكة والمدينة • وروى أن يونس بن حبيب ألف كتبا فى الأغـانى دون فيها أصول الألحان عن معبد وابن سريج وغيرهما •

الطب والكيمياء : وهذان العلمان قد ترجما فى العصر الأموى من السريانية الى العربيـة ، حيث رأى عبد الملك بن مـروان خـالد بن يزيد المتوفى ٨٥هـ يهتم بالكيمياء ومعه أوراق نقلها من كتب السريان فى هذا العلم فقال له : أف لك ، نسب الملوك وهمة الموالى ؟ على أساس أن نقل الكتب وترجمتها كان من خصـائص الموالى وليس السـادة من النـاس •

وقيل ان خالدا هذا قد عنى بالكيمياء والطب وانه درس كتبهـا على رجل من السريان يدعى مريانوس ، وانه أمر اسطفانوس القـديم بترجمة هذه الكتب الى العربية ولخـالد رسالة فى الكيميـاء ، وكتـاب فردوس الحكمـاء(٢٠) •

ولكن هـل كان التأليف والتـدوين فى العصر الأموى قائما عـلى التحقيق والدراسة وذكر النتائج المترتبة على المقدمات وعلى عـرض الآراء ومناقشتها ، كما هو حاصل فى الكتابة والتأليف فى العصور التالية للعصر الأموى ؟

فى الواقع لم يكن هناك شىء من ذلك ، ولكن العلوم المدونة اعتمد العلماء فى تدوينها على جمع الروايات المحفوظة لدى الرواة والمنقـولة اليهم من الأوراق القـديمة والقليلة التى دونها بعض ممن يعـرمون

---

(٢٠) راجع : دراسات فى تاريخ الادب العربى ازهى عصـوره ص ٢٢ ، د/ خفاجى •

القراءة والكتابة فى العصر الجاهلى والعصر الاسلامى الأول • ولقد كانت هذه الروايات المجموعة والمدونة فى العصر الأموى نواة للجمع والتدوين الذى نال كثيرا من اهتمام العلماء فى أواخر القرن الثانى وأوائل القرن الثالث الهجرى • ثم كان تراثا عظيمـا اهتم به الشراح والمؤلفون بعد ذلك وتوفروا عليه شرحا ودراسة وتعليقا •

هذا وقد كان العرب سابقا ينظرن الى التدوين والترجمة نظرتهم الى أنواع الصناعات الأخرى التى يأنف العربى العمل فيها فيقوم بها الموالى • وقد مر بنا قول عبد الملك بن مروان لخالد بن يزيد حين رأى معه أوراقا فى الكيمياء نقلها من كتب الأعاجم : « أف لك نسب الملوك وهمـة المـوالى » ؟

ولعل هذا كان من الأسباب القوية فى نبوغ الأعاجم وتقدمهم فى العلوم الدينية والعربية فى العصرين الأموى والعباسى ، وربما فـاق كثير منهم العرب فى ذلك •

وكان من أشهر المؤلفين والمترجمين فى العصر الأموى : خـالد ابن يزيد المتوفى ٨٥هـ وله اهتمام بالطب والكيمياء • خالد بن صـفوان المتـوفى ١٣٥هـ •

ابن سيرين المتوفى ١١٠هـ وكان اهتمامه بالأحلام وتفسـيرها أكثر عنده من غيرها من العلوم • فله كتاب الجوامع ، ومنتخب الـكلام فى تفسير الأحلام ، ومختصر عنوانه تعبير الرؤيا •

زياد بن أبيه • وله كتاب فى المثالب •

ثيا ذوق طبيب الحجاج • وله قصيدة فى الصحة •

عبيد بن شرية الجرهمى • وهو صاحب كتاب : أخبار ملوك العرب

والأمم الماضية ، الذى ألفه لمعاوية حين استدعاه ليكتب له عن أخبار الماضين من الملوك والأمم .

ابن شهاب الزهرى المتوفى ١٢٤هـ وله كتاب فى المغازى . وكان محدثا وعالما مشهورا ..

وهب بن منبه المتوفى ١١٤هـ وله كتب عدة منها « التيجان فى ملوك حمير » (المبتدأ والخبر) و « قصص الأنبياء » وهو من أشهر علماء عصره .

الى غير هؤلاء من العلماء والمؤلفين أصحاب الآثار العلمية والأدبية فى العصر الأموى .

المراكز الثقافية فى العصر الأموى :

وقد كثرت المراكز الثقافية وتعددت فى العصر الأموى ، وكان أشهرها وأكثرها ظهورا بين المراكز جميعها : مكة والمدينة فى الحجاز ، والكوفه والبصرة فى العراق . والفسطاط فى مصر . ودمشق فى بلاد بلاد الشام .

أما فى بلاد الحجاز (مكة والمدينة) فقد شاع الغناء وكثر الغزل القصصى والعذرى وقل الهجاء والمديح على عكس ما هو منتشر فى بلاد الشام والعراق . وكان ذلك فى بلاد الحجاز نتيجة الترف والبذخ الشديد الذى عاشوا فيه .

فلما كانت بلاد الحجاز مهد المهاجرين والأنصار وموطن الأشراف والسادة من رجال العرب والمسلمين وفيها زعماء البيت العلوى (الحسن والحسين) ، وفيها أبناء الخلفاء ، عبد الله بن أبى بكر وعبد الله بن عمر وأبا بن عثمان ، وأبناء الامام على بن أبى طالب كرم الله وجهه وأبناء

الصحابة • وان ثورة هؤلاء جميعا اذا اندلعت فليس من السهل أن يخمد أوارها • ففطن لذلك كله معاوية ومن جاء بعده من خلفاء بنى أمية • وحكموا بلاد الحجاز بأسلوبين فى وقت واحد • بصرامة السيف من جانب ، وبالأموال الطائلة التى أفاضوها عليها من جانب آخر • فانتشر نتيجة لوجود الأموال الكثيرة الترف وعاشوا عيشة ناعمة وقل العمل من أجل الحصول على الرزق وانتشر الغناء والرقص ووجد اللهو فى هذه الأماكن نتيجة المال والفراغ ، وشجع الأمويون فيهم ذلك ليشغلوهم عن السياسة وأمور الملك • وزادوا فى عطائهم وبخاصة أبناء الخلفاء منهم • فبعد أن كان عطاء الحسن أو الحسين فى عهد عمر خمسة آلاف درهم فى العام صار عطاء كل منهما فى عهد معاوية ألف درهم • وبهذا الأسلوب صارت المجامع الثقافية فى بلاد الحجاز من أرقى المجامع وأكثرها ازدهار آنذاك •

وأما فى العراق : فقد ذاع فيها لون آخر من الثقافة ، حيث كثرت فيها الأحزاب ووجدت المعارضة وكثرت الفرق المذهبية ، وانتشر الشعر السياسى ، واتسعت دائرة الخلافات المذهبية بين العلماء سواء فى الدين أو فى اللغة والأدب ؛ وكانت شهرة أهل البصرة ومدرستها باللغة وعلومها ، وشهرة أهل الكوفة بالشعر وروايته • كما كثرت القراءات القرآنية واشتغل بها جمع غفير من علماء المسلمين والقراء فى العراق •

ومعنى ذلك كله أن الثقافة انتشرت وتنوعت فى العراق أكثر من غيرها من بلاد العالم الاسلامى • وكان هذا الامتياز ناجما عن تعدد العناصر الثقافية وكثرة الأجناس والأفكار التى امتزجت نتيجة الاختلاط والاحتكاك • وقد وجدت المدارس اللغوية لشدة الحاجة اليها فى العراق ، اذ أن كثرة العناصر العربية والأعجمية واختلاط هذه العناصر بعضها بالبعض الآخر أدى لفساد الملكات ووجود اللحن فى النطق ، بالاضافة الى أن العراق كان موطن السريان • وهؤلاء كانت لهم قواعد

منظمة فى لغتهم تختلف عن القواعد العربية فى النحو واللغة، والاحتكاك بين هذه وتلك يؤدى الى الاضطراب والخلل فى النطق والاعراب . فكان لابد من وجود المدارس النحوية واللغوية التى تحسم هذه القضايا . فوجدت مدرسة البصرة ومدرسة الكوفة . ووجد سوق المربد وسوق الكناسة عدا المجالس الأدبية اللغوية الأخرى .

وأما فى بلاد الشام : فكانت دمشق هى مقر الخلافة الأموية . ومنارة العلم والثقافة ومقصد الناس من كل حدب وصوب ، يأتى اليها الشعراء والأدباء ويفد اليها الناس رغبة فى العلم والمال معا . وفيها جمع غفير من اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من الذين فتحوا هذه البلاد ثم طاب لهم البقاء فيها من أمثال / معاذ بن جبل المتوفى ١٨هـ وعبادة بن الصامت وأبى الدرداء المتوفى ٣١ هـ . وفيها كل خلفاء وأمراء الدولة الأموية . وأعداد هائلة من العلماء والأدباء من أمثال : سالم مولى هشام بن عبد الملك وصاحب ديوانه ، وكان يعرف العربية والفارسية واليونانية . وقد ترجم بعض رسائل أرسطو . وعبد الحميد بن يحيى الكاتب الذى توفى ١٣٢ هـ مع آخر خلفاء الدولة الأموية مروان بن محمد بن مروان بن الحكم ، وكا صاحب ديوانه وهو أول من وضع الأصول الفنية لكتابة الرسائل الأدبية وقد أشتهر برسائله التى كانت أبرز كتابات عصره .

وغيرهما من علماء العصر وكتابه مثل : عبيد بن شرية ووهب بن منبه . وخالد بن يزيد وابن شهاب الزهرى ... وغيرهم . وكانت مكتبتها من أكبر المكتبات الموجودة أنذاك . تضم العديد من كل فروع العلم وفنونه المدونة والمترجمة .

وأما فى مصر : فكانت الفسطاط هى عاصمتها بعد فتح عمرو ابن العاص لها سنة ٢٠ هـ وقد حكمها من قبل الخلافة الأموية اثنان

وعشرون واليا ، وكانت مقرا آمنا لكثير من العلماء الذين باشروا مهماتهم العلمية فيها • فكان من علمائها : عبد الله بن عمرو بن العاص المتوفى ٦٨هـ وعبد الله بن لهيعه المتوفى ٩٦ هـ وكان هـذا الأخير من أكبر المصـادر التاريخية فكان العلماء والرواة يروون عنه الكثير من الأحداث التاريخية فى فتح العرب لمصر • وكان من علمائها أيضا : الليث بن سعد أحد الفقهاء المشاهير المتوفى ٩٤ هـ ، ونافع المتوفى ١١٧ هـ وهو مولى عمر بن الخطاب • وقد بعثه عمر بن عبد العزيز ليعلم أهل مصر السنن •

هذا وقد وفد على مصر ابان الحكم الأموى العـديد من الشعراء والأدباء ، ومن بينهم : نصيب وجميل بثينة وكثير عـزة وابن قيس الرقيات وأيمن بن خزيم •• وغيرهم ، وكانت الحركة العلمية والأدبية فى مصر وبخاصة الفسطاط كبيرة ومزدهرة تضارع بمثيلاتها فى الحجاز والعراق وبلاد الشام •

الثقافة والجدال المذهبى :

لاشك أن الثقافات المختلفة لدى المسلمين والتى كانت مصادرها من جانب العرب العلوم الدينية والعربية وبعض المعارف الكونية القليلة كالطب والقيافة والأثر والأنساب والاهتداء بالنجوم •• ونحو ذلك • ومن جانب العجم العلوم الكونية كالطب والكيمياء والفلسفة والمنطق •• وغيرها من العلوم التى انتقلت الى عاصمة الدلة الاسـلامية ومـدنها الكبيرة بالترجمـة والتدوين • لاشـك أن هـذه الثقافات باندماجها وتفاعلها فى أذهان المسلمين وبخاصة المثقفون منهم ، قد أثمرت وظهـر أثرها بين الفرق والمذاهب العقائدية التى انبثقت عن الأحزاب السياسية وظهر الجدل الدينى الذى لا يجيد المحاورة والمداورة فيه غير المثقفين بالثقافات المختلفة •

وقد عرفنا أن الخلافات والصراعات السياسية بين علي ومعاوية بعد مقتل عثمان بن عفان رضي الله عنه قد أدت الى انقسام فى الصف العربى والاسلامى الواحد ، فوجدت الأحزاب السياسية الكثيرة ، وكل حزب يرى أن الحق فى استنباط الأدلة المرجحة لرأيه • ولما كان الدين أساس الحكم ومصدره الأول • حاول كل فريق أن يصبغ آراءه بصبغة دينية ، وأن يكون حديثه عن الخلافة والحكم من الجانب الدينى والعقائدى • وله فى مبادئه وأفكاره التى ينشرها أدلة يحاول أن ينتزعها من الدين انتزاعا • كما يحاول أن يفلسفها ويمنطقها بحيث تجعل من الخلافة ثوبا مفصلا عليه دون سواه •

هذا وقد أدى الانقسام السياسى بين المسلمين فى ذلك الوقت الى انقسام آخر فى العقيدة والمذهب ، فوجدت مجموعة فرق دينية تختلف فى نظرتها للمفاهيم العقائدية وتكون رأيها بناء على هذا الاختلاف • وتعتمد فى تكوين آرائها على مبادىء وأفكار وأساليب خاصة ، وهى مؤمنة كل الايمان بهذا الرأى وتلك العقيدة • وهذه الفرق هى :

الشيعة :

وأصحاب هذه الفرقة هم الذين تشيعوا للامام على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، والأساس الذى تقوم عليه عقيدتهم هو أحقية على بالخلافة وقصرها عليه دون سواه ، ثم تطور الأمر ووجدت أفكار كثيرة لدى هذه الفرقة ، منها المتطرفة ومنها غير المتطرفة • وبناء عليه انقسمت هذه الفرقة الى فرقتين :

الأولى : الامامية : التى وضع أسسها عبد الله بن سبأ الذى كان يهوديا وأسلم ووضع أفكارا مسمومة اعتنقها بعض المسلمين من شيعة الامام على كرم الله وجهه ، وتتبلور أفكاره فى ثلاثة أمور : هى الوصية والرجعة والتأليه •

أما الوصية . فقال فيها ابن سبأ : ان لكل نبى وصيا ، وعلى وصى محمد ، فالامامة ليست من المصالح العامة ، التى تترك للمسلمين وتفوض الى نظر الأمة ، بل هى ركن الدين وقاعدة الاسلام ، ولا يجوز لنبى اغفالها ، ولهذا عين الرسول صلى الله عليه وسلم عليا وأوصى له بالامامة من بعده .

وأما الرجعة : فقد قال ابن سبأ – أولا – برجوع محمد صلى الله عليه وسلم الى أمته ليقيمها على الدين من جديد وينشر العدل والخير بين الناس . فلما قتل على بن أبى طالب أنكر ابن سبأ قتله ، وقال : انه صعد الى السماء ، وسيرجع ليملأ الأرض عدلا بعد أن ملئت جورا .

وأما التاليه فكان يزعم بن سبأ أن فى على جزءا الاهيا .

وقامت على أساس هذه الأفكار والتعاليم الهدامة فرقة الامامية التى تشعبت فيما بينها الى طوائف نظرا لعقيدتهم ، فمنهم المنتظرون لرجعة جعفر الصادق ، والمنتظرون لرجعة محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسين والمنتظرون لرجعة محمد بن الحنفية ، وهذه الأخيرة تسمى الكيسانية نسبة الى كيسان مولى على رضى الله عنه .

والثانية : الزيدية : وهم أتباع زيد بن الحسن بن على بن الحسين ابن على بن أبى طالب ، وهى فرقة معتدلة ، لأنها لا تؤمن بالخرافات الكثيرة التى ألصقها ابن سبأ بالامام على وتبعه فيها الامامية ، ولأنها تجوز امامة المفضول مع وجود الفاضل . فامامة أبى بكر وعمر صحيحة مع وجود الفاضل – فى نظرهم – وهو الامام على كرم الله وجهه . ويختلف الزيدية أيضا مع بقية طوائف الشيعة فى مبدأ « التقية » لأنهم يؤمنون بالثورية والايجابية ، ووجوب خروج الامام وثورته على الوضع الذى ذكره ، بخلاف الطوائف الأخرى التى لا ترى ذلك . هذا ،

وقد تسلل الى غلاة الشيعة كثير من مزاعم اليهود والنصارى والفرس والهنود (٢١) •

الخـــوارج :

وسموا بذلك لخروجهم على رأى الجمـــاعة فى التحكيم بين على ومعاوية ، وكانت مبادئهم تقوم على أساس أن الخلافة يجب أن تكون باختيار حر بين المسلمين وأن تتحقق فيها الأوامر الالهيه بالشورى وفقا للآية الكريمة « وأمرهم شورى بينهم » واذا اختير للخلافة واحد من المسلمين لا يجـــوز له أن يتنازل أو يقبل فى أمـــره التحكيم ، ولهـــذا خطأوا عليـــا لقبوله التحكيم فى خلافه مع معـــاوية • ومن آرائهم أن الخلافة ليست مقصورة على قريش أو غيرها من بلاد المسلمين • ولكنها أمر عام يليه من يستحقه من المسلمين بشرط أن يكون ورعا تقيا زاهـــدا فى الدنيا • ويجب أن يخضع الامام خضوعا تاما لأوامر الله عـــز وجل ونواهيه ، والا وجب عزله ، فهم يعتبرون أن جميع الأعمال التى أمر بها الدين ، أو نهى عنها انما الالتزام بها من صلب الايمـــان وجـــزء لا يتجزأ منه فمن ترك أمرا من أوامر الدين كأن ترك الصلاة أو الزكاة أو الصيام مثلا ، أو فعل أمرا منهيا عنه كأن كذب أو ظلم أو جار فى حكمه •• أو ما الى ذلك ، فهو كافر وقالوا : ان مرتكب الكبيرة كافر •

وانقسم الخوارج كغيرهم الى فرق متعددة ، بعضها كان مغاليا وبعضها كان معتدلا • ومن هذه الفرق :

الأزارقة : وهم أتباع نافع بن الأزرق ، وهم كفّروا جميع من عداهم من المسلمين ، ولذلك أحلوا قتل نساء وأطفال غير الخوارج ،

---

(٢١) الأدب العربى فى ظل بنى أمية ص ٢٩ ، دار الحمامى للطباعة د• جودة عبد الله مصطفى •

وكفروا من يقعد منهم عن القتــال ، ومنعــوا التزوج والتوارث من غير الخوارج •• وكانوا مغالين فى أفكارهم ومبادئهم الى حد كبير •

الصفرية : وهم أتباع زياد بن الأصفر • وكانت أفكارهم قريبــة الى حد كبير من أفــكار الأزراقة ولا تختلف عنهــا كثيرا فى مغــالاتها وتطــرفها •

النجدات : وهم أتبــاع نجدة بن عامر • وكانت آراؤهم قريبة من الاعتدال ولهذا كانت مقبولة الى حد كبير • فاذا أخطأ المرء فى رأيهم بعد اجتهاد واستقراء وتتبع فانه معذور ، فمن أداه اجتهاده الى تحليل حرام أو تحريم حلال دون علم ومعرفة فهو معذور •

الاباضية : هم اتباع عبد الله بن اباض التميمى ، وهؤلاء أيضــا آراؤهم مقبولة فى أكثرها لقربها من الاعتــدال ، فهم لا يكفرون كل الناس ولا يحرمون التزوج والتوارث من غير الخوارج •

المرجئــة : وهى احدى الفرق المذهبية التى رأت الخلافات الحادة بين الشــيعة بفرقهــا المختلفة • وبين الخوارج بفرقهم المختلفة حول الخلافة وقضايا الدين ، فأرجأت أمــرهم وتركت الحكم فيهم الى الله عز وجل • ولم تتوقف آراء أصحاب هذه الفرقة عنــد الخلافة ومن يستحقها من الناس ، بل خاضوا فى قضايا الدين ومســائله كغيرهم من رجال الفرق الأخرى ، ولهم آراؤهم التى عرفوا بها ، فهم يرون أن مرتكب الكبيرة ليس كافرا ، وأن الامامة ليست ركنا من أركان الايمان، كما يعتقد الشيعة فى ذلك ، وأن العمل ليس ركنا من أركان الايمــان الذى هو الاعتقاد فى الله ورسوله •

هذا وقد خلد مذهبهم وأفكارهم هذه رجل منهم هو ثابت بن كعب الملقب بقطنة الذى رأى جدالا حادا بين الخوارج والمرجئة حول قضاية

الخلافة ومسائل الدين فأعجبته أفكار المرجئة وآراؤهم فوضعها فى وثيقة شعرية قال فيها .

ياهند انى أظن العيش قد نفدا ولا أرى الأمر الا مدبرا نكدا
انى رهينة يوم ، لست سابقة الا يكن يومنا هذا فقد أفدا (٢٢)
بايعت ربى بيعا ان وفيت به جاورت قتلى كراما جاوروا أحدا
ياهند فاستمعى لى ان سيرتنا أن نعبد الله لم نشرك به أحدا
نرجى الأمور اذا كانت مشبهة ونصدق القول فيمن جار أو عندا (٢٣)
المسلمون على الاسلام كلهم والمشركون أشتوا دينهم قددا (٢٤)
ولا أرى أن ذنبا بالغ أحدا م الناس شركا اذا ما وحدوا الصمدا
لا نسفك الدم الا أن يراد بنا سفك الدماء طريقا واحدا جددا (٢٥)
من يتق الله فى الدنيا فان له أجر التقى اذا وفى الحساب غدا
وما قضى الله من أمر فليس له رد ، وما يقضى من شىء يكن رشدا
كل الخوارج مخط فى مقالته ولو تعبد فيما قال واجتهدا
أما على وعثمان فانهما عبد ان لم يشركا بالله مذ عبدا
وكان بينهما شعب وقد شهدا شق العصا وبعين الله ما شهدا
يجزى على وعثمان بسعيهما ولست أدرى بحق آية وردا
الله يعلم ماذا يحضران به وكل عبد سيلقى الله منفردا (٢٦)

---

(٢٢) أفدا = قرب ودنا .

(٢٣) عندا = مال .

(٢٤) أشتوا فرقوا . والقدة : الطريقة والفرقة من الناس . أى فرقوا دينهم فرقا مختلفة .

(٢٥) الطريق الجدد : المستوى .

(٢٦) الاغانى ٢٧٠/١٤ .

القدرية والمعتزلة والجبرية :

أما القدرية فهم أتباع معبد الجهنى وغيلان الدمشقى ، وتدور أفكارهم فى معظمها حول القضاء والقدر . ولذلك أثيرت القضية الجدلية والتى ما زالت تدور فى أذهان بعض الناس ومضمونها : هل الانسان مسير أم مخير؟ فى رأيهم أن الانسان ليس مسيرا فى كل أعماله ولا مخيرا فى جميعها ، وانما فى أعماله بالذات هو صاحب قدرة واختيار ، وليست أعماله فرضا عليه . واعتنق هذا الرأى المعتزلة الذين كانوا برأسهم واصل بن عطاء .

وكان من آراء القدرية والمعتزلة معا . أن مرتكب الكبير فى منزلة بين المنزلتين ، فهو ليس كافرا كما يقول الخوارج ، وليس مؤمنا كما يقول المرجئة ، وانما هو فاسق .

أما الجبرية : وهم أتباع جهم بن صفوان ، ولذلك كانوا ينسبون اليه فيقال الجهمية ، وأبرز ما عرفوا به من آراء هى مسألة القضاء والقدر . فقالوا : ان انسان مسير ومجبر فى كل أعماله وتصرفاته وليس له اختيار فى أى أمر من الأمور .

واتفق الجميع من القدرية والمعتزلة والجبرية على نفس الصفات الأزلية عن الله عز وجل ، وأنه — سبحانه وتعالى — سميع وبصير بذاته ، جميع صفاته تعالى ذاتية ، وليست هناك صفات زائدة على الذات . كما قالوا جميعا بخلق القرآن ، وأنكروا أن الله تعالى يرى يوم القيامة .

وهكذا أثمرت الثقافة ثمرتها واتسعت آفاقها وتنوعت فنونها فى هذا العصر . ولقد أدى الامتزاج الثقافى بين الثقافات العربية

والثقافات الأجنبية التى انتقلت الى العرب بالترجمة او النقـل الى اتساع المدارك وازدهار العلم وازدياد الاهتمام به . لدرجة أن الغالبية العظمى من الناس سواء من العرب أو من العجم قـد شغلوا أنفسهم بتحصيل العلم ومدارسته والعمـل فيه اما بالتـأليف والتدوين واما بالترجمة من علوم ومعارف الأجانب ، واما بنقل هذه العلوم من الأجنبية الى العربية ، وقد عمت الفائدة من ذلك كله .

الفصل الثانى

نهضـــة الأدب والشـــعر

مما لاشك فيه أن الأدب العربى بشعره ونثره قـــد ازدهر ازدهارا عظيما فى عصر بنى أمية ، وذلك لمروءة الدولة وأصالة رجالها واهتمامهم بالادب وانابتهم عليه وتشـــجيعهم على أزدهاره ورقيه بعطائهم الكثير ومنحهم الجزيلة وهباتهم الوفيرة • ومما يروى فى ذلك : أن عبد الملك ابن مروان أعطى أعرابيا وصف ناقته مائة بعير ، وأعطى أعرابيا آخر وصف المطر ألف درهم ،وأعطى الوليد بن عبد الملك امرأة وصفت الغيم بعد المحل مائة دينار • وأعطى سليمان فرسه وما يحمله ويتجمـــل به لرجل أحسن وصف الفرس (١) ••• الى غير ذلك من الهبات الكثيرة التى قصد من ورائها حكم بنى أمية الى تشجيع الشعراء كنوع من الاهتمام بالأدب والعناية به •

يقول د/ خفاجى فى ذلك : « وكان الشعراء النصيب الأوفى من عناية هؤلاء الخلفاء ، لأنهم كانوا أشد الناس اذكاء للعصبية وتأليفـــا لقلوب العرب وجمعا لهم على نصرة بنى أمية ، فكانت لهم أعطيات فى بيت المـــال كل حســـب طبقته ومنزلاته وأثره فى مدح الدولة والذود عنها • كل ذلك بينما شعراء بنى هاشم وشعيتعهم يستلهمون وحى الشعر من حب أبناء الرسول صلى الله عليه وسلم أكثر ممـــا كانوا يستمدونه من أموالهم وأفعالهم • ومن هذين المددين « المـــال والمودة » ازدهـــر هذا العهد بالشعر أكثر مما ازدهر به أى عهد سواه(٢) •

---

(١) دراسات فى تاريخ الادب العربى ص ٤٣ د/ خفاجى •

(٢) نفس المرجع والصفحة •

ومما يروى عن الخلفاء والأمراء من تشجيعهم لأبنائهم وغيرهم على طلب الأدب والاهتمام به ، ما قاله عبد الملك بن مروان لبنيه « عليكم بطلب الأدب ، فانكم ان احتجتم اليه كان لكم مالا ، وان استغنيتم عنه كان لكم جمالا » .

وقال معاوية : « اجعلوا الشعر أكبر همكم وأكثر آدابكم وقال شبيب بن شيبة : اطلبوا الأدب فانه مادة العقل ، والدليل المروءة»(٣).

وهذا كله أدى الى انتعاش الأدب بشعره ونثره فى العصر الأموى وازدهاره ازدهارا عظيما وتجلى ذلك فى أمور كثيرة حيث انتشرت اللغة وذاع أمرها فى ربوع الدولة الاسلامية الكبيرة آنذاك وتعددت مواطن الثقافة والأدب وتعددت معها مواسم الأدب والمجالس الأدبية ، ونشأ نوع جديد من الأدب السياسى الذى يتضمن أغراضا وموضوعات سياسية أو تدور حول الحكم وسياسة الخلفاء فيه ما يفعلونه من أجل البقاء والمحافظة على حكوماتهم من الضياع . لذلك أغدقوا الأموال الطائلة على الشعراء ، فتنافس الشعراء فى مديحهم والتقرب منهم حتى يكونوا أصحاب حظوة لديهم . وادى علماء الرواية واللغة الذين اهتم بهم الخلفاء وجعلهم محكمين فى الأدب الشعر ، فمن حكموا له بجائزة أخذها ومن حكموا على قصيدته بالضعف وسوء المعنى أو حداثته لا يأخذ شيئا .

وكان من مظاهر الاهتمام بالأدب والشعر لدى الخلفاء والأمراء فى هذا العصر : أنهم بذلوا الكثير من عنايتهم وأموالهم فى سبيل تدوين الأدب واللغة ووضع النقط والشكل ونقل لغة الدواوين من الفارسية والسريانية وغيرهما الى اللغة العربية . وقد رعوا كتاب الدواوين رعاية

---

(٣) وفيات الأعيان ٢/٤٢ .

كبيرة،واتخذوا الأعلام البارزين فى اللغة العربية منهم فى ديوان رسائل الخلفاء من بينهم : هشام مولى عبد الملك الذى كان يعرف اليونانية والعربية ، وعبد الحميد الكاتب — صهر هشام — الذى كان يعرف الفارسية والعربية ، وكان رئيسا لديوان الانشاء فى عهد آخر خلفاء بنى أمية : « مروان بن محمد ورسائل عبد الحميد الكثيرة والمشهورة هى التى جعلت الثعالبى يقول : « بدئت الكتابة بعبد الحميد ، وختمت بابن العميد » (٤) •

كذلك أحيوا العصبية القبلية بين قبائل العرب وأوغروا صدور الأدباء والشعراء فى القبائل المتنازعة كقبيلة دارم واليربوع ، وكالقبائل اليمنية والقيسية ، فاشتد الشعراء فى مفاخراتهم ومنافراتهم وفى هجائهم للقبائل المعادية لهم ، فراج أدبهم وازدهر شعرهم ، وانتشرت مآثرهم هنا وهناك،وفى هذا شغل للشعراء بمعانيهم ونظمهم وانشادهم، وشغل للرواة بحفظ هذا الشعر وروايته ، وشغل للنقاد بالمفاضلة بين هذا الشاعر وذاك • وفى هذا كله نفع للأدب ورواج له •

وترتب على هذا كله ، أن عقدت المجالس الأدبية لانشاء الشعر وسماعه ونقده والمفاضلة بين الشعراء ، ولم يسلم من ذلك أكثر الناس حتى العلماء والفقهاء منهم • ولم تسلم من ذاك كل الأماكن حتى المسجد الحرام الذى كانت تعقد فيه بعض المجالس الأدبية • فقد روى المبرد فى كتابه (الكامل) أن ابن عباس كان بالمسجد الحرام وعنده نافع بن الأزرق وناس من الخوارج يسألونه ، اذ أقبل عمر بن أبى ربيعة فى ثوبين مصبغين موردين • حتى دخل المجلس ، فجلس ، فأقبل عليه ابن عباس ، فقال أنشدنا فأنشده رائيته المشهورة التى فتح بها عمر

---

(٤) راجع الفهرست لابن النديم .

صفحة جـــديدة فى تاريخ الغـــزل ، ونقله من مظهره التقليدى الى لون قصصى جديد كل الجدة ، عد عمر زعيمه وأبا نشأته ، وأخذ عمر ينشد :

أمن آل نعم أنت غاد فمبكر غداة غـــد أم رائح فمهجر

حتى أتى على آخرها فأقبل نافع على ابن عبـــاس وقال له يا ابن عباس انا نضرب اليك أكباد الابل نسأل عن الحلال والحرام ، فتتثاقل عنا ، ويأتيك غلام مترف من قريش فينشدك :

رأت رجلا أما اذا الشمس عارضت (فيجزى) وما بالعشى(فيخسر)

فقال له ابن عباس : ليس هكذا قال ، انما قال :

رأت رجـــلا أما اذا الشمس عارضت فيضحى وأمـــا بالعشى فيخصر

فقال له نافع : ما أراك الا قد حفظت البيت ، قال أجل ، بل ان شئت أن أنشـــدك القصـــيدة فعلت ، قال : فانى أشـــاء ، فأنشـــده القصيدة كلها » (٥) •

وهذا دليل واضح على ازدهار الأدب ورقيه فى العصر الأموى وقد تجلت نهضته فى ذيوع الشعر وارتقائه حتى فاق فى ازدهاره جميع العلوم وانشغل الناس به •وفى ظهور الأدب السياسى كغرض جديد من أغراض الأدب ، وارتقاء الغزل بأنواعه المختلفة : العذرى والقصصى والصريح ، كذلك تجلت فى نهوض بقية أغراض الشعر وموضوعاته كالزهد والحكمة والعقائد ووصف البلاد المفتوحة ، والقصص التاريخى الذى كتب به السيرة النبوية • وهناك غرض جديد أضيف الى هـــذه الأغراض وهو شعر الشعوبية الذى ظهر على أيدى شعراء الموالى أيا كانت أصولهم

---

(٥) الكامل للمبرد ١٤٤ ، ١٤٥/٣ ، وراجع : دراسات فى تاريخ الأدب العربى د/ خفاجى ص ٢٨ - ٢٩ •

كرد فعل للعصبية العربية فى دولة بنى أمية ، ومن هؤلاء الشعراء الموالى نصيب وعبد بنى الحسحاس وهما من أصول حبشية ، والحيقطان وهو من أصل زنجى حبشى ، وأبو نخيلة وزيادة الأعجم وموسى شهوات واسماعيل بن يسار واخوته وهم من أصول فارسية .

وقد تأثر الأدب فى مواطنه المختلفة بأمرين :

الأول : البيئة التى نشأ وترعرع فيها .

الثانى : سياسة الدولة التى لونت هذا الأدب ووظفته لصالحها فكان الأدب فى العراق يغلب عليه الطابع السياسى نتيجة للتيارات المختلفة والأحزاب الكثيرة التى وجدت على أرض العراق فكان هناك أنصار الحزب الحاكم ، والى جوارهم الشيعة والخوارج والزبيريون ، والمتعصبون من أصحاب القبائل المروانية والمضرية والقحطانية ، والى جانب هؤلاء جميعا الشعوبيون من الموالى الذين تعصبوا ضد العرب .

وكان لكل حزب من هذه الأحزاب أو طائفة من هذه الطوائف شعراء وخطباء وكتاب يعبرون عن ارادة حزبهم وعن مطالبهم فى قصائد شعرية وخطب مرتجلة ورسائل مكتوبة ، وهم فى كل تعبيراتهم يصدرون عن سياسة الحزب ورأيه فى كل قضية مطروقة وفى كل أمر من أمورهم . ولذلك كان الأدب السياسى فى العراق أكثر منه فى أية بقعة أخرى من بقاع الدولة الأموية .

وكان الأدب فى الحجاز قد تأثر بحياة المترفين من شبابه ولذلك انشغل الشباب فى بلاد الحجاز وبخاصة فى مكة والمدينة بالغزل الرقيق والمقطعات التى راعى الشعراء فى نظمها وانشائها أن تكون للغناء ، وقد تحول هذا النوع من الغزل الرقيق فيما بعد الى اللهو والمجون .

وفى بلاد الشام فاق المديح أغراض الشعر الأخرى ، حيث كان الحزب الحاكم يقيم فى دمشق ، حيث الأموال الكثيرة التى تنثر على

الشعراء القاصدين بلاد الخلفاء فكان الشعراء ينظمون فى مديح الخلفاء وفى تهنئتهم بانتصاراتهم العظيمة ويباركون خطواتهم الى البلاد المفتوحة ، ويصفونهم بالشجاعة والاقدام ، كما يصفونهم بالكرم •

وفى البوادى المختلفة من أرض الجزيرة العربية وبخاصة قبائل نجد قد تأثر الأدب بحياة أهل هذه البوادى ، وما هم عليه من اعتزاز وأنفة ، حيث كانت كل قبيلة تعتز وتفخر بأمجادها وبطولاتها وبأحسابها وأنسابها ، فبرز غرض الفخر من بين أغراض الشعر جميعها ، حتى ان منهم من انتمى الى حزب من الأحزاب العقائدية قد علا صوته مشيدا بحزبه ، منصفا لعقيدته معتزا بصنيعه ، مفتخرا برجاله الذين يتبعهم ، فيمدحهم ويعلى من قدرهم ، وأنهم على صواب فى اعتقادهم وغيرهم على باطل •

كما برز فى البوادى العربية فى هذا العصر من بين الأغراض الكثيرة التى كانت متوارية والتى كانت موجودة بالفعل الا أنها ارتقت وزاد الاهتمام بها غرض الهجاء الذى أخذ شكل المناقضات بين كثير من الشعراء وكان من أعلام هذه المناقضات جرير والفرزدق والأخطل • والغزل العذرى الذى ألبسه شعراء البوادى ثوب العفة والطهارة وعبروا فيه عن خطرات نفوسهم وخلجات مشاعرهم وأحاسيسهم تجاه من يحبون معبرين عن اللقاءات الطاهرة العفة دون تعرض لأشياء تخدش العفاف والطهارة •• ونظم شعراء البوادى الى جانب هذه الأغراض البارزة فى كل من أغراض الشعر بالوصف والرثاء والحكمة وغيرها من الأغـراض •

هذه الحركة المتوثبة للأدب بعامة وللشعر على وجه الخصوص فى العصر الأموى كان وراءها تشجيع الخلفاء والأمراء ورجال الدولة • وعنايتهم الفائقة بالأدب والنهوض به ، وقد ظهر ذلك واضحا فيما ذكرناه

سابقا من مطالبة معاوية وعبد الملك ابن مروان وشبيب بن شيبة وغيرهم من أصحاب الشأن فى الدولة أن يهتم الناس بالأدب ، وأن يجعلوا الشعر أكبر همهم وأكثر آدابهم فإن فيه مآثر أسلافهم كما قال معاوية •

ولما كانوا متذوقين للشعر ناقدين له عارفين دروبه ومضايقه فكانوا يفاضلون بين الشعراء فى الغرض والمعنى ، ولذلك كان الخليفة أو الأمير يطلب من مؤدب أولاده أن يؤدبهم بأدب شاعر بعينه يحس فى قرارة نفسه أنه أنفع فى لغته ومعانى شعره لأولاده من غيره • ومن ثم

فكان عبد الملك يقول لمؤدب أبنائه : أدبهم برواية شعر الأعشى •

وقد كثر رواة الشعر فى هذا العصر كثرة هائلة فكان من بينهم خلف وحماد والشعبى وأبو عمرو بن العلاء ويونس • وكان كثير منهم يدربون تلاميذهم على نظم الشعر وتهذيبه وانشاده •

وقد أدى تعدد الأحزاب — سواء السياسية أو الدينية — الى وجود الصراعات المختلفة بين قياداتها ، لما كان الشعراء بمثابة وسائل الاعلام وهم اللسان الناطق ، والقلب الخافق لهذه الأحزاب • فقد اتخذ منهم رجال الدولة شعراء ينسبون اليهم وينطقون باسمهم ويتحدثون بلسانهم ويشيدون بمواقفهم فى كل مكان وفى كل مناسبة ، فكان الأخطل شاعر عبد الملك بن مروان السياسى وكان من قبل يمدح معاوية ويهجو المعادين له ، وقد هجا الأنصار فى مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم بأمر يزيد ابن معاوية فقال :

ذهبت قريش بالمكارم والعلا   واللؤم تحت عمائم الأنصار

وقد رفع قريشا فى الشطر الأول من البيت ، لا لأن المهاجرين منها ، ولكن لأن البيت السفيانى منها وكذا البيت المروانى •

وكان عدى بن الرقاع شاعر الوليد بن عبد الملك ، وكذلك أعشى

بنى تغلب كان شاعره وكان من شعراء الحجاج : جرير والفرزدق ، ومن شعراء المهلب : كعب الأشقرى ، وحبيب بن عوف والطفيل ابن عامر ، ومن شــعراء زياد بن ســفيان : حارثة بن بدر ، ومن شــعراء بشر بن مروان جرير والفرزدق وكثير وأعشى شيبان • ومن شعراء عبدالعزيز مروان : جميل ونصيب وكثير وابن الرقيات وأيمن بن خريم •

هذا وقد جعل يزيد بن معاوية كعب بن جعل شاعر الشام والنجاشى شاعر العراق وكان مسكين الدارمى من المؤيدين لبيعة يزيد ، وكان من شعراء المدينة الأحوص ، ومن شعراء الأنصار عبد الرحمن بن حسان بن ثابت ، ومن شعراء مكة أبو العبــاس الأعمى ومن شــعراء الكوفة عبد الله الأسدى ، والكميت ، ومن شعراء البصرة جرير والفرزدق ، ومن شعراء الجزيرة : الأخطل والقطامى وأعشى تغلب • ومن شــعراء الشام : عدى بن الرقاع والأخطل •

وقد ترتب على ذلك كله انشــغال النــاس فى مجموعهم بالحركة الأدبية ، وانعقدت المجالس التى يفاضل فيها روادها بين هذا الشـــاعر وذاك ويتعصبون لشاعر ضد شاعر آخر • فازدهر النقد الأدبى وظهرت الكتب والمختارات الشعرية والمفاضلات النقدية والكثيرة فى هذا العصر كروافد من روافد الثقافة المزدهرة •

وكانت نتيجة ذلك كله سيرورة الشعر وانتشار أمره فى كل أنحاء الدولة الاسلامية لدرجة أن تفوق فى ذيوعه على كل فن وعلم من الفنون والعلوم المعروفة آنذاك واحتل مــكان الصحافة بل وســائل الاعلام جميعها فى اذاعة المحامد ونشر الفضائل وذكر مفاخر العرب أو مثالبهم ووسيلة تشجيع فى الحروب وغيرها • وانطوت أغراضه على كل متطلبات الحياة وقيل فى كل معنى وفكرة وقد نشأت حوله مجموعة من العلوم

كرواية الشعر ونقده وتحليل نصوصه وجمع مختارات منه انتخبها أصحابها من روائع الشعر العربي في الجاهلية والاسلام ؛ ومن ذلك المفضليات والأصمعيات وجمهرة أشعار العرب وحماسة أبي تمام وغيرها من المختارات الكثيرة التي عني أصحابها بقراءة الشعر القديم واختيار أفضله من وجهة نظرهم كما قاد لهم ذوقهم الخاص في تمييز الجيد من الرديء من الشعر • وهذا ما جعل للشعر قيمة وللشعراء منزلة عظيمة في عصر بني أمية •

الفصل الثالث

الأغراض الشعرية فى ضـوء الصراعات السياسية

لم تكن أغراض الشعر فى العصر الأموى لتتغير عن أغراض الشعر فى العصرين الجاهلى وصدر الاسلام ، ولكن شعراء العصر الأموى قد طرقوا جميع هذه الأغراض القديمة التى تناولها الشـعراء من قبـل كالمدح والرثاء والوصف والهجاء والفخر والغزل وغيرها من الأغراض العامة التى تحتوى على مضمون العصر الذى قيلت فيه وأفكاره واتجاهاته ولاشك أن هذه الأغراض بالرغم من عموم مسمياتها الا أن ما تنطوى عليه من أفكار ومعان ومن موضعات وأساليب وطريقة فى الأداء يختلف كثيرا عما تنطوى عليه هذه الأغراض من كل هذه الأمور فى العصرين السابقين نتيجة لمـا جد على الناس فى هذا العصر من أمـر الخلافة وكثرة الأحزاب السياسية والفرق المذهبية ، وأيضـا كثرة الفتوحات الاسلامية ، واتساع دائرة الثقافة ، واختلاط العرب بالعجم .. وغير ذلك مما جد على العصر من أمور كثيرة كان لها دورها الهام فى تشكيل نبض الشعراء واتجاههم فى الفكرة والموضوع اتجاهات جديدة . ولذلك وجدت فى هذا العصر الى جانب الأغراض العـامة التقليدية أغراض جديدة لم يكن لشعراء الجاهلية وصدر الاسلام سـابق عهد بهـا ، كالشعر السياسى ، وشعر الشعوبية ، والغزل القصصى الذى شاع بين كثير من شعراء الحجاز وبخاصة عمر بن أبى ربيعة والحارث المخزومى وغيرهما من شعراء الحب والغرام يقصون فيه مغامراتهم مع النساء . وارتقت أغراض كان لها وجود فاتر فى العصرين السـابقين ، كالغزل العذرى والنقائض والأراجيز والزهد .

وهذه الأغراض الأخيرة والتى عـدها كثير من الدارسين والمؤلفين أغراضا جديدة فى هذا العصر ، لكنها مسبوقة فى الواقع بمثيلاتها فيما سبق ولكنها لم تكن من الوضوح والظهور فى درجتها فى العصر الأموى ، اذ أنها ارتقت فى هذا العصر ارتقاء كبيرا وظهرت ظهورا عظيما وانشغل الناس بها حتى كانت لها الصدارة فى بيئاتها التى وجدت فيها فعـدت جديدة كل الجـدة •

فالغزل العذرى مثـلا مسبوق بغزل المتيمين فى العصر الجـاهلى كغزل عنترة والمرقشى الأكبر والمرقشى الأصـغر وغيرهم من المحبين الذين هاموا حبا وغراما فى معشوقاتهم وبعضهم وفق فى زواجه وبعضهم لم يوفق ، وخيـوط قصصهم تشـبه الى حـد كبير قصص المحبـين العـذريين (١) •

وأما النقائض : فهى من شعر الهجاء • والهجاء غرض شعرى قديم وأحيانا كانت توجد هـذه النقائض بين شـعراء القبائل فى الجاهلية يهجو الشاعر قبيلة فيأتى شاعر القبيلة المهجوة وينظم قصيدة من نفس الوزن والقافية ، يبطل فيها كل معانى الشاعر الأول وأفـكاره ، ويزيد على هذا الابطال فخرا بقبيلته وهجاء مقذعا للقبيلة المعـادية • وقـد كثرت هذه النقائض فى عصر صـدر الاسلام كثرة هائلة ، وبخاصة فى أثناء الحروب والغزوات ، وفى كتاب السيرة النبوية لابن هشام حشد هائل من القصـائد الشـعرية التى تراشق بهـا الطرفان من المسلمين والمشركين فى أثناء الغزوات الاسلامية •

ولكن هذه النقائض قد اتسعت دائرتها وارتقت ارتقاء كبير وشجع الحكام على تواجدها وانشغال الناس بها صرفا لهم عن السياسة والحكم،

---

(١) راجع كتاب : الحب المثالى عند العرب ـ د/ يوسف خليف •

وأضحى النـــاس يرتادون ســـوقى الكناسة والمربد فى العراق للســـماع والاستمتاع والمفاضلة بين هذا وذاك ، فعد هذا الغرض أيضا جديدا(٢).

وأما الأراجيز : فعدت جــديدة مع أنهــا موجودة فى العصرين السابقين وقد كثرت على لسان الفاتحين للبلدان الاسلامية منذ عهدى عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان رضى الله تعالى عنهما (٣) وقيــل : ان الشعر الجاهلى كان فى بدايته رجزا ثم تطور الى القصيد(٤) ومعنى ذلك أن الأراجيز كانت موجودة قبل العصر الأموى ، ولكنها كانت قليلة والقصائد الشعرية دائما هى الغالبة والأكثر اهتماما بها . فلمــا كان العصر الأموى أخذت حظها من التفوق والظهور فوضعت هى الأخــرى بين الأغراض الجــديدة .

وأما شعر الزهد : فقد كان كثيرا لا فى شــعر صدر الاســلام فحسب بل أيضا فى شعر بعض شعراء الجاهلية وبخاصة من كان منهم متحنفا ، الا أنه لم يكن غرضا منفردا شأنه شأن بقية الأغراض الشعرية ولكنه كان مبثوثا بين الأفكار والمعانى فى داخل الغرض الواحد ويأتى فى صورة حكم ومواعظ وارشادات تنبض بها الفطرة وتسقيها تجارب الحياة ولكن هذا النوع من الشعر كثر بعد ظهور الاسلام ونزول القرآن الكريم ووقوف المسلمين على ما فيه من مبادىء وتعــاليم تنبئهم بأن الدنيا بما فيها وما عليها من جميع الكائنات فانية ، وأن البقاء لله وحده ، فزهدوا فيها ، وتطلعوا الى آخرتهم الباقية التى يكون فيها الجزاء من جنس العمل الا من سبقت عليه رحمة الله عز وجل . ونظــم الشعراء

---

(٢) راجع : تاريخ النقائض للدكتور / احمد الشايب .

(٣) راجع : شعر الفتوحات الاسلامية للدكتور / النعمان القاضى .

(٤) راجع : مجلة الشعر ، العدد الخامس ، مقال للدكتور / يوسف خليف بعنوان « قصة الشعر العربى » ص ٢٦ .

بعضه جاء فى صورة مقطوعات ، وبعضه كان مبثوثا بين ثنايا الأغـــراض والموضوعات الشعرية مثلما كان عليه الحال فى الجاهلية الا أن الفرق بين هذا وذاك : أن نظم الجاهليين كان أكثره بعـــد تأمل وطول نظر ، ومن خلال استقراء الشاعر وتجارب حياته ، أما فى الاسلام فيضـــاف الى هذا كله ما يستقيه الشاعر من تعـــاليم القرآن الكريم والســـنة النبوية الشريفة ، ولهذا كانت تعبيرات الشعراء المسلمين تحت هـــذا الغرض أكثر دلالة وأقوى فكرة ومعنى وبخاصة اذا كان فيها اقتباسات من القرآن والسنة ، فهى أدلة قاطعة على صدق الشاعر فيما يقول .

ولمـــا اتسع هذا الغرض وكثر النظم فيـــه وأفردت له قصـــائد ومقطوعات واتجه اليه كثير من الشـــعراء الذين آثروا الابتعـــاد عن الاحزاب المتنازعة ، قيل : انه غرض جديد .

صحيح أن هذه الأغراض : الغزل العذرى والنقائض والأراجيز والزهد . كانت لها مقدمات لا تنكر فى الشعر الجاهلى وشعر صـــدر الاسلام كما وضـــحنا ذلك . الا أن محتـــواها ومضمونها فى العصر الأموى كان جديدا فى أسلوبه وفكرته ومعناه وطريقة عرضه وموضوعاته . ولذلك عدت جديدة ، وهى بالفعل جديدة فى كل هذه الأمور عن سابقتها .

وسنتكلم عن الأغراض الجديدة ، والتى هى بمثابة الجديدة أولا :

١ ــ الشعر السياسى

هذا الغرض من الشعر كان جديدا فى معنـــاه وفكرته فى العصر الأموى ، والشعر الذى نظمه الشعراء تحته يدور حول نظرية الخلافة والحكم وشئون الدولة وأعمال الولاة والقواد ومن بيـــدهم مقـــاليد الأمور فى البـــلاد .

وقد عرفنا سابقا أن الدولة الأموية قد كُوّنت بعد صراع شديد

مع جبهات كثيرة ومتعددة ، مازالت تناطحها وتنال منها حتى انهار آخر صرح لها فى سنة ١٣٢ هـ • وكان تعدد هـذه الجبهات نتيجـة لتصرف الأمويين بعد مقتل عثمان بن عفان رضى الله عنه • فلم يتركوا أمر الخلافة يسير سيرا طبيعيا وفقا لتعاليم الاسلام « وشاورهم فى الأمر » ولكنهم اتخذوا من المطالبة بدم عثمان باعتباره أمويا وباعتبار معظمهم كان واليا أو عاملا على البلاد من قبله رضى الله تعالى عنه ، تكئة العرش يصلون عن طريق هذه المطالبة الى ما يريدون ، وبالتالى تصدى لهم الامام على ابن أبى طالب كرم الله وجهه ، وتحزب الناس عليهم ، وكان لكل حزب شعراء يثبتون الحق فى الخلافة لحزبهم ويدافعون عن نظـام الحكم وشئونه وما هو من ارادتهم فيه وفى نفس الوقت يبطلون دعوى غيرهم ويقفون فى وجوههم ويتصدون لهم • وكانت الأحـزاب السياسية فى هذا العصر هى الأمويون ، والشيعة ، والخوارج ، والزبيريون •

الأمـويون :

وهم الحزب الحاكم وكان معظم الشعراء حولهم ، خوفا ورهبـة منهم ، أو طمعـا فى نوالهم ، اذ كانوا يشجعون الشـعراء ويعطونهم العطاء الجزيل والمـال الوفير والخير الكثير • وكان من هؤلاء الشعراء : جرير والفرزدق والأخطل ، وعبـد الله بن قيس الرقيـات فى أخريات حياته ، وعدى بن الرقاع ، وعبد الله بن همام السلولى وغيرهم كثيرون•

ولقد تفاوت هؤلاء الشعراء فى مدى اخلاصهم للأسرة الحاكمة ، اذ كان منهم من كان هواه مع الزبيريين كالفرزدق ، ومنهم من يميل بقلبه وأحيانا بشعره كابن الرقيات الا أن الأمويين مع عامهم بذلك اشـتروا قلوب الناس ومنهم الشـعراء بأموالهم ، وغمروهم بحلمهم وسياستهم العميقة ولذلك وقفوا الى جوارهم ومدحوهم فى شعرهم واعتبروا أن الخلافة حق معلوم لهم ، فعثمان منهم ، وهم ولاته وعماله ، وأحق

الناس بالخلافة ، وهم بذلك يقرون لأنفسهم حق الوراثة فيها ، فى الوقت الذى لا يقرون لعلى وأبنائه بها ، مع أن الخلافة لو كانت بالوراثة لكان على أحق منهم ، اذ هم آل النبى صلى الله عليه وسلم وأقرب الناس اليه ، ولكن الاسلام جعلها شورى بين المسلمين يختارون أصلحهم . ولكن الأمويين لا يعترفون بذلك ويؤكدون أحقيتهم لها .

يقول الفرزدق فى ذلك :

صلى صهيب ثلاثا ثم أنزلنــا	على ابن عفــان ملكا غير مقصــور
وصية من أبى حفصة لستتهم	كانوا أحبآى مهــدى ومأمــرو
مهاجرين رأوا عثمــان أقربهم	اذا بايعوه اهــا ، والبيت والطــور
فلن تزال لــكم والله أثبتهــا	فيكم الى نفخة الرحمن فى الصــور

يشير الشاعر فى هذه الأبيات الى أن صهيبا صلى بالناس ثلاثة أيام بعد مقتل عمر بن الخطاب رضى الله تبارك وتعــالى عنــه ، حتى تمت الشورى وانعقد رأى الستة المهاجرين الذين اختارهم عمر وكلفهم بأن يختاروا من بينهم الخليفة ، فوقع اختيارهم على عثمان بن عفان رضى الله تعالى عنه ، ولمــا كان بنو أمية هم ولاة عثمان وذوو قرابته ، فهم أحق الناس بالخلافة من بعده ، ولن تزال لهم حتى تقوم الساعة .

ولكن شاعر الشعة الكميت بن زيد يرد على هــذه الدعوى غير المستساغة فى قصيدة طويلة يستهلها بمقدمة رائعة يطرب فيها لا الى النساء على عادة الشعراء فى استهلالهم قصائدهم بالغزل والحديث الى الأطلال ولكن الى رهط النبى صلى الله عليه وسلم ، وهم النفر البيض الذين تقرب بحبهم الى الله تعالى . يقول الشاعر فى ذلك :

طربت وما شوقا الى البيض أطرب	ولا لعبا منى وذو الشيب يلعب
ولم تلهنى دار ولا رسم منزل	ولم يتطربنى بنــان مخضب
ولا أنا ممن يزجر الطير همــه	أصــاح غراب أم تعرض ثعلب
ولا السانحات البارحات عشــية	أمر سليم القرن أم مــر أعضب

ولكن الى أهل الفضـائل والنهى وخير بنى حـواء والخـير يطلب
الى النفـر البيض الذين بحبهم الى الله فيمـا نالنى أتقرب
بنى هاشـم رهط النبى فاننى بهم ولهم أرضى مـرارا وأغضب
خفضت لهم منى جناحى مـودة الى كنف عطفـاه أهـل ومرحب
فقل للذى فى ظل عميـاء جـونة

يرى الجور عدلا أين لا أين تذهب؟(٥)
بأى كتـاب أم بأية سـنة ترى حبهم عارا على وتحسب (٦)

ويرد الكميت على شاعر الأمويين الذى يرى بأنهم ورثوا الخلافة عن عثمان وأنهم أصحاب حق واجب فيها ، ثم يعجب من الأمويين الذين يقولون ان النبى لا يورث ، ثم يعودون ويقررون حقهم فيها ، بأن النبى قرشى وهم قرشيون ولابد للخلافة أن تكون محصـورة فى قريش وفى بنى أمية خاصـة •

مع أن الخلافة حق للجميع ولو كانت تورث لكان على أحق بهـا وأوجب من غيرهم •

يقول الكميت :

وقالوا ورثنـاها آبانا وأمنـا وما ورثتهـم ذاك أم ولا أب
يقـولن لم يورث ولولا تراثه لقـد أشركت فيه بكيل وأرحب (٧)
وجـدنا لكم فى آل حاميم آية تأولهـا منـا تقى ومعـرب (٨)

(٥،٦) بعد أن تحدث الشاعر عن ولائه ومودته لبنى هاشم الذين وجد فيهم أهلاله مرحبين به ، خاطب الخليفة الاموى بالبيتين الاخيرين من هذا المقطع من القصيدة ، واصفا اياه بأنه فى ظل عمياء جونة أى فى ضلالة سوداء ، وأنه حاكم جائر ، ودعا عليه بألا يعرف قصده •

(٧) كيل وأرحب : حيا من همدان وهى من القبائل اليمنية •

(٨) المعرب : المفحش • والآية هى قوله تعالى فى سورة الشورى : « قل لا أسألكم عليه أجرا الا المودة فى القربى » •

وهكذا رد الكميت شاعر الشيعة على شاعر الأمويين قوله ورأيه وأثبت الحق لأصحابه علي وأبنائه ، مذكرا اياه بآيات القرآن الكريم التي توصي بمودتهم ومودة آل بيت النبي جميعا ٠

وكان في هذه القصيدة مجـادلا قويا حتى قال الجاحظ : ما فتح للشيعة باب الحجاج بالشعر الا الكميت بقوله :

فان هي لم تصلح لحي سواهم ... فان ذوي القربى أحـق وأقـرب
يقولون :لم تورث،ولولا تراثه ... اذا أشركت فيـه بكيل وأرحب (٩)

ولـما كانت الخلافة هي أساس الجـدال والحجاج السياسي بين الأحزاب المتناطحة عليها فقد أكثر شعراء هذه الأحزاب من الحـديث حولها مؤيدين لأحزابهم ومعارضين لغيرهم ، وكل يرى أحقية حـزبه فيها دون سواه من الأحزاب ، ومن ذلك ما قاله الأحوص في حديثه عن الوليد بن عبد الملك مبينـا أن الله هو الذي اختـاره للحكم دون تكالب منه عليه ، وأن الله قد أعز به المسلمين لعلمه بأنه أحق الناس بالخلافة ، ولذلك فان هذا الخليفة لم يدع أحدا من الناس الى بيعته الا وقد أجاب وانقاد ولاء للخليفة ٠ يقول الأحوص :

أمام أتاه الملك عفـوا ولم يثب ... على ملكـه مالا حـراما ولا دما
تخـيره رب العبـاد لخلقه ... وليـا وكان الله بالنـاس أعلمـا
فلما غضاه الله لم يدع مسـلما ... لبيعتـه الا أجـاب وسـلما (١٠)

وفي عهد معاوية تقرب الشعراء اليه من جانب والى ولي العهد يزيد من جانب آخر بالدعوة الى بيعة يزيد من بعد أبيه بالخلافة ٠ وفي هذا

---

(٩) راجع : أدب الشيعة ص ٢٤٩ ، د/ عبد الحسيب طه حميدة ، الطبعة الأولى ٠

(١٠) الأغـاني ١/٢٨١ ٠

المعنى يقول مسكين الدارمى حين أمره يزيد أن يقول أبياتا ترشحه للخلافة فى مجلس ضم أباه معاوية وكبار رجال الدولة :

ألا ليت شعرى ما يقول ابن عامر ... ومروان أم ماذا يقول سعيد ؟
بنى خلفاء الله مهلا فانما ... يبوئها الرحمن حيث يريد
اذا المنبر الغربى خلاه ربه ... فان أمير المؤمنين يزيد (١١)

ولما كانت المعركة بين يزيد والحسين بن على قائمة فى كربلاء شارك فيها بعض الشعراء بسيفه وشعره فى صفوف الأمويين • ومن هؤلاء كعب بن جابر الذى قال مخاطبا امرأته التى لامته على هذه المشاركة :

سلى تخبرى عنى ، وأنت ذميمة ... غداة حسين والرماح شوارع
ألم آت أقصى ما كرهت،ولم يخل ... على غداة الروع ما أنا صانع
معى يزنى لم يخته كعوبه ... وأبيض مخشوب الغرارين قاطع
فجرته فى عصبة ليس دينهم ... بدينى وانى بابن حرب لقانع
ولم ترعينى مثلهم فى زمانهم ... ولا قبلهم فى الناس اذ أنا يافع (١٢)

وحين يمدح جرير الخليفة عبد الملك بن مروان يصفه بالتدين ، وانه يقيم شريعة الله بين الناس ويحكم بينهم بالعدل ، ولذلك هدى الله شيعته فاجتمعوا حوله حين تفرقت الأهواء وخالف رجال الأحزاب أمر أمرائهم • ثم ثنى على آل مروان بأن الله فضلهم على من سواهم من الناس ، وأنهم معتدلون فى تدينهم ، وأن غيرهم يتبع البدع والأهواء فى تدينه • وهو بذلك يعرض بالأحزاب المناوئة له فى الحكم • يقول جرير :

---

(١١) المصدر نفسه ٢١٢/٢٠ •

(١٢) حياة الشعر فى الكوفة ، ص ٣٧٤ ، عن الطبرى •

لولا الخليفة (١٣) والقــرآن يقرؤه
ما قام للنــاس أحكام ولا جمــع
أنت المبــارك يهــدى الله شيعته
اذا تفــرقت الأهــواء والشــيع
يا آل مــروان ان الله فضــلكم
فضلا عظيما على من دينه البدع (١٤)

الشــيعة :

وهم الحزب الثانى الذى وقف رجاله فى وجه الأمويين صـامدين لا يدفعهم الى ذلك الا انصافهم لعلى وأبنائه ولآل بيت النبى صلى الله عليه وسلم مودة لهم وتقربا منهم لا يبتغون بذلك الا مرضاة الله عـز وجــل .

وكان من بين هؤلاء المتشيعين لآل البيت مجموعة من الشــعراء دافعوا عنهم بلسانهم كما دافعوا بسيوفهم ، وكانوا جبهة قوية ضــد الأمويين . وعلى رأس هؤلاء جميعا : الكميت بن زيد الأسدي صاحب الموقف الصلب فى وجــه الأمويين ، ولم يمــدح الأمويين الا خوفا من سيوفهم التي ترصدته . وكان هــذا الشاعر ينتمى الى الفرقة الزيدية التى لا ترتضى شتم أبى بكر أو عمر ولا تكفرهما وتجوز امامة المفضول مع وجود الأفضل وهى فرقة معتدلة عن غيرها من بقية الفرق الشيعية . يقول الكميت (١٥) :

---

(١٣) يقصد بالخليفة هنا : عبد الملك بن مروان .

(١٤) ديوان جرير /١٦٥ .

(١٥) التطور والتجديد فى الشعر الاموى / ٢٨٣ د/ شوقى ضيف .

أهوى عليا أمــير المؤمنــين ولا أرتضى شتم أبى بكر ولا عمــرا
ولا أقول وان لم يعطيا «فدكا»(١٦) بنت الرســول ولا ميراثه كفرا
الله يعــلم مــاذا يأتيــان به يوم القيامة من عذر اذا أعتذرا

واذا كان الكميت وغيره من شعراء الشيعة يرددون فى شعرهم أن الامامة محصورة فى أبناء على من فاطمة ، فان شــعراء الامامية وهى احدى فرق الشيعة يرددون القول بامامة محمد بن الحنفية على عكس غيرهم من شعراء هذا الحزب ، وفى ذلك يقول كثير عزة :

ألا ان الأئمـــة مــن قــريش ولاة الحــق أربعـــة ســـواء
على والثــلاثة (١٧) من بنيــه هم الأســباط ليس بهم خفـــاء
فســبط سبط ايمــان وبــر وســـبط غيبتــه كــربلاء
وســبط لا يذوق الموت حتى يقود الخيــل يقدمها اللــواء
تغيب لا يرى فيهــم زمـــانا برضــوى عنده عســل ومــاء

واذا كان الكميت يتبع طريق الحجاج والجدل ومحاولة الاقناع عن طريق العقل كما وضح لنا فى بائيته المشهورة سابقا فان كثيرا من شعراء الشيعة غيره قد اتبعوا طريق العاطفة والتأثير فى جذب عواطف الناس واستمالتهم الى جانب آل البيت وبخاصة من تشــيعوا لهم وهم على

---

(١٦) فدك : قرية بخيبر صالح الرسول صلى الله عليه وسلم أهلها على نصف أرضــهم من غير حرب فاعتبرت خالصــة له ، وكان ينفق منها على أبناء السبيل فلما توفى صلى الله عليه وسلم طالبت فاطمة بها فأبى أبو بكر وعمر لقول الرسول عليه الصــلاة والســلام : « نحن معشر الانبياء لا نورث ما تركناه صدقة » .

(١٧) يقصد بالثلاثة : الحســن والحســين ومحمـــد بن الحنفيــة وثلاثتهم أبناء على رضى الله عنهم أجمعين .

وأبناؤه . ومن ذلك ما قاله سليمان بن قتة فى رثاء الحسين بن على يوم كربلاء :

مررت على أبيات آل محمد ... فلم أرها كعهدها يوم حلت
فلا يبعد الله الديار وأهلها ... وان أصبحت من أهلها قد تخلت
وان قتيل الطف من آل هاشم ... أذل رقاب المسلمين فذلت
وكانوا رجاء ثم صاروا رزية ... فقد عظمت تلك الرزايا وجلت (١٨)

ولكن هذا لا يعنى أن يكون الكميت فى كل شعره الشيعى محاورا ومناقشا للأمويين وأتباعهم وصولا عن الجدال إلى من هم أحق بالخلافة من غيرهم ، أبناء أبى سفيان وأبناء مروان ؟

ولكنه أيضا كان يتبع أسلوب التصوير المثير للعواطف كغيره ، وأحيانا كان يهجم على الأمويين هجوما سافرا داعيا عليهم دون مواربة أو استخدام لفن التورية من مثل قوله :

فقل لبنى أمية حيث حلوا ... وان خفت المهند والقطيعا
أجاع الله من أشبعتموه ... وأشبع من بجوركم أجيعا
بمرضى السياسة هاشمى ... يكون حيا لأمته ربيعا

وهكذا اتبع شعراء الشيعة جميع الأساليب فى دفاعهم عن معتقدهم بأن عليا وأبناءه هم أصحاب الحق الشرعى فى الخلافة وأن الأمويين قد تجنوا عليهم وسلبوهم هذا الحق . وهذا هو الأصل الذى اجتمع عليه جميع شعراء الشيعة ، وان اختلفوا فيما بينهم فى فروع عقيدتهم الشيعية . من حيث المعانى الثلاثة التى قال بها ابن سبأ وهى : الوصية والرجعة والتألية ، بعضهم وافقه ، وبعضهم أعرض

---

(١٨) الكامل للمبرد ٢/١٣١ .

عنه وهاجمه • وكذلك اختلفوا فى الورثة الشرعيين للحكم من بعد على• هل هما الحسن والحسين فقط ، أم يضاف اليهما محمد بن الحنفية ؟ •• الى غير ذلك من المسائل الفرعية التى أهمتهم ورأى كل واحد منهم رأيه فيها • وبنى اعتقاده على اقتناعه برأيه وترجم ذلك شعرا • وقد أتينا ببعض الأمثلة التى توضح ذلك ، بما قاله الكميت الذى لا يرتضى شتم أبى بكر ولا عمر ، كما يفعل غيره من مغالاة الشيعة مع اعتقاده بجواز امامة المفضول مع وجود الأفضل •

وبما قاله كثير عزة معبرا عن عقيـــدته بأن محمد بن الحنفية هو شريك أخويه الحسن والحسين فى المسئولية من بعد أبيهم على بن أبى طالب رضى الله عنهم •

الى غير ذلك من المسائل الفرعية التى اختلفوا فيها ، والتى كانت سببا فى تفتيت الحزب الشيعى الى مجموعة من الفرق ، لكل فرقة مذهب خاص ينطوى على مجموعة من الآراء والمعتقدات تختلف بها الفرقة عن غيرها من الفرق • ولكن هـــذه الفرق جميعها لا تختلف فى أن الحق فى جانبهم وليس لغيرهم من الأحزاب السياسية الأخرى •

الزبيريون :

هم أنصار عبد الله بن الزبير قائد هذا الحزب ورائده ، وقد التف حوله عدد كبير من الناس وبسط نفوذه على بلاد كثيرة منهـــا : مصر والجـــزيرة العربية والعراق وخراســـان •• وغيرها من بلاد الشرق الاسلامى • ودخل مع الشيعة والخوارج والأمويين فى صراعات استمرت طيلة حكمه الذى لم يدم أكثر من ثمان سنوات (٦٥ ـــ ٧٣ هـ) مع استمرار الحزب الأموى الحاكم فى بلاد الشام •

وكانت فكرته التى روجها وراقت عددا كبيرا من الناس : أن تكون

الخلافة فى قريش ، وفى أبناء الصحابة رضـوان الله عليهم ، وأن يكون مقر الخلافة فى مكة أو المدينة ، وليس فى الشام أو العراق ، امتـدادا لعهد النبى صلى الله عليه وسلم . ولقد احتفى بهذه الفكرة وتبناها الشاعر القرشى عبيد الله بن قيس الرقيات الذى كان أشهر شعراء هـذا الحزب ، أو الشاعر الوحيد لهذا الحزب (١٩) ، ودعا لرواج هـذه الفكرة وتعصب لها تعصبا شديدا . وهذا كله واضح فى القصيدة التى مدح بها مصعب بن الزبير أخا عبد الله ودعا فيهـا الى اتحـاد القلوب واجتماعها حول مجد قريش حتى لا تضيع قريش وتفنى بتفرق الأهواء عنها ، فيقول (٢٠) :

حبـذا العيش حين قومى جميع ... لم تفرق أمـورها الأهـواء
قبل أن تطمع القبـائل فى ملـ ... ـك قريش وتشمت الأعـداء
أيها المشتهى فنـاء قريش ... بيـد الله عمـرها والفنـاء
ان تودع من البـلاد قريش ... لا يكن بعـدهم لحى بقـاء
هـل ترى من مخلد غير أن الـ ... ـله يبقى وتذهب الأشـياء
يأمل الناس فى غـير رغد الدهـ ... ـر ، ألا فى غـد يكون القضـاء
عين فابكى على قريش وهـل ير ... جع ما فات ـ ان بكيت ـ البكاء ؟
لو بكت هـذه السماء على قـو ... م كرام بكت علينـا السـماء
انما مصـعب شـهاب من اللـ ... ـه تجلت عن وجهـه الظلمـاء
ملكه ملك قـوة ليس فيـه ... جبـروت ولا بـه كبريـاء
يتقى الله فى الأمـور وقد أفـ ... ـلح من كان همـه الاتقـاء

ثم يكشف عن لثام العداوة للأمويين داعيا عليهم بكل شر فيقول :

---

(١٩) راجع : الادب العربى فى ظل بنى امية ص ٤٧ د/ جودة عبد الله مصطفى .

(٢٠) ديوان ابن الرقيات ص ١٧٠ .

كيف نومى على الفراش ولما ... تشمل الشام غارة شعواء
تذهل الشيخ عن بنيه وتبدى ... عن براها العقيلة العذراء
أنا عنكم بنى أمية مزور ... وأنتم فى نفسى الأعداء
ان قتلى بالطف قد أوجعتنى ... كان منكم لئن قتلتم شفاء (٢١)
فرضينا فمت بدائك غما ... لا تميتن غيرك الأدماء (٢٢)

وكما مدح مصعبا مدح أخاه عبد الله صاحب هذا الحزب والدعوة اليه فقال :

وابن أسماء خير من مسح الركـ ... ـن فعالا وخيرهم بنيانا
واذا قيل من هجان قريش ... كنت أنت الفتى وكنت الهجانا

ونلاحظ فى هذين البيتين أن الشاعر قد نسب ابن الزبير الى أمه أسماء بدلا من نسبته الى أبيه ، ولعله بذلك قد اتبع أسلوب التأثير فى قلوب الناس جذبا لعاطفتهم نحو ابن ذات النطاقين التى خلد التاريخ الاسلامى اسمها ، وهى ابنة أبى بكر الصديق رضى الله تبارك وتعالى عنه وعنها • وهى التى شجعت ابنها عبد الله على المضى قدما فى وجه الأمويين حتى لو قتلوه • وهى صاحبة القولة المشهورة لابنها عبد الله حيث خشى على نفسه من التمثيل بجسده بعد موته • فقالت له : « لا يضر الشاة سلخها بعد ذبحها » •

وقد أخلص ابن الرقيات لأبناء الزبير ووقف الى جانبهم عن عقيدة قوية الى أن انهزموا وانتهت دولتهم ، فذهب الى عبد الملك بن مروان .

(٢١، ٢٢) الطف موضع قرب الكوفة دارت فيه معركة بين مصعب ابن الزبير وجيش عبد الملك بن مروان ، وانتهت بقتل مصعب وكثير من رجاله • وكانت هذه القصيدة مديحا ورثاء فى ذات الوقت وفى البيت الاخير تعريض بعبد الملك ودعاء عليه وسخرية منه •

واستشفع لديه وطلب منه العفو والصفح فعفا عنه عبد الملك ، وصار من شعراء بنى أمية يمدحهم ويهنئهم ويبارك خطواتهم ويدافع عنهم ، ثم سافر الى مصر ومدح عبد العزيز بن مروان واكتسب عنده حظوة عظيمة ، وظل فى ولائه للأمويين حتى مات سنة ٧٥ هـ •

الخوارج :

عرفنا أن الخوارج سموا بهذا الاسم نسبة لخروجهم من صفوف على يوم أن ارتضى التحكيم فى قضيته مع معاوية ، وعلى الرغم من محاربة على لهم وجهاده معهم ، الا آن فلولهم قد تجمعت وشكلوا خطرا كبيرا على بقية الأحزاب وبخاصة حزب الأمويين • وبالرغم من أن الأمويين قد بذلوا جهدا مضنيا فى سبيل الخلاص منهم ، الا أنهم ظلوا سادرين لهم مترصدين لا يخشون بأسهم ولا يخافون فى جهادهم لومة لائم •

ولما كان معظم هؤلاء الخوارج من البدو فكان طبعهم حادا وكانوا أصحاب صلابة فى رأيهم ومبادئهم ، وقد كفروا معاوية لسلبه الحق من أصحابه ، واتهموا عليا فى دينه لارتضائه التحكيم ، ولكنهم مع هذا كله لم يطلبوا الخلافة لأنفسهم ، وان كان من مبادئهم أن الخلافة من حق كل مسلم شرط أن يكون تقيا ورعا وزاهدا فى الدنيا وأن من اختير خليفة لا يجوز له أن يرفض أو يتنازل ، مع مغالاتهم فى بعض آرائهم الا أنهم تمسكوا تمسكا شديدا بمبادئهم وعقيدتهم ، وكان شعرهم صورة حية صادقة لما فى نفوسهم ، ولم يكن لهم شعراء محترفون كباقى الأحزاب الأخرى يتحدثون باسمهم ويرفعون صوتهم عاليا بمحامدهم وكريم أوصافهم ، مقابل العطاء الجزيل ، ولكن الداعين منهم كانوا هم الشعراء وهم الخطباء وهم أصحاب المبادىء

والدعوة اليها • وقد وضح ذلك جيدا فى شعرهم ، فلم ينظموا فى كل أغراض الشعر — الا قليلا منهم — ولكن شعرهم كان يدور فى أكثره حول الزهد والتوبة والتقرب من الله تعالى ، وتقبيح أفعال الناس غير الخوارج • واذا نظم الواحد منهم فى الرثاء أو حرض على القتال ، ودعا الى الجهاد ، فانما ذلك من منطلق عقيدته • وكثيرا ما كان الواحد منهم يتمنى موتة كموتة المرثى ، واقداما كاقدامه وشجاعة كشجاعته ، ومن ذلك قول عمران بن حطان فى رثائه لأبى بلال بن مرادس ابن أدية :

لقد زاد الحياة الى بغضا   وحبا للخروج أبو بلال
أحاذر أن أموت على فراشى   وأرجو الموت تحت ذرا العوالى
ولو أنى علمت بأن حتفى   كحتف أبى بلال لم أبال
فمن يك همه الدنيا فانى   لها والله رب البيت قال

وقد سمى هؤلاء الخوارج أنفسهم « الشراة » ، أى الذين باعوا أنفسهم لله واشتروا الجنة بالدنيا ، وأوعزوا لأنفسهم بأنهم المعنيون بقول الله تعالى : « ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله والله رءوف بالعباد» ولذلك تحدث عنهم الطرماح بن حكيم — وهو واحد منهم — ووصفهم فى خوفهم من الله عز وجل وعبادتهم له وشجاعتهم وثقتهم بأنفسهم فقال :

لله در الشراة انهم   اذا الكرى مال بالطلى أرقوا
يرجعون الحنين آونة   وان علا ساعة بهم شهقوا
خوفا تبيت القلوب واجفة   تكاد منها الصدور تنفلق
كيف أرجى الحياة بعدهم   وقد مضى مؤنسى فانطلقوا
قوم شجاع على اعتقادهم   بالفوز مما يخاف قد وثقوا

هذه العقيدة الراسخة فى نفوسهم وهذا الاقبال الشديد على الموت جهادا فى سبيل الله وابتغاء مرضاته ، جعلهم يتمنون الشهادة ويحاربون مستميتين فى جبهات القتال ، ولذلك كانت أعدادهم على قلتها تنتصر • ففى احدى معاركهم مع الأمويين وكان عدد الخوارج أربعين رجــلا وعدد الأمويين ألفى رجل بقيادة أسلم بن زرعــة قائد ابن زياد والى يزيد على العراق ، انتصر الخوارج على الأمويين فقال عيسى بن فاتك أحد شــعراء الخوارج مســتلهما معنى الآية الكريمة : « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين » •

فلما أصبحوا صلوا وقاموا ... الى العتــــاق مســومينا
فلما استجمعوا حملوا عليهم ... فظل ذوو الجمائل يقتلونا

ثم قــال :

أألفــا مؤمــن فيما زعمتم ... ويهزمهم بآســك أربعــونا
كذبتم ليس ذاك كما زعمتم ... ولكن الخــوارج مؤمنونا

وكثيرا ما كان الواحد منهم يجاهد نفسه وعدوه فى وقت واحد ، حيث يقبل على عدوه مستجمعا قــواه مخاطبا نفســه بعدم الخــوف والضجر من صورة الأعداء مهما كانوا أبطالا مغاوير ، فان الموت حق، وخــير للنفس أن تستشهد فى سبيل الله ، اذ أن الخلود لله وحــده ، فلا داعى للخوف والفزع من صورة الأعداء •

يقول قطرى بن الفجاءة فى ذلك :

أقــول لها وقد طارت شــعاعا ... من الأبطال ويحك لن تــراعى
فانك لو ســـــألت بقــاء يوم ... على الأجل الذى لك لن تطاعى
فصــبرا فى مجال الموت صبرا ... فما نيل الخلود بمســـتطاع
ولا ثوب البقــــاء بثوب عز ... فيطوى عن أخى الخنع اليراع
ســــبيل الموت غــاية كل حى ... فداعيــه لأهــل الأرض داع

والرجل فى هذه الأبيات يستلهم المعانى الاسلامية والآيات القرآنية ، وهذا واضح فى معانيه وفكرته جيدا ، اذ أن معانيه هذه مستقاة من قول الله تعالى : « لكل أجل كتاب » وقول الله تعالى : « اذا جاء اجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون » وقوله تعالى : « كل من عليها فان » .

ونجده فى أبياته الآتية محاربا قويا ، وزاهدا فى الدنيا يبيع نفسه لله فيقول :

لعمرك انى فى الحياة لزاهد	وفى العيش ما لم ألق أم حكيم
ولو شهدتنى يوم دولاب أبصرت	طعان فتى فى الحرب غير ذميم
رأت فتية باعوا الاله نفوسهم	بجنات عدن عنده ونعيم

واذا كان المسلم فى حربه مع المشركين حين يموت على أرض المعركة يسمى شهيدا ، فان ابن الفجاءة يعتبر نفسه كذلك اذا مات فى حزبه مع الأحزاب المعادية لحزب الخوارج ، وكأن رجال الأحزاب الأخرى كفار تستباح دماؤهم ، وقد باع نفسه لله واشترى الشهادة فى حربهم ، كما هو واضح من أبياته هذه .

ولم يكن هذا مبدأ ابن الفجاءة وحده ، ولكنه كان مبدأ كثيرين من أصحاب هذا الحزب ، ومنهم عمران بن حطان الذى كان مغاليا فى تعصبه على الامام على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، وقد مدح ابن ملجم الذى قتله ، وهذه ليست أخلاقا اسلامية ، ولكن عصبية الخوارج زينت لهم صنع ما يقولون وما يفعلون ، يقول عمران :

لله در المرادى الذى سفكت	كفاه مهجة شر الخلق انسانا
أمسى عشية بضربته	مما جناه من الآثام عريانا
يا ضربة من كريم ما أراد بها	الا ليبلغ من ذى العرش رضوانا
انى لأفكر فيه ثم أحسبه	أو فى البرية عند الله ميزانا

ولكن يبدو أن العصبية الحادة هذه كانت ضد على وحده دون المتشيعين له . بدليل أنه فى شعر آخر له يتحدث عن الأخوة الاسلامية ، جاعلا الأفضلية لا للجنس ولا للون ولكن للتقوى والعمل الصالح مستلهما فى ذلك قول الله تعالى : « انما المؤمنون اخوة » وقوله تعالى : « ان أكرمكم عند الله أتقاكم » فيقول :

فنحن بنو الاسلام والله واحد   وأولى عباد الله بالله من شكر

وهكذا كان أثر الاسلام واضحا عميقا فى شعر الخوارج سواء فى معانيهم وأفكارهم أو فى ألفاظهم المعبرة التى كانت تنم فى كل مفرداتها عن الروح الاسلامية وتأثيرها فى نفوسهم . وعندما يخلو شعرهم من العصبية الحزبية والمغالاة فى المبادىء والعقيدة . يكون شعرا رائعا فى معناه ومبناه يشف عن ايمان عميق والخلاص فى الطاعة لله رب العالمين .

وبعد . فهذا اللون من الشعر كان جديدا فى العصر الأموى . أوجدته الأحزاب ولونت أغلب شعرها بلونه ، فاذا كان الشعر مديحا فانه مديح مشوب بالمقارنات بين أمير الحزب وغيره من أمراء الأحزاب الأخرى وتفضيل صاحب الحزب على غيره من أمراء وقواد الأحزاب الأخرى واذا كان هجاء فانه أيضا من تأثير السياسة وهو هجاء للأحزاب المعادية وأمرائها ، واذا كان بين الأفراد فبتشجيع السياسة ورجال الحكم عليه ، واذا كان جدلا عقائديا فانه يحمل طابع الحزب ويترجم مبادئه ويطعن فى عقيدة الأحزاب والفرق الأخرى . واذا كان غزلا فبتشجيع الحزب الحاكم على الغزل والغناء اشغالا لهم وصرفا عن السياسة وأمر الخلافة ، وهكذا فى معظم أغراضهم الشعرية واتجاهاتهم الفنية فان تأثير السياسة كان واضحا فيها ، بل كان اصدار الشعراء لمعانيهم وأفكارهم من منطلقها ،ولذلك اضطرب العصر واضطرم بألوان العصبيات السياسية والقبلية فكثر الشعر السياسى كثرة هائلة ولون

أكثر أغراض الشعر بلونه وحسبنا ما قدمنا من بعض النماذج الشعرية التى تعبر عن مبادىء الحزب وأهدافه • وتترجم معانيه وأفكاره •

٢ — الشعر الشعوبى :

على الرغم من معرفة المسلمين العرب جيدا بأن الاسلام دين عام للناس جميعا فى كل زمان ومكان ، يدعو الى الأخوة الاسلامية واذابة الفوارق الطبقية ، وأنه لا فضل لعربى على عجمى ولا لأبيض على أسود الا بالتقوى والعمل الصالح • الا أن نخوة العرب القبلية فى العصر الأموى يبدو أنها أنستهم جميع هذه المعانى فظهروا بين الأعاجم الذين دخلوا فى دين الله أفواجا بمظهر الطبقة الرفيعة المتعالية، ونظروا للأعاجم نظرة احتقار وازدراء ، وأنهم طبقة أقل فى درجتها من العرب ، ولذلك ولوهم المناصب والوظائف القليلة التى تتناسب مع درجتهم ومكانتهم ، وجعلوا الكثير منهم خدما فى المنازل والدواوين، وقسوا عليهم فى المعاملة ، وحين تسنح الفرصة للافتخار يفتخر العربى بحسبه ونسبه ويفضل العرب على غيرهم من الشعوب التى هى أقل شأنا فى نظره من العرب • لدرجة أن العربى يأنف من مصاهرة العجم والدخول معهم فى معاملات النسب • فيذكر صاحب الأغانى : أن رجلا من الموالى تزوج فتاة من بنى سليم ، فشكا محمد بن بشير الخارجى الى الوالى ابراهيم بن هشام بن اسماعيل الذى كان واليا على المدينة ففرق الوالى بين المولى وزوجته ، وضربه مائتى سوط ، وحلق رأسه وحاجبيه • فقال محمد بن بشير :

شهدت غداة خصم بنى سليم	وجوها من فضائل غير سود
قضيت بسنة وحكمت عدلا	ولم ترث الحكومة من بعيد
حمى حدبا لحوم بنات قوم	وهم تحت التراب أبو الوليد

وفى المائتين للمولى نكال ... وفى سلب الحواجب والخدود
اذا كافأتهم ببنات كسرى ... فهل يجد الموالى من مزيد ؟
فأى الحق أنصف للموالى ... من اصهار العبيد الى العبيد(٢٣)

وهكذا رأى الشاعر أن القاضى كان عادلا فى حكمه حين فرق بين المرء وزوجه وأهانه اهانة شديدة بضربه وحلق رأسه وحاجبيه ؟ وأن الأنصف للموالى أن يصهر العبيد للعبيد • وهذا لم يقل به الشرع الحكيم ولكن قال به ابن بشير •

وهذا جرير ينزل بقوم من بنى العنبر فيأبون ضيافته ، فاشترى القرى منهم ، ثم قال :

يا مالك بن طريف ان بيعكم ... رفد القرى مفسد للدين والحسب
قالوا نبيعكه بيعا ، فقلت لهم ... بيعوا الموالى واستحيوا من العرب
فأنف الموالى من هذا البيت الأخير (٢٤) •

كل هذا وغيره ترك فى نفوس الأعاجم حقدا شديدا وضغينة على العرب ، وذكرهم بأمجاد أقوامهم التى ضاعت بدخول الفاتحين لبلادهم وأنهم أصحاب حضارة ومجد يفتخر به ، اذا كان العرب يفتخرون بأمجادهم وبحسبهم وقبائلهم • وسمى هؤلاء « شعوبيين » نسبة الى الشعوب جمع شعب ، فهم شعوب من جنسيات مختلفة دخلوا الدين الحنيف وآمنوا به ، وانخرطوا فى سلك المؤمنين لولا نظرة العرب المزرية لهم وتعصبهم عليهم •

---

(٢٣) الاغانى ١٦/١٠٦ •

(٢٤) تاريخ الشعر السياسى ص ٢٢٣ وراجع ايضاً : الادب العربى فى ظل بنى أمية ص ٦٠ •

أوسموا بذلك من واقع الآية الكريمة « وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ... » . على أن المراد بالشعوب فى الأدب الأموى العجم وبالقبائل العرب .

وقد افتخر الأعاجم بأنفسهم وقوامهم على غرار فخر العرب ، الا أن العجم كانوا مستترين خائفين فى أول الأمر لم يصرحوا جهارا بالحط من قدر العرب وان صرحوا باعتزازهم بأنفسهم وذويهم من العجم . ومن ذلك قول يزيد بن ضبة مولى ثقيف فى قصيدته التى يذكر فيها ما كان بينه وبين هشام بن عبد الملك :

ألم تر أننا لما ولينا	أمورا خرقت فوهت سددنا
رأينا الفتق حين وهى عليهم	وكم من مثله صدع رفأنا
وجبار تركناه كليلا	وقائد فتنة طاغ أزلنا
ولينا الناس أزمانا طوالا	وسسناهم ودسناهم وقدنا
ألم تر من ولدنا كيف أشبى	وأشبينا وما بهم قعدنا(٢٥)

ومع ازدياد العصبية العربية وقسوة العرب على العجم انفجر العجم وعلت أصواتهم بعصبية أعجمية ونظموا شعرا قويا يرفعون فيه قدرهم ويحطون من قدر العرب ، وممن أسفروا عن وجوههم وأخرجوا ما فى صدورهم جهارا ، لا يأبهون بأحد : اسماعيل بن يسار الذى قال فى شعره :

رب خال متوج لى وعم	ماجد مجتذى كريم النصاب
انما سمى الفوارس بالفر	س مضاهاة رفعة الأنساب
فاتركى الفخر يا أمام علينا	واتركى الجور وانطقى بالصواب

---

(٢٥) الاغانى ٩٦/٦ ، وأشبى الرجل ولد له ولد ذكى .

وأسألى ان جهلت عنا وعنكم كيف كنا فى سالف الأحقاب
اذ نربى بناتنا وتدوسو ن سفاها بناتكم فى التراب(٢٦)

ويبلغ من الجرأة والتعصب الحد الذى لا يبالى معه امام الخليفة هشام بن عبد الملك أن يفتخر بقومه ويحط من قدر العرب متحديا فى ذلك مشاعر الخليفة والعرب ، فيقول من قصيدة أخرى :

انى — وجدك — ما عودى بذى خور
عند الحفاظ ، ولا حوضى بمهدوم
أصلى كريم ومجدى لا يقاس به
ولى لسان كحد السيف مسموم
أحمى به مجد أقوام ذوى حسب
من كل قوم بتاج الملك معموم
من مثل كسرى سابور الجنود معا
وهم أذلوا ملوك الترك والروم
هناك ان تسألى تنبى بأن لنا
جرثومة قهرت عز الجرائيم(٢٧)

وهكذا كان تعصب العرب لجنسهم ولونهم وعروبتهم وافتعالهم الطبقية والعنصرية فى هذا المجال سببا قويا فى حقد الأعاجم عليهم وتعصبهم ضد العرب وافتخارهم عليهم بما لهم من أمجاد وحضارة تالدة يعتزون بالانتساب اليها .

---

(٢٦) المصدر نفسه ٤/٤١١ .
(٢٧) الاغانى ٤/٤٢٣ ، والجرثومة الاصل .

وكان أكثر الأعاجم تعصبا الفرس ، اذ كانوا أكثر من غيرهم فى العصر الأموى ، وكان الاحتكاك بينهم وبين العرب أكثر .

بيد أن شعر الشعوبية على جدته لم يكن فى العصر الأموى ليمثل تيارا أو اتجاها ، ولكنه كان فى أول الطريق . الا أنه كثر واتسعت دائرته وظهر ظهورا كبيرا ، وظهرت فيه العصبية بقوة أكثر فى العصر العباسى .

٣ ـ النقائض :

النقائض فى اللغة : جمع نقيضة من نقض البناء أى هدمه ونقض الحبل أى حله . قال تعالى : « ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا » . وناقضته مناقضة : أبطلت كلامه وأتيت بما يغايره .

وأما معناها الفنى والاصطلاحى : فهى أن يقول شاعر قصيدة فى موضوع ما ، وغالبا ما يكون الفخر أو الهجاء ، فيأتى شاعر آخر ليرد عليه ويأخذ بالثأر منه ، فينظم قصيدة فى الموضوع نفسه ، وعلى نمط القصيدة السابقة وزنا وقافية مع الاتفاق فى حركة حرف الروى الروى أو الاختلاف فى الحركة ، كما هو الحال فى قصيدتى الفرزدق وجرير اللاميتين الأولى منهما وهى لامية الفرزدق حركة الروى فيها الضمة :

ان الذى سمك السماء بنى لنا   بيتا دعائمه أعز وأطول

والثانية : وهى لامية جرير حركة الروى فيها الكسرة :

لمن الديار كأنها لم تحلل   بين الكناس وبين طلح الأعزل

والقصيدة الأولى عادة يهجو فيها الشاعر قبيلة أو جماعة من الناس ذاكرا مثالبهم وأيامهم وقبيح صفاتهم وما ينسب اليهم مما

لا يحبون من الخصال الذميمة نيلا منهم وحطا لقدرهم ، وأحيانا يكون الهجاء فرديا • أى بين الشاعر وبين فرد بعينه فيأتى الشاعر الآخر فينظم قصيدة يبطل فيها معانى الشاعر الأول بالتكذيب أو المقابلة أو القلب ، أو التوجيه ، أو الوعيد والشماتة •• الى غير ذلك من أساليب الرد وابطال المعانى الأول •

والنقيضة بهذا المعنى تكون بعكس المعارضة والمنافرة • اذ أن المعارضة تكون أيضا فى نفس الموضوع الأول وعلى نمطه وزنا وقافية ، ولكن الشاعر الثانى يؤيد الشاعر الأول فى معانيه وأفكاره وقد يزيد عليها ولا يبطلها •

والمنافرة : تكون كذلك فى نفس الموضوع وعلى نمط القصيدة الأولى وزنا وقافية • ويفتخر الشاعران كل بشعره ويحتكمان الى آخر يفصل بينهما ويحكم لأحدهما بالتفوق •

والنقائض بمعنييها اللغوى والاصطلاحى قد وجدت فى الجاهلية على أثر الصراعات التى دعت اليها ضرورات الحياة الاقتصادية والاجتماعية ، كما وجدت فى عصر صدر الاسلام بدعوى الصراعات الدينية بين المسلمين والمشركين ، الا أنها لم تكن فى العصرين السابقين احترافا وسياسة ، ولكن الضرورة تدعو اليها بين الحين والحين وان كان رجالها قد خصصوا وعرفوا فى صدر الاسلام وهم حسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة فى الجانب الاسلامى ، وأبو سفيان ابن حرب وعبد الله بن الزبعرى وضرار بن الخطاب فى الجبهة المعادية وهى جبهة المشركين •

واذا كانت العصبية القبلية هى أول المثيرات للنقائض الجاهلية وموضوعها الفخر والهجاء فان الرسول صلى الله عليه وسلم بأحاديثه

الشريفة وبما تلاه على المسلمين من آيات القرآن الكريم قد قضى على هذه العصبية وجعلها عصبية دينية وقد هذب من أساليب الفخر والهجاء، وأراد الفخر بالاسلام وليس بالاحساب والأنساب وأيام العرب وأمجادها • كما أراد الهجاء بالكفر والضياع فى متاهات الضلال •

ولكن ما أن جاء العصر الأموى الا وقد أطلت الفتنة برأسها من جديد وعاد شعراء النقائض الى أسوأ مما كان عليه الحال فى الجاهلية، وأيضا كان الفخر والهجاء هما عماد النقائض الأموية • واذا كانت الدواعى فى الجاهلية تكمن فى العصبيات القبلية والظروف الاجتماعية المتدهورة وكذا الظروف الاجتماعية ، فان هذه الدواعى بعينها كانت وراء النقائض الأموية مع اختلاف فى الأحوال الاقتصادية والاجتماعية، اذ عم الرخاء فى العصر الأموى نتيجة للأموال المتدفقة عليهم من خارج البلاد المفتوحة ومن الجباية وفئ الحرب ، وانتشر الفراغ بين الشباب والشيوخ ولابد من ملء هذا الفراغ بشىء يشغل الناس عن أمر السياسة والخلافة ، ولما كانت العراق مسرحا للتيارات المتعارضة والصراعات والاحتكاكات الكثيرة بين القبائل وبخاصة القبائل القيسية التى تناصر الأمويين ، واليمنية التى تناصر الزبيريين ، وكذا العصبية الحادة بين العرب والعجم ، وبين بعض الأفراد ممن لهم وزن وثقل فى السياسة والأدب •

أضف الى هذا كله الاستعداد القوى بين أدباء كل حزب أو تيار للهجاء المقذع بالكلمات المفحشة •

فقد استغل الأمويون كل هذه الأمور وعملوا على تنميتها واشعال نيرانها كنوع من السياسة ، فكانت الوشايات والدسائس بين القبائل وشعرائها • وقد ضرب بشر بن مروان والى العراق من قبل عبدالملك ابن مروان بسهم وافر فى استغلال العصبيات والتيارات المتصارعة فى

العراق ، وفى الوقيعة وبث الدسائس بين القبائل والشعراء ، وكثيرا ما كان يوقع بين الفرزدق والأخطل وبين جرير ، ويثير الضغائن بين جرير وصاحبيه حتى يحتدم الصراع وتنشب المعارك الأدبية والمساجلات الشعرية بين ثلاثتهم • وكانت أكثر الأسواق اجتماعا بالناس للسماع والاستمتاع سوقى « المربد والكناسة » ، فكان الشعراء يحضرون الى احدى السوقين وكل شاعر له مناصروه ومشجعوه الذين يحضرون معه ، ويبدأ أحد الشعراء مفتخرا بنفسه وقبيلته وهاجيا الشاعر الآخر وقبيلته محاولا النيل منه واضحاك الناس عليه • ويأتى الشاعر الآخر ليثأر لنفسه وقبيلته ويقلب معانى الشاعر الأول عليه ، مفتخرا هو الآخر وهاجيا لينتقص من شأن الشاعر الآخر وقبيلته • والناس يصفقون للمعنى الجيد ويزرون بالمعنى الردىء ، وتنتهى المعركة ليعود الركبان متحدثين عن فوز هذا الشاعر على ذاك أو العكس ، وأصبح هذا الفن احترافا وله رجاله ومريدوه •

ولذلك نستطيع أن نقول : ان فن النقائض من حيث معناه اللغوى وكذا الاصطلاحى ليس جديدا على العصر الأموى وانما بذوره وجذوره موجودة وممتدة فى العصرين الجاهلى وصدر الاسلام ، وان اختلفت دواعيه وأسبابه وأساليبه •

أما من حيث هو احتراف وسياسة فهو جديد كل الجدة فى العصر الأموى • وفى ذلك يقول الدكتور خفاجى : « واذا كانت النقائض القبلية قد وجدت فى العصر الجاهلى فيما قبل فى يومى الكلاب الأول والكلاب الثانى ، والنقائض الدينية قد وجدت فى عصر النبوة بين حسان وكعب بن مالك وابن الزبعرى وضرار بن الخطاب مثلا ، فان النقائض الأموية فن سياسى وأدبى جديد نشأ بتأثير الحاجة اليه فى شئون السياسة والعصبية والأدب ، فالجانب السياسى والأدبى منه

جديد كل الجدة ، أما الجانب القبلى الاجتماعى فهو تطور للجدل القبلى الجاهلى القديم » (٢٨) .

وفرسان هذا الفن فى العصر الأموى هم : جرير والفرزدق والأخطل . ولم تنته النقائض والمساجلات الأدبية بين الثلاثة الا بموت الأخطل سنة ٩٥ هـ وموت جرير والفرزدق سنة ١١٠ هـ .

ولكن المؤلفين والباحثين اجمعوا على أن جريرا هو أول من أثار فن النقائض فى العصر الأموى (٢٩) وثبت فى ميدانه وتصدى لكل مناقض ، يسكت الشعراء واحدا ، واحدا ، فمتى بدأت النقائض بينه وبين خصومه ؟

ينقل أحمد الشايب مجموعة من النصوص فى هذا المجال من كتاب « نقائض جرير والفرزدق » للاستاذ / أنتونى أشلى بيفان ، ومن الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى . قائلا : « هناك نص يقول : ان جريرا كان يهاجى غسان عام الجماعة ، وذلك عام أربعين الهجرى ، ونص آخر يقول : ان جريرا كان يقول الشعر فى حياة معاوية ؛ وأن بعض شعره كان يردده يزيد ابنه أمامه فيظن أنه له ، وهو أول شعر قاله جرير زمن معاوية ، وهناك نص ثالث بأن أول شعر قاله جرير انما كان رجزا هجا به بنى سليط لما سمع غسان بن ذهيل السليطى يرجز بقومه . وذلك وقت ملك ابن الزبير ، أى بعد موت معاوية ابن أبى سفيان ؛ وكان

---

(٢٨) دراسات فى تاريخ الادب العربى / ١٠٦ .

(٢٩) الادب العربى فى ظل بنى أمية / ٥٦ ، و/ جودة عبد الله مصطفى .

وراجع أيضا : تاريخ النقائض فى الشعر العربى / ٢٢٥ ص ٣ ، د/ أحمد الشايب .

هذا الرجز هو الخطو الأولى لنقائض جرير مع خصومه وبعدها التحم مع البعيث فالفرزدق وغيرهما » •

ثم يطرح الأستاذ الشايب سؤالا يقول فيه : « فماذا عسى أن يكون الحق من هذه الأقوال ؟ » •

وبعد مناقشة جادة ودقيقة لكل رأى من هذه الآراء التى سردها ووقف عليها ، وبعد ذكر لأبيات العتاب التى عاتب بها جرير أباه وتمثل بها يزيد بن معاوية أمام أبيه وهى :

وانى لمغرور أعلل بالمنى	ليالى أرجو أن مالك ماليا
فأنت أبى ما لم تكن لى حاجة	فان عرضت أيقنت ألا لا أباليا
بأى نجاد نحمل السيف بعدما	قطعت القوى من محمل كان باقيا
بأى سنان تطعن القوم بعدما	نزعت سنانا من قناتك ماضيا
ألم أك نارا يصطليها عدوكم	وحرزا لما ألجأتم من ورائيا
وباسط خير فيكم بيمينه	وقابض شر عنكم بشماليا
ألا ، لا تخافا نبوتى فى ملمة	وخافا المنايا أن تفوتكما بيا

بعد هذا كله قرر رأيه قائلا : « لا أميل الى أن النقائض بدأت عام الجماعة لصغر سن جرير اذ ذاك ، فهل بدأت أيام معاوية ، وقبل ملك ابن الزبير ؟ أميل الى أنها بدأت آخر عهد معاوية وقبل الملك الزبيرى ، وأن هذه المراجزة ليست أول ما شعر بدليل غلبة جرير على غسان — على الرغم من نباهة غسان وقتذاك — وانشائه القصيد ردا عليه فى الحال وأن المراجزة من ناحية جرير كانت مسايرة لفن غسان الذى هجا به رهط جرير • وأما الأبيات المذكورة فى العتاب فلا مانع عندى أن تكون من شعره أيام معاوية ، وأن يكون يزيد قد تمثل بها

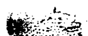
أمام والده » (٣٠) على أن هناك نصا آخر ذكره الدكتور : جودة عبد الله مصطفى ، يتحدث عن بداية النقائض الأموية ونشأتها على يد جرير يقول فيه : « ولقد نشأت النقائض فى تميم ، أو فى بنى يربوع فقد نشبت خصومة بين بنى الخطفى عشيرة جرير ، وبين بنى جحيش ابن سليط ، وكلاهما من بنى يربوع ، فهجا بنو الخطفى بنى جحيش. ولما كان بنو جحيش هؤلاء لا يقولون الشعر ، استعانوا بغسان بن ذهل السليطى أحد أبناء عمومتهم ليرد عنهم الهجاء ، فأعانهم وأخذ فى هجاء بنى الخطفى ، فرد عليه جرير ، واستعر الهجاء بينهما ، ثم دخل بين جرير وغسان شاعر آخر هو البعيث ، وهو من مجاشع رهط الفرزدق ، فاستطار الهجاء بين جرير والبعيث ، وسقط غسان ، فلما نال جرير من مجاشع ، ومن البعيث ، فزع نسوة من بنى مجاشع ، وأتين الفرزدق — وكان قد قيد نفسه حتى يقرأ القرآن ويحفظه — فأخذن يثرنه على جرير حتى أحفظنه ، ففض قيده ، والتحم مع جرير فى معركة الهجاء ، التى ظلت مستعرة حتى الممات » (٣١) .

على أية حال فقد بدأ هذا الفن كلون من ألوان السياسة مبكرا منذ أوائل العصر الأموى ، وأن رائده الأول كان جريرا ، وأن هذا الفن قد أحدث صدى فى دنيا السياسة الأموية فأتى ثماره واستفاد منه الأمويون فى حكمهم بصرف الناس فى العراق عنهم وعن سياستهم، كما استفادوا من لهو الحجازيين بالغزل ، والشاميين بالمدائح والشعر السياسى وتدفق الأموال عليهم ازاء ذلك .

---

(٣٠) تاريخ النقائض فى الشعر العربى / ٢٢٥ وما بعدها ، ط ٣ .

(٣١) الادب العربى فى ظل بنى أمية /٥٦ .



العوامل التى ساعدت على نشأة النقائض الأموية :

أولا : العوامل الاقتصادية : ولا شك أن نقائض جرير والأخطل متأثرة بهذه العوامل كثيرا • اذ أنها قامت على ما كان بين قيس وتغلب من عداوة مردها المنافسة على أرض الجزيرة واستغلالها •

ثانيا : العوامل الحزبية والسياسية : اذ المعروف أن الدولة الأموية تموج بتيارات مختلفة وأحزاب متعددة ، ولكل حزب شعراؤه الناطقون باسمه المفتخرون بمواقفه الهجاءون لغيرهم من الأحزاب الأخرى • والى جانب ذلك فقد كانت مواقف بعض القبائل الى جانب بعض الأحزاب تثير ضجة كبيرة لدى الأحزاب الأخرى ، وبخاصة الحزب الحاكم ؛ فقد كان موقف قيس عيلان مع الزبيريين على بنى أمية ، وكانت لهم مكانتهم فى الشام والجزيرة العربية كلها مما أخاف تغلب وشغل بنى أمية ، وكانت تغلب وشاعرها الأخطل تحتمى بالبيت الحاكم ، والأخطل كان شاعر القصر الملكى آنذاك ، ثم عداوة تميم أيضا جعلت الفرزدق يقف لجرير بالمرصاد ، ثم ما كان من بشر بن مروان وجمعه الشعراء على جرير واغرائهم به •

كل ذلك وغيره قد أشعل جذوة النقائض وزاد سعيرها ، فحمى وطيسها وبلغت أقصى غاياتها فى هذا العصر ، وهذا كله يفسر ما يسمى بـ « لعبة السياسة الأموية » •

ثالثا : العوامل القبلية والاجتماعية : وذلك أن العصبية القبلية كانت الدافع المباشر لما ثار من مناقضة بين الشعراء فى الأغلب الأعم ، فالأخطل تغلبى فى نقائضه مع جرير ، وكان انتصاره لأمية أو لدارم فى سبيل قومه ، وكان يفخر بمآثر تغلب وأيامها فى جميع مواقفه ، وكان جرير على الرغم من نزعته مع قيس تميميا يفخر بتميم عامة ، وبيربوع

خاصة . فهم قومه ، ومع ذلك يقف الى جانب قيس عيلان ويجاملها ويتحدث على لسانها ، وأما الفرزدق فقد غلبت عليه القبلية فى هذا الفن وفى سواه : فهو زعيم تميم والمحامى عنها ، خاصم فى سبيلها الخلفاء والولاة ونفى جريرا عنها لدفاعه عن قيس عيلان وساعد الأخطل على يربوع رهط جرير ... الى غير ذلك من الخلافات القبلية والاجتماعية التى كانت سببا فى نشأة النقائض والباسها أثواب السياسة الأموية .

رابعا : العوامل الثقافية والفنية : وهذه كانت ذات قيمة هامة فى النقائض ، حيث كانت تستلزم الوقوف على الشعر ، والمفاضلة بين الشعراء ، ومن ذلك ما جرى من الأخطل حين بعث ابنه مالكا الى العراق ليأتيه بخبر جرير والفرزدق،فقال له ابنه : وجدت جريرا يغرف من بحر ووجدت الفرزدق ينحت من صخر،فقال الأخطل : الذى يغرف من بحر أشعرهما . وقال يفضل جريرا على الفرزدق :

انى قضيت قضاء غير ذى جنف ... لما سمعت ولما جاءنى الخبر
أن الفرزدق قد شالت نعامته ... وعضه حية من قومه ذكر

فلما دخل الكوفة بشر بن مروان قدم عليه الأخطل فبعث اليه محمد ابن عطارد يرشيه على أن يغير حكمه ويقضى للفرزدق ، فقال الأخطل قصيدته :

أجرير انك والذى تسمو له ... كأسيفة فخرت بجدع حصان

فرد عليه جرير :

لمن الديار ببرقة الروحان ... اذ لا نبيع زماننا بزمان (٣٢)

---

(٣٢) راجع : تاريخ النقائض فى الشعر العربى ص ٢٢١ ، ٢٢٢ . والاغانى ٦١/١١ ، دار الكتب المصرية .

وقيل : ان ذلك كان بحضور بشر بن مروان ، وأنه طلب من الأخطل أن يحكم بين جرير والفرزدق ، وكان الثلاثة عنده مجتمعين ، وطلب الأخطل من الأمير أن يعفيه فأبى . فقال الأخطل حكمه : الفرزدق ينحت من صخر ، وجرير يغرف من بحر ، فلم يرض جرير بذلك (٣٣) ، وقيل ان الأخطل كان يرى أن جريرا أفضل ، وصرح بذلك ، فبعث اليه محمد بن عمير ، وهو من بني عبد الله بن دارم أخي مجاشع بدراهم وحملان وكسوة وخمر ، وطلب اليه أن يفضل شاعرهم الفرزدق ، فقال الأخطل :

اخسأ كليب ان مجاشعا وأبا الفوارس نهشلا أخوان
قوم اذا خطرت اليك قرومهم جعلوك بين كلاكل وجران
واذا وضعت أباك في ميزانهم رجحوا وشال أبوك في الميزان

فرد عليه جرير قائلا :

ياذا العباية ان بشرا قد قضى أن لا تجوز حكومة النشوان
فدعوا الحكومة لستم من أهلها ان الحكومة في بني شيبان
قتلوا كليبكموا بلقمة جارهم ياخزر تغلب لست بالهجان (٣٤)

وقيل : ان الأخطل حينما حكم بين جرير والفرزدق في حضور بشر ابن محمد قال الراعي النميري :

يا صاحبي دنا الرواح فسيرا غلب الفرزدق في الهجاء جريرا

فتح بذلك على نفسه باب البائية المشهورة لجرير :

أقلي اللوم عاذل والعتابا وقولي ان أصبت لقد أصابا

---

(٣٣) الطبقات الكبرى لابن سعد / ٤٧٤ .
(٣٤) الطبقات ص ٤٥٣ ، ٤٧٤ ، والأغاني ٨/١٧ ، ٦١/١١ .

الى أن قال :

فغض الطرف انك من نمير فلا كعبا بلغت ولا كلابا

وأجابه عليها الفرزدق :

أنا ابن العاصمين بنى تميم اذا ما أعظم الحدثين نابا (٣٥)

الخصائص الفنية النقائض فى العصر الأموى :

١ ــ ظهور الخصائص والسمات الاسلامية ظهورا واضحا فى هذا الفن :

فعلى الرغم من أن عمالقة هذا الفن كان تأثرهم بالاسلام ضعيفا الا أن فنهم هذا يشتمل فى ثناياه على كثير من مبادىء الاسلام وقيمه. وكان جرير والفرزدق أكثر تأثرا فى شعرهما بالاسلام من الأخطل الذى كان مسيحيا .

ومن تأثرهم بالاسلام ما جاء فى نقيضة الفرزدق اللامية التى قال فى مطلعها :

ان الذى سمك السماء بنى لنا بيتا دعائمه أعز وأطول

وهذا المعنى مستقى من قول الله تبارك وتعالى : « أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها رفع سمكها فسواها » .

---

(٣٥) راجع : الاغانى ٨/٢٠٨ ، ٢٩ ، نقائض جرير والفرزدق ٤٢٧/ .

وراجع : فى أسباب نشأة النقائض الاموية تاريخ النقائض د/ احمد الشايب من ص ٢١٨ ــ ٢٢٢ .

(٣٦) تاريخ النقائض ٤٠٨/ د/ احمد الشايب .

كما جاءت فى شعره معانى كثيرة مطابقة لأحكام العقيدة الاسلامية من مثل قوله :

ولست بمأخـوذ بلغـو تقـوله   اذا لم تعمد عاقـدات العزائـم

وان كان تأثره بالاسلام عقليـا أكثر منه قلبيا ، لأنـه كان كثير التحلل من شعائر الدين جريئا على حدوده منتهكا حرماته •

وكان جرير أشد تأثرا بروح الاسـلام ومبادئـه من الفرزدق ، ولذلك كان يعتبر تحلل الفرزدق من بعض تعاليم الاسلام من نقـاط الضعف التى يطعنه فيها ، اذ رماه هو والبعيث بالغدر حيث لا يقرآن سورة الأحبار فيقول فيهما :

ان البعيث وعبد آل مقاعس   لا يقرآن بسـورة الأحبار

وهى قول الله تعالى : « ياأيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود » سورة المائدة • وكثيرا ما كان يحمل على الأخطل ومسيحيته وينكر شـعائر معتنقى هذا الدين فيقول :

قبح الاله وجـوه تغلب كلما   شبح الحجيج وكبروا اهـلالا
عبدوا الصليب وكذبوا بمحمد   وبجبرئيـل وكذبـوا ميـكا

كما حمل عليهم بأكلهم الخنزير وضلالهم وبعدهم عن دين الهدى فيقـول :

رجس يكـون اذا صـلوا آذانهـم
قرع النواقيس لا يدرون ما السور
الضـاحكون الى الخنزير شـهوته
يا قبحت تلك أفواهـا اذا كشـروا

والقرعون على الخنزير ميسرهم
بئس الجزور وبئس القوم اذ يسروا
جاء الرسول بدين الحق فانتكثوا
وهل يضير رسول الله أن كفروا (٣٧)

ولكن مسيحية الأخطل لم تنجه من تأثره بالاسلام وكتابه الكريم .وقد كان يحيا فى بلاد عربية اسلامية شعارها الاسلام ودستورها القرآن ، وخليفتها الذى يعيش الشاعر فى كنفه ومن فيض ماله كان مسلما ، ويجب أن يوصف بتطبيقه لمبادىء الاسلام وتعاليمه . وهذا كله جعل الأخطل يتأثر تأثرا شديدا بالألفاظ والمعانى الاسلامية فى كل أغراضه الشعرية من مدح وهجاء وسياسة ورثاء .. وما الى ذلك . ومن ذلك قوله فى مدح الخليفة :

الى امام تغادينا نوافله ... أظفره الله فليهنأ له الظفر
الخائض الغمر والميمون طائره ... خليفة الله يستسقى به المطر

٢ -- الفخر والهجاء كانا أهم فنون النقائض ، يأتيان أحيانا منفصلين فى القصائد وأحيانا مختلطين فيها . كما فى نقيضة جرير التى هجا فيها الفرزدق فى مصرع قتيبة حيث يقول :

فغيرك أدى للخليفة عهده ... وغيرك جلى عن وجوه الأهاتم

٣ -- الافحاش فى الهجاء والمبالغة فى الفخر كان كل منهما السمة الغالبة على النقائض وقد كان الهجاء مقذعا لدرجة التقزز والاشمئزاز . من مثل قول جرير فى هجاء الأخطل وقومه « تغلب » :

والتغلبى اذا تنحنح للقرى ... حك استه وتمثل الأمثالا

---

(٣٧) التطور والتجديد ١٧٣/ -- د/ شوقى ضيف .

ومن مثل قول الأخطل في جرير وقومه :

قوم اذا استنبح الأضياف كلبهم قالوا لأمهم : بولي على النار

٤ — الميل الى الاستقصاء وذكر الأيام والأسماء والحوادث ، وتتبع صفات القبائل ومعرفة رجالها وأنسابهم ومثالبهم وحوادثهم ، بحيث كانت النقائض سجلا تاريخيا يتحدث الشاعر في قصائده عن القبيلة التي يعرض لها بذكر رجالها وهجائهم ، فكان يبحث ويدقق ويغوص وراء محاسن قبيلته ليفخر بها ، ووراء مثالب القبائل الأخرى لنيال منها ، ومن ذلك قول جرير في بني ضبة أخوال الفرزدق :

ياضب قد فرغت يميني فاعلموا	طلقا وما شغل القيون شمالي
ياضب على أن تصيب مواسمي	كوزا على حنق ورهط بلال
ياضب انى قد طبخت مجاشعا	طبخا يزيل مجامع الأوصال
ياضب لولا حينكم ما كانتم	غرضا لنبلى حين جد نضالي
ياضب انكم البكار وانني	متخمط تطم يخاف صيالي
ياضب غيركم الصميم وأنتم	تبع اذا عد الصميم موالي
ياضب انكم لسعد حشوة	مثل البكار ضممتها الأغفال
ياضب ان هوى العيون أضلكم	كضلال شيعة أعور الدجال (٣٨)

٥ — التكرار : وذلك أنه لما كانت أيامهم — أي التي التقوا فيها لحرب — في الجاهلية والاسلام معروفة وحوادث حياتهم أيضا معروفة ومثالبهم القديمة والحديثة معروفة ، وهذه كلها كانت مادة فنهم هذا — أعنى النقائض — فقد استنفدوها في عدد من قصائدهم القليلة ، ثم راحوا يكررونها في بقية قصائدهم ، ومن ثم فقد حدث التكرار في

(٣٨) نقائض جرير والفرزدق ٣٢٢/١ .

معانيهم ، وأفكارهم ، بل فى بعض ألفاظهم أيضا : « فالأخطل يكرر أيام قومه على قيس ، ومآثر دارم ، ومثالب كليب ، والفرزدق يفعل ذلك بالأيام والرجال • وأما جرير فقد لاحظ النقاد الحاحه على الفرزدق بمعانى الزبير وجعثن والقيون والزنى والنفى من المدينة والسيف ، وكأنهم عدوا ذلك قصرا فى هجائه وضيقا فى مجاله •• كذلك ردد مع الأخطل الخمر والكفر ، والخزى ، وقذارة نسوة تغلب ، وهزائم رجالهم •

يقول جرير فى نقيضته :

فلو أيام جعثن كان قومى	هم قوم الفرزدق ما استجارا
فظل القين بعد نكاح ليلى	يطير على سبالكم الشرارا

ويقول فى أخرى :

لاقيت أعين والزبير وجعثنا	أعدال مخزية عليك ثقال
ودعا الزبير مجاشعا فترمزت	للغدر الأم آنف وسبال

ويقول للأخطل فى قومه :

عبدوا الصليب وكذبوا بمحمد	وبجبرئيل وكذبوا ميكالا

ويقول فى نقيضة أخرى :

أفبالصليب ومارسرجس تتقى	شهباء ذات كتائب جمهور (١٩)

٦ — الواقعية كانت تبدو فى كثير من معانيهم وتعبيراتهم : بمعنى أن الشاعر منهم اذا أراد هجاء شاعر آخر أو قبيلة بحث عن مثالب الشاعر أو القبيلة أو الجماعة من الناس الذين يتصدى لهم بلسانه هاجيا ، وعرف أيامهم ودرس أحوالهم ، وسأل عن كل ما يحط من قدر

---

(٣٩) تاريخ النقائض /٣٢١ ، ٣٢٢ ، د/ الشايب •

المهجوين وينال من شرفهم ، ليكون لهجائه لهم أصل من الصحة والواقع، ثم يضخم الشاعر فى هذه المثالب وتلك الأحداث ويضعها فى أبشع صورة وأقذع عبارة . فحينما هجا العباس بن يزيد الكندى بنى تميم بقصيدته التى قال فيها :

ألا رغمت أنوف بنى تميم	فساة التمر ان كانوا غضابا
لقد غضبت عليك بنو تميم	فما نكأت بغضبتها ذبابا
لو اطلع الغراب على تميم	وما فيها من السوءات شابا

وأراد جرير أن يرد عليه هجاءه ، فسأل عن مثالبه وعرف من قومه أنه جاور عتابا فى طيء فحبل أخته هضيبة ، وأن العباس قتل أخته ووليدها ، فقال جرير :

اذا جهل الشقى ولم يقدر	لبعض الأمر أوشك أن يصابا
أعبدا حل فى شعبى غريبا	ألؤما لا أبالك واغترابا
فما خفيت هضيبة حين جرت	ولا اطعام سخلتها الكلابا
تخرق بالمشاقص حالبيها	وقد بلت مشيمتها الترابا
فقد حملت ثمانية وأوفت	بتاسعها وتحسبها كعابا (٤٠)

وحينما حج الفرزدق وجرير مع سليمان بن عبد الملك ، وأتى لسليمان بأسرى من الروم فدفع ببعض الأسرى الى وجوه من معه ليقتلوهم ، ودفع الى جرير رجلا منهم فقتله ، ثم دفع الى الفرزدق أسيرا فضربه بسيفه فلم يغن الضب شيئا ، فقال جرير مستغلا نبوسيف الفرزدق وعدم قدرته على قتل من دفع اليه من الأسرى :

---

(٤٠) الاغانى ٨/٢١ .

تحرض يا ابن القين قيسا ليجعلوا
لقومك يوما مثل يوم الأراقم
بسيف أبى رغوان سيف مجاشع
ضربت ، ولم تضرب بسيف ابن ظالم
ضربت به عند الامام فأرعشت
يداك ، وقالوا : محدث غير صارم

فقال الفرزدق ينقض قول جرير :

وهل ضربة الرومى جاعلة لكم ... أبا عن كليب أو أبا مثل دارم
كذاك سيوف الهند تنبو ظباتها ... وتقطع أحيانا مناط التمائم
ولا نقتل الأسرى ولكن نفكهم ... اذا أثقل الأعناق حمل المغارم(٤١)

وهذا الفرزدق أيضا يذهب الى عمرو بن اجأ ليعرف منه مثالب بنى جعفر بن كلاب ، وما يهجون ، فلما أخذها عنه هجاهم بها فقال فى قصيدة طويلة منها :

ونبئت ذا الأهدام يعوى ودونه ... من الشام زراعتها وقصورها
الى ولم أترك على الأرض حية ... ولا نابحا الا استسر عقورها
عوى بشقا لا بنى بحير ودوننا ... نضار فأجبال الستار فنيرها
ونبئت كلب ابنى حميصة قد عوى ... الى ونار الحرب تغلى قدورها(٤٢)

ولكن هل معنى ذلك أن كل ما فى النقائض صدق فى المعنى والعبارة؟ كلا ، فالكثير من معانيهم كان له أصل من الصحة والصدق ولكنهم بالغوا فى تعبيراتهم عنها فتحملت المعانى أكثر من حجمها ، واتسع

(٤١) الاغانى ٢١/٣٢٨ ، ٣٢٩ .
(٤٢) نقائض جرير والفرزدق /٩٠٧ .

خيالهم ، وكثرت مبالغاتهم واختراعاتهم للوقائع والحوادث ، مبالغة في ايذاء من هجوهم والصاق الخبائث بهم وخدش عفافهم والتشنيع بهم ونقبيح صفاتهم . حتى ولو بالكذب والادعاء . ومن ذلك أن جريرا شنع بالفرزدق في هجائه له ، فنسبه الى القين لعبد كان نجده صعصعة يسمى جبيرا ، فقال في نقيضته التى هجا فيها الفرزدق :

وجدنا جبيرا أبا غالب — بعيد القرابة من معبد
أتجمل ذا الكير من دارم — وأين سهيل من الفرقد (٤٣)

ومع اعتراف جرير بصلاح (جعثن) وعفافها نجده قد شنع بها وعرضها عرضا قبيحا كقوله فيها :

نسيتم عقر جعثن واحتبيتم — ألا تبا لفخرك بالحبات
وقد دميت مواقع ركبتيها — من التبراك ليس من الصلاة
تبيت الليل تسلق اسكتاها — كدأب الترك تلعب بالكرات
وحط المنقرى بها فقرت — على أم القفا والليل عات
تنادى غالبا وبنى عقال — لقد أخزيت قومك في الغداة
وجدنا نسوة لبنى عقال — بدار الذل أغراض الرماة
غوان هن أخبث من حمير — وأمجن من نساء مشركات
وسوداء المجرد من عقال — تبايع من دنا خذها وهات (٤٤)

وكانت هذه الصورة القبيحة التى رسمها جرير لجعثن ردا منه على الفرزدق الذى شنع هو الآخر بنساء بنى كليب وأم جرير ، حيث رسم لهن أقبح صورة ، معتمدا في نظمه على الكذب والاختراع لأمور ليست فيهن ، والغرض من وراء هذا الكذب وذلك الاختراع هو ايذاء

---

(٤٣) تاريخ النقائض /٢٦٩ .
(٤٤) النقائض /٧٧٨ .

جرير وقومه والحط من قدرهم والنيل من شرفهم ، حيث يقول الفرزدق :

جزعت الى هجاء بنى نمير ... وخليت أست أمك للرماة
فأبصرنى وأمك حين أرمى ... مشق عجانها بالناقرات
وتمسى نسوة لبنى كليب ... بأفواه الأزقة مقعيات
زوايا سكة نبتت حديثا ... بأخبث نبتة شر النبات
بأحراح خبيثات الملاقى ... شمطن وهن غير مختتنات
يبعن فروجهن بكل فاس ... كبيع السوق خذ منى وهات
كبرن وهن أزنى من قرود ... وأنجس من نساء مشركات (٤٥)

وهكذا كان الشاعر المناقض يدفعه خياله الواسع فى كثير من الأحيان الى الكذب واختراع صور ساخرة مضحكة ، أو مقذعة ، ليس لها أصل ولا تمت للواقع والحقيقة بصلة ، بقصد الانتصار على خصمه والنيل منه .

٧ — صدق العاطفة لدى شعراء النقائض :

ما تحدثنا به فى الخاصة السابقة عن الواقعية التى تبدو فى كثير من معانيهم وتعبيراتهم ، يدفعنا الى الوقوف على عواطف هؤلاء الشعراء عمالقة النقائض فى العصر الأموى . وما كان من هجائهم وفخرهم ونسيبهم ، ومدى صدق عواطفهم عند التعبير عن معانيهم وعباراتهم قد اختلط الصدق فيها بالكذب بقصد هزيمة الخصم والانتصار عليه ، ولكن هل كانت عواطفهم صادقة فى كل تعبيراتهم عن معانيهم وأغراضهم ؟

(٤٥) المرجع السابق ، ص ٧٧٢ .

جرير كان صادقا فى النسيب ، اذ كانت تعبيراته تأتى فى هذا الغرض الشعرى رقيقة شجية تنساب منه انسيابا طبيعيا جميلا . بينما كان نسيب الفرزدق يأتى جافا غليظا فيه تصنع وكلفة ، ولعل هذا الفارق بين طبع جرير وصنعة الفرزدق هو الذى دفع الأخطل أو ابنه مالك لأن يقول عبارته المشهورة : « جرير يغرف من بحر ، والفرزدق ينحت من صخر » .

أما فى الفخر فكان كل من جرير والفرزدق صادقا معبرا ، وهناك توافق طبعى بين عاطفة كل منهما وعقله . الا أن جريرا فى الشق الثانى من شقى النقائض وهو الهجاء كان أكثر عاطفة وأسهل عبارة وسخطه أقرب الى الحقيقة من صاحبيه الفرزدق والأخطل ، وقد استحال الهجاء بين هؤلاء الشعراء الثلاثة الى نوع من العبث الفنى والمباراة الأدبية ، دون أن يعبر الهجاء عن حقد أو سخط حقيقى بين هؤلاء الشعراء . والدليل على ذلك تلك القضية التى ذكرها ابن خلكان فى كتابه (وفيات الأعيان) ، وهى أن جريرا والفرزدق حين قصدا الرصافة فى طريقهما الى هشام بن عبد الملك وكانا مرتدفين على ناقة ، فنزل جرير لقضاء حاجته ، فجعلت الناقة تتلفت فضربها الفرزدق وقال :

الام تلفتين وأنت تحتى وخير الناس كلهم أمامى
متى تردى الرصافة تستريحى من التهجير والدبر الدوامى

ثم قال : الآن يجىء جرير فأنشده البيتين فيقول :

تلفت أنها تحت ابن قين الى الكيرين والفأس الكهام
متى ترد الرصافة تخز فيها كخزيك فى المواسم كل عام

فجاء جرير والفرزدق يضحك ، فقـال : ما يضحكك أبا فراس ؟ فأنشده البيتين الأولين ، فأنشـده جرير البيتين الآخرين ، فقـال الفرزدق : والله قد قلت هذا،فقال جرير : أما علمت أن شيطاننا واحد؟

يقول أحمد الشايب فى التعليق على هذه القصة : « اذا صحت هذه الحكاية دلت على أن المناقضة كانت فى بعض الأحيان تستحيل صـنعة فنية ، كما يفعل المتبارون فى الغناء والملاحاة بالمواويل ، دون حقـد ، بدليل ما كان يعرف كل لصاحبه من قيمة فنية » (٤٦) •

والقول بشيطان الشاعر عود للمفهوم الجاهلى حيث كانوا يقولون بأن لكل شاعر شـيطانا ، وقالوا : بأن الشـيطان فى الجاهلية تبـدل بالملك فى الاسلام ، ولعـل هـذا هو الذى دفع الأصمعى لأن يقول : « الشعر نكد بابه الشر ، فاذا دخل فى الخير ضعف ، هـذا حسان ابن ثابت فحل من فحول الجاهلية ، فلما جاء الاسلام سقط شعره » (٤٧) •

أى أن الشعراء فى الجاهلية فى رأى الأصمعى لم يكن عليهم قيود من دين فكان شعرهم أقوى لأنهم فى حل مما يقولون • أما فى الاسلام فكانت هناك قيود الدين وضوابطه التى تحدد مسارهم فى شـعرهم فتمنعهم من المبالغات المغالى فيها ، ومن الاقـذاع والفحش فى القول وتناول المثالب والأعراض بصـورة قبيحـة • ودفعتهم لأن يتأثروا بالاسلام وضوابطه (٤٨) ، واستثنى القرآن المؤمنين منهم من الغواية والضلال ، فقال الله تعالى : « والشعراء يتبعهم الغاوون • ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون • وأنهم يقولون مالا يفعلون • الا الذين آمنـوا

(٤٦) تاريخ النقائض /٤٢٧ •
(٤٧) الشعر والشعراء ٣/٥ •
(٤٨) راجع كتابنا : أثر الاسلام فى الشعر ص ١٨ وما بعدها •

وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا وانتصروا من بعد ما ظلموا وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون » •

ولعل جريرا اختار الشيطان ايمانا منه بأنه أقوى من الملك ، كما آمن بذلك نقاد عصره •

٨ ـ قوة الجدل فى النقائض :

وذلك أن النقائض لما كانت احترافا من بعض شعراء هذه العصر • فكانت أشبه بالمباريات فى الملاعب الرياضية ، وكان كل شاعر حريصا على أن ينتصر على خصمه وأن يعلو بنفسه بين قومه والناس الذين لهم اهتمام بهذا الفن من الشعر ، ولذلك كان يجادل ويأتى بالحجج والبراهين ، التى تؤيده وتثبت أقواله وتبطل آراء غيره وما ذكروه من معانيهم ومن سردهم للأيام والأحداث التى يعتبرونها مثالب يطعنون بها خصمهم •

ولما كان الجدل يعتمد على العلم بالعقائد وعلى احاطة بمثالب الخصم وتاريخ حياته وقومه ، وعلى جزالة اللغة وقوة المعانى ومتانة الأسلوب ، فقد تحقق ذلك كله فى كثير من نقائضهم • ومن ذلك نقيضة الفرزدق اللامية التى قالها فى هجاء جرير :

ان الذى سمك السماء بنى لنا	بيتا دعائمه أعز وأطول
بيتا بناه لنا المليك وما بنى	حكم السماء فانه لا ينقل
بيتا زرارة محتب بفنائه	ومجاشع وأبو الفوارس نهشل
يلجون بيت مجاشع واذا احتبوا	برزوا كأنهم الجبال المثل
لا يحتبى بفناء بيتك مثلهم	أبدا اذا عد الفعال الأفضل
من عزهم جحرت كليب بيتها	زربا كأنهم لديه القمل
ضربت عليك العنكبوت بنسجها	وقضى عليك به الكتاب المنزل

أين الذين بهم تسامى دارم   أم من الى سلفى طهية تجعل
أحلامنا تزن الجبال رزانة   وتخالنا جنا اذا ما نجهل
فارفع بكفك أن أردت بناءنا   ثهلان ذا الهضبات هل يتحلحل
يا ابن المراغة أين خالك اننى   خالى حبيش ذو الفعال الأفضل
خالى الذى غصب الملوك نفوسهم   واليه كان حباء جفنه ينقل
انا لنضرب رأس كل قبيلة   وأبوك خلف أتانه يتقمل
وشغلت عن حسب الكرام وما بنوا   ان اللئيم عن المكارم يشغل

فأجابه جرير بنقيضة على نفس الوزن والقافية ، وان اختلفت حركة حرف الروى : حيث كانت الضمة فى لامية الفرزدق ، والكسرة فى لامية جرير • يقول جرير :

لمن الديار كأنها لم تحلل   بين الكناس وبين طلح الأعزل
ولقد أرى بك والجديد الى بلى   موت الهوى وشفاء عين المجتلى
واذا التمست نوالها بخلت به   واذا عرضت بودها لم تبخل
يا أم ناجية : السلام عليكم   قبل الرواح وقبل عذل العذل
لو كنت أعلم أن آخر عهدكم   يوم الرحيل فعلت مالم أفعل
أعددت للشعراء سما ناقعا   فسقيت آخرهم بكأس الأول
لما وضعت على الفرزدق ميسمى   وضغا البعيث جدعت أنف الأخطل
أخزى الذى سمك السماء مجاشعا

وبنى بناءك فى الحضيض الأسفل
ولقد بنيت أخس بيت يبتنى   فهدمت بيتكم بمثلى يذبل
انى بنى لى فى المكارم أولى   ونفخت كيرك فى الزمان الأول
أعيتك مأثرة القيون مجاشع   فانظر لعلك تدعى من نهشل
وامدح سراة بنى فقيم انهم   قتلوا أباك وثأرهم لم يقتل
انى انصببت من السماء عليكم   حتى اختطفتك يا فرزدق من عل

أحـلامنا تزن الجبـال رزانة ... ويفوق جاهلنا فعـال الجهـل
فارجع الى حكمى قريش انهم ... أهل النبـوة والكتاب المنزل
ان الذى سمك السماء بنى لنا ... عزا علاك فمـا له من منقـل (٤٩)

وحين قال الأخطل :

حتى أصابت سـليما من عداوتنا ... احدى الدواهى التى تخشى وتنتظر
فأصبحت منهم سنجار خاليـة ... والمحلبيـات فالخـابور والسرر
كروا الى حـريتهم يعمـرونها ... كما تكر الى أوطـانها البقر (٥٠)

أجابه جرير بقوله :

موتوا من الغـيظ فى جزيرتكـم ... لن تقطعـوا بطن واد دونه مضر
انى نفيتك من نجـد فمـا لكم ... نجد ، ومالك من غور به حجر (٥١)

وحتى غير عمالقة النقائض من الشعراء الذين لهم نقائض فى العصر الأموى قد ألحوا على الفكرة وعصروها جيـدا ، واستعانوا بقوة الجدل والحجاج العقلى من أجل افحـام الخصـوم والانتصار عليهم • ومن ذلك قول ابن ميادة :

فجرنا ينابيع الكـلام وبحـره ... فأصبح فيـه ذو الرواية يسبح
وما الشعر الا شعر قيس وخندف ... وقول سـواهم كلفة وتمالح

فأجابه عقال بن هاشم :

لئن كان من قيس وخندف ألسن ... طوال وشعر سائر ليس يقـدح
لقد خرق الحى اليمـانون قبلهم ... بحور الكلام تستقى وهى تطفح (٥٢)

---

(٤٩) النقائض /٢١٢ ، ٢١٣ •
(٥٠) نقائض جرير والاخطل /١٥٠ •
(٥١) المرجع نفسه /١٧٣ •
(٥٢) الاغانى ١٠٨/٢ ، طبعة دار الكتب المصرية •

٩ – أسلوب الموازنة فى المعانى كان من سمات النقائض فى هذا العصر :

وهذا أمر طبيعى فى النقائض ، اذ كانت تقوم على نقض المعـــانى واثبات ضدها . بمعنى أن الشرف والمجد والرفعة .. وسائر المعـــانى التى هى مادة الفخر عند الشعراء ، كان الشاعر يثبتها لنفسه وقبيلته وينفى أضدادها عنهم ، فيأتى الشاعر الآخر ليبطلها عن سابقه ويثبتها لنفسه وقبيلته ، وهذا يستلزم الموازنة بين مجد القبائل وشرفها عـــلى طريقة المفاضلة ؛ ومن ذلك قول الفرزدق فى هجائه لجرير :

أتعـــدل أحســـابا لئامــا أدقــه ... بأحسابكم انى الى الله راجع(٥٣)

وقد أخذ الفرزدق هذه الموازنة من قول جرير فى هجائه للفرزدق :

أتعدل أحســـابا كراما حماتها ... بأحسابكم ، انى الى الله راجع (٥٤)

ومن ذلك أيضا قول جرير للفرزدق فى الموازنة التى عقدها بين موقفيهما من قيس وتغلب .

فخرت بقيس وافتخرت بتغلب ... فســـوف ترى أى الفريقين أربح

فأما النصارى العابدون صليبهم ... فخابوا وأما المسلمون فأفلحوا(٥٥)

ويقول للأخطل :

هلا طعنت الخيـــل يوم لقيتهـــا ... طعن الفوارس من بنى عقفــــان

فدع الحكومة لستم من أهلها ... ان الحـــكومة فى بنى شـــيبان (٥٦)

الى غـــير ذلك من الموازنات الكثـــيرة التى اعتمد عليها شـــعراء النقائض اعتمادا كبيرا ، فى اثبات حميد الخصال له ولقبيلته ، ونفيها

(٥٣،٥٤) نقائض جرير والفرزدق /٦٩٢ ، ٧٠١ .

(٥٥) المرجع السابق ، ٦٠٦ .

(٥٦) نقائض جرير والاخطل /٢٠٨ .

من خصمه وقبيلته ، أو التعريض بهم ، وأنهم لم يبلغوا فيها مبلغ قومه وأجداده •

١٠ — أخذ شعراء النقائض فى العصر الأموى من بعضهم البعض ، بعض المعانى والعبارات ، بل والأبيات « اما استحسانا لها ، واما لملاءمتها لمقتضى الحال،واما لسيرورتها ودورانها على الألسن وشدة تأثيرها فى الأذهان ، فجاءت خلال الكلام عرضا أو عمدا »(٥٧) •

وقد ظهر ذلك جليا فى كثير من قصائدهم وأبيات شعرهم فى نقائضهم • ومن ذلك قول الفرزدق معتزا بالخلافة والنبوة فيهم :

انا واخوتنا اذا ما ضمنا — بالأخشبين منازل التجمير
عرف القبائل أننا أربابها — وأحقها بمناسك التكبير
جعل الخلافة والنبوة ربنا — فينا وحرمة بيته المعمور(٥٨)

وقول جرير للأخطل :

ان الذى حرم المكارم تغلبا — جعل النبوة والخلافة فينا
مضر أبى وأبو الملوك فهل لكم — يا خزر تغلب من كأبينا
هذا ابن عمى فى دمشق خليفة — لو شئت ساقكم الى قطينا(٥٩)

وحين قال الأخطل فى كليب بن يربوع :

الآكلون خبيث الزاد وحدهم — والسائلون بظهر الغيب ما الخبر(٦٠)

فأجابه جرير فى بنى تغلب :

والآكلون خبيث الزاد وحدهم — والنازلون اذا وارهم الخمر(٦١)

(٥٧) تاريخ النقائض /٤٢٩ ، ٤٣١ •
(٥٨) نقائض جرير الفرزدق /٩١٠ •
(٥٩) الاغانى ٨/٦٠ •
(٦٠،٦١) نقائض جرير والاخطل /١٦٤ ، ١٧٣ •

وحين قال االفــرزدق :

ان الذى سمك السماء بنا لنا　　بيتا دعائمه أعز وأطول(٦٢)

أجابه جرير بقصيدته التى قال فيها :

ان الذى سمك الســماء بنا لنا　　عزا علاك فما له من منقل(٦٣)

وهكذا كرر شعراء النقــائض ألفاظ ومعانى بعضــهم البعض فى أبيات شعرهم وفى أجزاء الأبيات ، وهــذا الأخذ خاضع فى مخيلــة الكتاب والمؤلفــين الى مجموعة احتمــالات ذكرها الدكتور الشــايب ، وعرضنا لها آنفا .

هذا وقــد تحدث الدكتور الشــايب عن قيمه النقــائض فى العصر الأموى وأنها كانت لها منزلة رفيعة ومكانة ممتازة فى هذا العصر عن عصرى الجاهلية وصدر الاسلام ، وذلك لأمور كثيرة منها :

١ ـ ما كان لهذه النقــاض من صلة بالســياسة العامة للدولــة الأمــوية .

٢ ـ وما أحيت من عصبيات قبلية اشتد أوراها ، فأعقب أيامــا ومنافسات وأحداثا خطيرة استغلها الأمويون .

٣ ـ وما أثارت حولها من نشاط نقدى قســم العلماء والأدباء واللغويين شيعا ، وجعل من شعراء النقاض أنفســهم نقادا بعضــهم لبعض (٦٤) .

وهكذا تحول الهجاء فى العصر الأموى الى فن واسع من فنــون الشعر والأدب له وضعه ومكانته فى الأدب والسياسة الأموية ، وقــد

(٦٢،٦٣) نقائض جرير والفرزدق .

(٦٤) راجع : تاريخ النقائض فى الشعر العربى /٤٣٢ ، ٤٣٣ .

اجتذب إليه الأعداد الهائلة من الناس فى هذا العصر وبخاصة فى العراق حيث يقيم عمالقة النقائض « جرير والأخطل والفرزدق » وحيث توجد الأسواق الأدبية الشهيرة فى هذا الوقت • وأشهرها « المربد » فى البصرة و « الكناسة » فى الكوفة •

وبعد أن كانت النقائض لا توجد الا عندما يشتد الخطب ويشتعل أوار الثورة بين القبائل فى الجاهلية ، أو بين المسلمين والمشركين فى عصر صدر الاسلام ، وتكون حربا شأنها شأن السيوف على الرقاب تماما ، وتؤخذ بعين الجد والأهمية والاعتبار ، اذ بها فى العصر الأموى تزداد فى حجمها وتكبر فى كمها وتتغير فى كيفها عن ذى قبل وتصبح لهوا وترفا وتسلية ، ومقاربة فى أزمانها ، والنفوس متهيئة لها باستمرار ، وفى كل يوم تزود الناس بأخبار جديدة ، فكانت بمثابة الصحف اليومية التى ينتظرها الناس بشغف شديد ليلهوا ويضحكوا ، ويقضوا أوقات فراغهم الكثيرة ، إذ كانت الدولة بما أغدقته عليهم من أموال الفتوحات وغنائم الحروب والجباية والخراج، وغيرها من روافد الدولة ، قد أغنتهم مئونة الكد والتعب من أجل الحصول على الرزق ، فتوفر لهم من الوقت ما يحتاجون الى انفاقه فى أى شىء • ولما كانت الدولة لها رغبة ملحة فى اشغال الناس وصرفهم عن الخلافة وأمور الحكم • فقد قضت سياستها بتحريش القبائل وزرع الضغائن والأحقاد فى نفوس شعرائها ، وتحريض الناس على السماع واللهو والنقد أيضا • وتفضيل هذا على ذاك وقد كان فى هذا النقد نهوض بفن النقائض وارتقاء له • لأن كل واحد من شعراء النقائض يحاول جهد الطاقة أن يبذ خصمه ويعلو عليه ، ويكسب تأييد المشجعين الذين كانوا يحتشدون فى أسواق الأدب للتسلية والاستمتاع • ولذلك كان هذا الفن من أبرز الفنون الأدبية فى العصر الأموى وأبرعها وقد خدم

السياسة الأموية خدمة جليلة حين أبعد النـــاس عنها • وعن التفكــير فى رجـالها •

واذا كانت بذور هذا الفن قديمة منذ العصر الجـاهلى ، واشـــتد ساعدها مع تغيير مسارها فى العصر الاسلامى الأول ، الا أن النقائض فى العصر الأموى أصبحت احترافا بين عـــدد من الشعراء وأصـــبحت للهو والتسلية ولخدمة السياسة الأموية ، وتغيرت فى أساوبها وصورتها عن ذى قبل • وهذا هو الجديد الذى تغيرت به سمة النقائض ، وقيل انها فن جديد فى العصر الأموى •

يقول الدكتور شوقى ضـــيف فى ذلك : « وأظن أننا لا نغلو اذا قلنا : ان الهجاء تحول تحت تأثير هذا التطور فى حياة العرب الى فن جديد وهو فن لا نشك فى أن له بذورا قديمة ، ولكنه أصبح الآن شيئا آخر ، أما من حيث الصورة فقد أخذ يختلف وجوها كثيرة من الاختلاف، اذ أصبح ينشد يوميا ، وأصبح الشعراء يحترفونه احترافا »(٦٥) •

ولكن هل انتهت النقائض بنهاية الدولة الأمويـــة ، أم اســـتمرت مسيرتها بعد ذلك فى العصور الأدبية اللاحقة •

لم يفقد التاريخ الأدبى الأمل فى عودتها مـــرة ثانية ، الا أنهـــا لا تحظى بما حظيت به أيام الدولة الأموية من العناية والاهتمـــام فى جميع الأوساط ، وذلك لأنه من المستبعد أن تتوفر لها الظروف والأسباب التى توفرت لها فى العصر الأمـــوى ، ويعطى الدكتور الشـــايب بعض الاحتمالات لعدم اســـتمرار النقائض بعد جـــرير وصاحبيه الفـــرزدق والأخطل فيقول : « قد يعود ذلك الى أن فحولة هؤلاء أيأست غيرهم

---

(٦٥) التطور والتجديد ص ١٦٤ ، ط ٥ ، دار المعارف •

من الشعراء أن يقودوا سيارتهم فسكتوا بعد موتهم ، كما كانوا متوارين فى حياتهم • وقد يعود الى أن السياسة لم تعد فى حاجة الى استغلال هذا الفن الذى مله الناس ، أو كادوا ، فلم يأخذ به الشعراء أنفسهم فمات •

وربما كان السبب أن هذه العصبيات الفرعية بين قيس وتغلب وتميم ، وفى داخل تميم ، قد فترت ، ولم تجد من يورثها بعد أن ماتت صحفها ، فلم يتقدم أحد ليخلف هؤلاء الفحول فى هذا الميدان •

ولعل هذا الفن كان بغيضا الى الناس لسوء آثاره وما لابسه هى هذات فاحشة زهدت فيه الشعراء فانصرفوا عنه طائعين •

وقد يكون لعفاء المربد ، وزوال مجده ، وعدم العناية بالمفاخرات القبلية أثر فى ضعف النقائض وموتها •

على أن الجيل الاسلامى من الشعراء أخذ ينقرض ، ويتقدم الى المسرح جيل محدث متحضر فيه طائفة من الموالى لم يرقهم هذا الفن البدوى الأعرابى الذى مضى زمنه فنبذته أذواقهم وتقدموا هم بطابعهم الحضرى البغدادى ، ولاسيما أن الموالى لم يعرفوا هذه النعرة العربية القبلية فأنكروها وأنكروا كل عربى ، وصاح أبو نواس فى وجه التقاليد القديمة • ولعل لكل تلك الأسباب أو لغيرها أثرا فى سكون هذا الفن العتيد »(٦٦) اذا فهذا الغرض الشعرى قد أخذ حظه فى العصر الأموى من الشهرة والمجد وتفوق على أغراض كثيرة ، وخدم السياسة الأموية باشغال الناس وصرفهم به عن النظر فى الأمور وتتبع شئون الحكم ، حتى أصبح حرفة ومهنة تفوق فيها عدد من الشعراء فى هذا العصر أبرزهم جرير والفرزدق والأخطل •

---

(٦٦) تاريخ النقائض فى الشعر العربى /٤٦٨ ، ٤٦٩ •

٤ ـ الغزل :

وهو من الموضوعات الكبيرة التى اتسعت وشاعت فى العصر الأموى ، ووجدت له بيئتها وأسبابها كما كبر حجم رواده وجمهورها ، وشجع الحزب الحاكم وسياسته على وجوده ، كأحد الموضوعات الهامة التى فى اشتغال الناس بها ولهوهم بمظاهرها استمرار للحكم الأموى ونمو لفروعه ، وهذه الموضوعات التى شجع عليها الحزب الحاكم هى الغزل والنقائض والمديح • ولما كان أكبر تجمع سكانى آنذاك فى بلاد الحجاز وفى بلاد العراق ، والشام ، وكانت أكبر التيارات المناهضة للأمويين لا تخرج عن هذه المواطن الثلاثة ، فقد ركز الأمويون عليها تركيزا شديدا ، اذ جعلوا مقر حكمهم فى دمشق من بلاد الشام ، وتوافد عليهم الشعراء فيها لمديحهم وأخذ عطاياهم ، وشجعوا النقائض فى العراق ، والغزل وما يتبعه من الغناء واللهو والمجون فى بلاد الحجاز • وحتى تثمر مخططاتهم وتؤتى أكلها أغدقوا الأموال الطائلة على الناس وبخاصة من لهم تأثيرات ثورية قوية كأبناء الصحابة فى مكة والمدينة ، شراء لسكوتهم وكسبا لتأييدهم ، فعاشوا حياة ناعمة رغدة ، وكفاهم الأمويون مئونة كسب العيش عن طريق العمل ، فتوفر لهم الفراغ الكبير مع المال والترف ، وكان لابد من ملء الفراغ بشىء ، وكان هذا الشىء فى بلاد الحجاز هو الغزل والهيام • الذى صادف نفسا رقيقة ولعت به ، وفتنت بعذوبة معانيه ورقة ألفاظه وجمال موسيقاه ، ووجد له شعراء كثيرون ورواة لدرجة أن طغى الاهتمام به فى بلاد الحجاز خاصة على غيره من الأغراض الأخرى التى لم تشتهر فى هذه البلاد شهرة الغزل ، لدرجة أن كل امرأة فى هذه البلاد حتى المحجبات فى خدورهن تمنت الواحدة منهن لو قيل فيها شعر تحس فيه بجمالها ويتحدث الناس من خلاله عن رقتها وأنوثتها وعذوبة حديثها ،

وما تستحسنه المرأة من سيرتها • ولدرجة أن انشغل النـــاس به حتى العلماء • وقد سبق لنا الوقوف على القصة التى رواها المبرد فى كتابه « الكامل » حول ابن عباس واحتفائه بالغزل ، وقيامه من مجلس العلم للقاء ابن أبى ربيعة ، وقد ضرب الناس اليه أكباد الابل يســألونه عن الحلال والحرام ، ولكنه حين يأتى ابن أبى ربيعة المسجد الحرام يترك ابن عباس الناس ليجلس اليه ويستنشده الشــعر ، فينشده رائيتـــه المشـــهورة •

أمن آل نعم أنت غاد فمبكر   غداة غد أم رائح فمهجر ؟

حتى أتى على آخـــرها • وقد حفظها عـــلى الفور ابن عبـــاس ، وأســمعها نافع بن الأزرق وغـــيره من رجال الحلقـــة الذين حضروا لاستماع العلم منه •

وهذا دليل واضح على اتساع موجة الغزل فى بلاد الحجاز ، تلك الموجة التى انشغل الناس جميعا بها عـــالمهم ومتعلمهم ، القـــوى فى ايمـــانه والضعيف •

وقد استتبع الغزل المعبر عن الحب والمشاعر الرقيقة الهائمة،الغناء والموسيقا ، وكذا اللهو والرقص ، وانتشرت المجالس الكثيرة التى تجمع شعراء الغزل مع المغنين والراقصات واللاهين الماجنين ، وطار الركبان بما سمعوا من الشعراء والمغنـــين لشعرهم الرقيـــق • وكل ذلك كان له دوره الكبير فى ازدهار الغزل وتنوعه فى بلاد الحجاز فى عصرنا هـــذا الذى نقـــوم بدراسة الأدب فيه •

وقد تنوع الغزل الى ثلاثة أنواع :

١ ــ الغزل التقليدى الذى يأتى فى مقدمات القصائد :

وهذا النوع كان متوارثا عن الجاهليين وشعراء صدر الاسلام ، اذ كانت أغلب القصــائد ــ ان لم يكن كلهــا ــ فى العصر الجاهلى ، وكثير منها فى عصر صدر الاسلام تبــدأ بمقدمة غزلية ، ربمــا يكون الشاعر صادقا فى حبه الذى يتحدث عنه حين يصف المرأة متغزلا ، وربما لا يكون • المهم أنهم ألفوا استهلال القصائد بالغزل تنشــيطا لنفس السامع وجذبا لعاطفته وتنبيها لخــاطره • حتى اذا أقبل على الشــاعر المنشد بكل احساساته انتقل من الغزل والحديث عن المرأة الى غرضه الأصلى الذى نظم قصيدته فيه • أو الى غرض آخر موصل اليه وجزء منه ، كما كانت قصائد المديح فى الجاهلية ، يبــدؤها الشاعر بالغــزل ثم ينتقل منه الى وصف الرحلة فى الصحراء وما يتحمله هو وما تتحمله ناقته من المشاق فى سبيل الوصول الى الممدوح ، ثم ينتقل الى المديح بعد أن يتخلص تخلصا لطيفا من الغــزل الى الوصف ، ومن الوصف الى المديح • وكأنهم أرادوا بالاسهاب فى وصف الرحلة والمشاق التى يتكبدها الشاعر وناقته فيها ، أن يعلوا من قدر الممدوح • وأن يرفعوا من شأنه ، فهو مرمى نظر الشعراء ، وهو ملجؤهم وملاذهم ، واليــه يقصدون من مواطنهم البعيدة ، وهو حينما يسمع منهم هذه المعــانى مترجمة شعرا يزيد فى عطاياهم ويرفع هو الآخر من قدرهم ومكانتهم •

هذا النوع من الغزل استهل به شعراء العصر الأموى قصــائدهم لنفس الهدف الذى كان لدى شعراء الجــاهلية وصدر الاسلام وهــو تنبيه الخواطر وجذب المشاعر ، وصرف أذن السامع وقلبه الى الشاعر، ثم بعد ذلك يلقى اليه الشاعر بما يريد من أغراضه الأساسية •

ومن القصائد التى استهلها الشــعراء فى عصر بنى أمية بالغــزل قصيدة جرير التى يقول فى مطلعها :

ألا حى الديـار بسـعد انى ... أحب لحب فاطمة الديـارا
اذا ما حـل أهلك ياسليمى ... بدارة صلصل شحطوا المزارا
أراد الظـاعنون ليحـزنونى ... فهاجوا صدع قلبى فاستطارا

ويقـول عدى بن الرقاع متغزلا فى مقدمة القصيدة التى مدح بها الوليـد :

عرف الديار توهما فاعتـادها ... من بعدما شمل البلى أبلادها
ولرب واضحة العوارض طفلة ... كالريم قد ضربت بها أوتادهـا
انى اذا ما لم تصـلنى خلتى ... وتباعدت منى اغتفرت بعادها

ويقول ابن الدمينة يصف حنينه الشديد الى نجد موطن الحبيبة

ألا يا صبا نجد متى هجت من نجد .. ؟
لقـد زادنى مسراك وجدا على وجـد
أأن هتفت ورقـاء فى رونق الضـحى
عـلى فنن غض النبـات من الرنـد
بكيت كما يبـكى الوليـد ولم تـكن
جزوعا وأبديت الذى لم تكن تبـدى
وقـد زعمـوا أن المحب اذا دنـا
يمـل ، وان النأى يشفى من الوجـد
بـكل تداوينـا فلم يشف ما بنـا
على أن قرب الدار خـير من البعـد
عـلى أن قـرب الدار ليس بنـافع
اذا كان مـن تهـواه ليس بـذى ود

ويقـول أبو صـخر الهذلى :

أما والذى أبكى واضحك والذى ... أمات وأحيـا والذى أمره الأمر
لقد تركتنى أحسد الوحش أن أرى ... أليفـين منها لا يروعهما الذعـر
فيا حبهـا زدنى جوى كل ليلة ... ويا سلوة الأيام موعدك الحشر
عجبت لسعى الدهـر بينى وبينها ... فلما انقضى ما بيننا سكن الدهر

ويقـول جرير أيضـا :

بان الخليط ولو طوعت ما بانـا ... وقطعوا من حبال الوصل أقرانـا
هى المنـازل اذ لا نبتغى بدلا ... بالدار دارا ولا الجيران جيرانا
ان العيون التى فى طرفها حـور ... قتلننـا ثم لا يحيين قتلانـا
يصرعن ذا اللب حتى لاحـراك به ... وهن أضعف خلق الله انسـانا
يا حبذا جبل الريان من جبـل ... وحبذا سـاكن الريان من كانا
وحبذا نفحـات من يمانيـة ... تأتيك من قبـل الريان أحيـانا

وغير هذه النماذج كثير من الغزل الذى استهل به الشـعراء فى العصر الأموى قصائدهم على النمط المتبع فى كثير من القصائد الجاهلية والاسلامية • والحديث عن المرأة فى هذه الافتتاحيات التقليدية ، كان الشاعر فيه يتحدث عنها واصفا الحنين اليها • وما يكون له معهـا من وصل وصد ، ورجاء ويأس ، ويصف الهوى المبرح ، والحب المستبد والصبابة المضنية ، وهو فى حديثه عنها اما أن تكون موجودة وقريبـة منه فى الموطن ، واما أن تكون غائبة عنه ببعد الموطن فلم يعد ليراها ، أو بالزواج من غيره ، أو بالموت ، وهو فى كل هذه الأمور يتحدث عن أطلالها الدارسـة وآثارهـا البالية متفجعـا حزينا على محبوبته التى يتذكرهـا ويحن الى أيامهـا الخوالى ، متذكرا ما كان بينه وبينها من لقاءات وهيام ، وما كان من أحـاديث دارت بينه وبينهـا • وكل ذلك والشاعر واقف على أطلال محبوبته •

وهذا النوع من الغزل وإن كان تقليدا شائعا بين الشـــعراء فى استهلال قصائدهم به ، الا أنه كان يجمع فى ثنـــاياه صورا وأفـــكارا ومعانى من كلا النوعين الآخرين من أنواع الغزل وهما الغزل الاباحى القصصى،والغزل العذرى•بمعنى أن الشعراء كان منهم من يصف مفاتن المرأة وأشياء دقيقة فى جسمها ، ومنهم من يتوقف عند اللقـــاء العفيف الطاهر ويصف السهد المضنى والصبابة المبرحة ، وما يدور بينـــه وبين محبـــوبته من حـــديث ، وما له فيها الا الحـــديث والنظـــر كما يقـــول جميـــل بثينة :

لا ، والذى تســـجد الجباه له   مالى بمـــا دون ثوبهـــا خـــبر
ولا بفيهــــا ولا هـــممت به   ما كان الا الحديث والنظـــر

ومنهم من يقف بقلبه عنـــد امرأة واحدة يهيم فيها حبا وصـــبابة لا يشرك معها غيرها فى قلبه ، ومنهم من يشبب بأكثر من واحدة،ويتضح ذلك فى افتتاحيات قصائده حيث تتعدد المحبوبات بتعدد القصائد،وكان أغلبه لمجرد التقليد وليس عن حب حقيقى •

٢ ــ الغزل الاباحى القصصى :

وهذا النوع من الغزل يجنح الى القصـــة والحـــكاية ، وهو وان كانت جذوره قديمة فى العصر الجاهلى حيث غزل امرىء القيس المتهتك الذى كان هو الآخر يميل الى الاسلوب القصصى • الا أن هذا النوع كان فى العصر الأموى أوضح وأظهر ، وقـــد اتخذ أثوابا جـــديدة من الأسلوب القصصى •

ولم يكن الشاعر فى هذا النـــوع من الغزل يتعـــلق قلبه بامـــرأة واحـــدة ولكنه كان أشـــبه شىء بالنحلة التى تتنقـــل بين الأزهـــار فى

البساتين ، تقطف من هذه وتمتص الرحيق من تلك ، وتنتقل الى زهـرة ثالثة ورابعة • وهكذا كان الشاعر لا تشبع نفسه ولا يقنع حسه •

والشاعر فى غزله،لا يتحدث عن اللقاء الطاهر وعن السهد والضنى تفكيرا فى محبوبته وانما يتحدث غالبا بأسلوب قصصى يحكى فيه ما دار بينه وبين محبوبته أو محباته ، دون تحرج ، وقد استوفى عناصر القصة وأطرافها فى حكاياته ، لا ، كما كان الحال فى العصر الجاهلى ، يقول فى ذلك د/ خفاجى « وقد شاع فى هذا النوع من الغزل الفن القصصى•وهو وان اتكأ على دعامة جاهليـــة من شـــعر امرىء القيس ، فقد اســـتكمل عناصر القصة ، وحبك أطرافها ، واستوفى شخوصها ، ورسم لها الألوان والظلال ، التى تستثير المشاعر ، وتهيج العواطف • وزعيم هذه الطائفة عمر بن أبى ربيعة »(٦٧) وديوان عمر بن أبى ربيعة « ٢٣ — ٩٣هـ » كله فى الغزل الا قليلا منه • ومن أشهر قصائده التى اتجه فيها اتجاها اباحيـــا قصصيا ، قصـــيدتاه العينية وقصـــيدته الرائيـــة ، وفيهمـــا يحكى مغامراته مع بعض النسوة وما دار من حوار بينه وبينهن،وما دار بين بعضهن حوله • فيقول فى قصيدته العينية :

ألم تسأل الأطــلال والمتربعـــا ببطن حليـــات دوارس بلقعا(٦٨)
الى السفح من وادى المغمس بدلت معالمـــه وبلا ونكباء زعـــزعا(٦٩)

---

(٦٧) دراسات فى تاريخ الادب العربى /٨١ •

(٦٨) الاطلال / جمع طلل وهو ما بقى من آثار الديار • والمتربع المنزل فى وقت الربيع ، وحليات : اسم موضـــع • دوارس • جمـــع دارس ، وهو الذى تغيرت معالمه وعفا عليه الزمن ، بلقع قفر •

(٦٩) المغمس • اسم موضع : الوبل المطر الشـــديد • النكبـــاء المنحرفة عن مهبها • الزعزع • الشديد •

فيبخلن أو يخبرن بالعلـم بعدما ... فكأن فؤادا كان قدما موجعا(٧٠)

بهند أو أتراب لهنـد اذ الهـوى ... جميع واذ لم نخش أن يتصدعا(٧١)

واذ نحـن مثـل المـاء كان مـزاجه ... كما صفق الساقى الرحيق المشعشعا(٧٢)

واذ لا نطيع العاذلـين ولا نرى ... لواش لدينا يطلب الصرم مطمعا(٧٣)

تنوعتن حتى عاود القلب سـقمه ... وحتى تذكرت الحديث المودعا(٧٤)

فقلت لمطـريهن بالحسن انمـا ... ضررت فهل تسطيع نفعا فتنفعا

وأشربت فاستشرى وان كان قـد صـحا ... فـؤاد بأمثـال المهـا كان موزعـا(٧٥)

وهيجـت قلبـا كان قـد ودع الصـبا ... وأشـياعه فاشـفع عسى أن تشـفعا(٧٦)

فقـال تعـالى انظـر وكيـف بـى ... أخـاف مقـاما أن يشـيع فيشـنعا(٧٧)

---

(٧٠) نكا الجرح . انتزع قشره قبل تمام برئه .

(٧١) جميع . مجتمع .

(٧٢) صفق الشراب . قلبه ونقله من اناء الى آخر ليرق ويصفو . والرحيق . الخالص من الخمر ، والمشعشع . الممزوج بالماء .

(٧٣) الواشى . النمام الذى يوقع بين الناس العداوة ، الصرم . الهجر والقطيعة .

(٧٤) تنوعتن . وصفن . الحديث المودع . الذى جـرى عنـد الـوداع .

(٧٥) أشربت : اغربت . واستشرى الفؤاد : عظم وجده واشتد لهيبه والمها : جمع مهاة ، وهى البقرة الوحشية . موزعـا : مغرى مولعا .

(٧٦) ودع الصبا : ودع الشباب والفتوة . اشياع الصبا : نوازعه وملـذاته .

(٧٧) يشنع : يصبح ويفظع .

فقـال اكتفـل ثم التثـــم فأت باغيـا

فيسلم ولا تكـثر بـأن تتورعــا (٧٨)

فانى سـأخفى العـين عنـك فـلا ترى

مخافـة أن يفشـو الحـديث فيسـمعا

فأقبلت أهـوى مثـل ما قـال صـاحبى

لموعــده أزجى قعـودا موقعــا (٧٩)

فلمـا تواقفنــا وسـلمت أشـرقت

وجـوه زهاهـا الحسـن أن تتقنعـا (٨٠)

تبالـهن بالعرفــان لمـا عرفـننى

وقلـن امـرؤ بـاغ أكل وأوضـعا (٨١)

وقـربن أسـباب الصـبا لمتيـم

يقيس ذراعـا كلمـا قسـن أصـبعا (٨٢)

---

(٧٨) اكتفل البعير وتكفله اذا أخذ كساء فعقد طرفيه ، ثم ألقى مقدمه على كاهل البعير ، ومؤخره على عجزه ، وركب بين العقد والسنام وهذا الكساء يسمى : الكفل ، والتثم : شد اللثام على وجهه لتستر به عن عيون الناس • ولا تكثر بأن تتورعا : ولا تتهيب وكن جريئا •

(٧٩) أهوى : يقال : هوت العقاب على الصيد اذا انقضت عليه وهوى الرجل اذا أصعد فى سيره وجد فيه • وهذا المعنى الاخير هو المناسب هنا • وأزجى القعود : أسوقه وأدفعه • والبعير الموقع : الذى تنتشر فيه آثار الدبر لكثرة أسفاره •

(٨٠) زهاها : أخذها الزهو والاعجاب بحسنها وجمالها • وتتقنع : تلبس القناع • والمعنى : أن الزهو بجمالهن وحسن وجوههن : منعهن من التقنع والتستر •

(٨١) تبالهن : تصنعن البلاهة والغفلة عن معرفتى • أكل الرجل بعيره أعياه وأجهده ، وأوضعه : حمله على السير السريع •

(٨٢) يقصد : أنهن تبادلن معه الغرام • وكلما أقبلن قليلا • أقبل هو عليهن كثيرا •

فلمـــا تنازعنـــا الأحــاديث قلــن لى
أخفــت علينــا أن نغـــر ونخدعــا (٨٣)

فبالأمــس أرســـلنا بـــذلك خالـــدا
اليــك وبينــا لــه الشــأن أجمعــا (٨٤)

فما جئتنـــا الا عـــلى وفـــق موعـــد
عـلى ملامنــا خرجنـــا لــه معــا (٨٥)

رأينــا خــلاء مــن عيــون ومجلســا
ورميــث الربــا ســهل المحلــة ممرعا (٨٦)

وقلــن : كريــم نــال وصـــل كرائـــم
فحـــق لــه فى اليـــوم أن يتمتعـــا

ولما كانت عادته الاحساس بأنه مطلوب ومعشوق من النساء وأنهن يتحدثن اليه ويقبلن عليه ويحاورنه ، ويتحاورن فى شأنه اذا به يحكى هذا فى أكثر من قصيدة من قصائده الغزلية ، ولذلك ارتدت قصائده الغزليه ثوب القصه ، واشتهر غزله بالأسلوب القصصى • وهذا واضح فى قصيدته « العينية » التى بين أيدينا ، والتى بدأهـا بالحديث عن الأطلال ، وختمها بحديث النساء له فى دلال وابتسام حين اجتمعن به على موعد حددنه له مع رسوله خالد الخريت الذى كان يرسله الى النساء ، وهن اللائى اخترن مكانا خاليا بعيدا عن عيون الناس فوق ربوة

(٨٣) تنازعنا : تبادلنا •
(٨٤) خالد هنا : هو خالد الخريت ، رسول عمر الى النسوة •
(٨٥) الملا : الجماعة من الناس • وعلى وفق موعد : على اتفاق فيما بيننــا على الموعد •
(٨٦) الرمث : بكسر الراء وسكون الميم: نبات ترعاه الابل وتقبل عليه ، ورميث الربا : رباه مكسوة بالنبات • وممرع : خصب كثيــر الـــكلأ •

منبتة سهلة خصبة ، وأردن منه الحديث اليهن ففتحن له باب الكلام بوصفهن له بالكرم ونيله وصل الكرائم ، وحق له بأن يتمتع ، ولا ندرى أى متعة تكون ؟

وقلن : كريم نال وصل كرائم   فحق له فى اليوم أن يتمتعا

أما رأيته التى بدأها بقوله :

أمن آل نعم أنت غاد فمبكر   غداة غد أم رائح فمهجر ؟

فهى من أشهر قصائده وأكثرها ذيوعا وتداولا بين المؤلفين والمؤرخين للأدب العربى وبخاصة فى العصر الأموى • واذا كان هو قد اشتهر فى عصره بغزله فقد كانت شهرته برائيته هذه أكثر ، فارتقى بها الى أن كان زعيم الغزليين ورئيسا لهذه المدرسة بلا منازع • الدرجة أن جريرا وهو من كبار الشعراء حين سمع هذه القصيدة سجل اعترافه بشاعرية عمر بن أبى ربيعة فقال : « مازال يهذى هذا القرشى حتى قال الشعر » (٨٧) •

وذلك بعد أن وقف على طريقة عمر فى الغزل ، ووصفه أحوال النساء فى منازلهن وتزاورهن وحوارهن فى الحب والغرام ووصف غيرتهن ونفسياتهن وحديثهن ، وأسلوبهن فى الكلام ، وطريقتهن ، وما اعتدن قوله لبعضهن ، بأسلوب قصصى رقيق وكلمات عذبة ومعان رائعة جذابة •

ولما كان الدين مازال غضا طريا فى قلوب الشعراء المسلمين الذين كانوا قريبى عهد بالنبوة والرسالة وتعاليم الاسلام وآدابه • فقد

---

(٨٧) الوسيط فى الادب العربى وتاريخه /١٦٦ ، ط ٦ مطبعة المعارف بمصر •

أحجموا عن التشبيب بالنساء ، ووصف مفاتنهن وهتك حجابهن ، حتى اذا كان عمر بن أبى ربيعة وكانت جرأته فى وصفهن والحوار اليهن بصورة أحبتها النساء وولع بها المغنون ، كان ذلك مدعاة لاعجاب الشعراء بهذه الطريقة ، وسلوكهم اياها فى شعرهم •

يقول الشيخان : أحمد الاسكندرى ، ومصطفى عنانى عن شعر ابن أبى ربيعة : « كانت العرب تقر لقريش بالتقدم عليها فى كل شىء الا فى الشعر حتى كان عمر بن أبى ربيعة فأقرت لها الشعراء به أيضا ، وكان أكثر الشعراء الاسلاميين يحجمون عن التشبيب بالنساء امتثالا لأمر الدين ومحافظة على الآداب العربية الاسلامية ، وكان أكثر تشبيبهم فى بكاء الأطلال ومنازل الأحباب ، فلما ظهر عمر سلك فى الغزل طريقا لم يسلكوه ، فوصف أحوال النساء فى منازلهن ، وتزاورهن ومحادثتهن ومداعبة بعضهن لبعض وتلاومهن وما يعتدن قوله من الكلام والعبارات فى أسلوب يغلب عليه القصص ، وحكاية ما شاهده فى شعر رقيق ، ولفظ رشيق ، ومعنى أنيق ، وبهر الشعراء بهذه الطريقة حتى قال فيه جرير وهو من شعراء الغزل : « هذا والله الذى أرادته الشعراء فأخطأته وتعللت بوصف الديار ، وكذلك قال الفرزدق • ولسهولة شعر عمر وقرب فهمه من جميع الطبقات وشدة تأثيره فى قلوب الخلعاء وأهل اللهو أولع به المغنون والمغنيات من القيان والموالى انشادا وتلحينا ، ولذلك قال فيه بعض متورعى الأنصار : ما عصى الله بشىء كما عصى بشعر ابن أبى ربيعة » (٨٨) •

بهذا المنهج الشعرى استطاع عمر أن يشق الطريق الى قلوب النساء فتعلقن به أيما تعلق وأحست النساء بالحاجة الى شعره فيهن ،

---

(٨٨) المرجع السابق /١٦٧ •

ولم تكن هناك من امرأة مكية ـــ أو ان شئت قل : حجازية ـــ الا وتمنت أن يقول فيها شعرا ، حتى من كانت على درجة عاليـــة من الحجـــاب والتدين ، ويروى أنه « لما مات عمر بن أبى ربيعة حزنت عليه نســـاء مكة ، وكانت احداهن بالشام ، فبكت وجعلت تقول : من لأباطح مكة ، ومن يمدح نساءها ويصف محاسنهن ؟ وعزاها بعضهم فقال : ان فتى من ولد عثمان بن عفان قد نشأ على طريقته ، وأنشدها بعض كلامه ، فتسلت وقالت : هذا أجل عوض ، وأفضل خلف ، فالحمـــد لله الذى خلف على حرمه وأمته مثل هذا » (٨٩) .

فالذى تحدثت به المرأة عن ابن أبى ربيعة يعطينا صورة عن وقعه فى قلوب نساء مكة فى حياته ، فقد أحببنه وغمزنه وأرسلن له الرســـل وسرن خلفه يتعقبنه ، وهو يتدلل عليهن من كثرتهن ، واحتفائهن به ، وحق له ذلك فقد كان شابا مترفا مدللا وسيما يملك من مظاهر الجمال مالا يتوفر لغيره من شباب مكة وفوق ذلك كله كان شاعرا لا كغيره من الشعراء . ابتكر طريقة فى الشعر لفتت اليه أنظار الشـــعراء العـــرب وجذبت اليه قلوب النساء ، من كانت على درجة عالية من التدين ، أو على درجة ضعيفة منه ، لدرجـــة أن اعترفت العـــرب لمكة بالتفوق فى الشعر بسبب شعر ابن أبى ربيعة ، رأثنى عليه جرير وعلى طريقتـــه خيرا حين قال : « هذا الذى أرادته العرب فأخطأته » .

وهذا كله جعل عمر يسلك سبيل النساء فى طبعهن ودلالهن ، ولذلك رشح العقاد سبقه فى صناعة الشعر الى جانب أنثوى فى طبعه فيقـــول عنه : « وربما رشحه للسبق فى هذه الصناعة جانب أنثوى فى طبعـــه

---

(٨٩) شـــاعر الغزل /٢٢ للأســـتاذ العقـــاد ، طبعة دار المعـــارف ، ١٩٦٥ .

يظهر القارىء من أبياته الكثيرة التى تنم على ولع بكلمات النساء واستمتاع بروايتها والابداء والاعادة فيها ، مما لا يستمرئه الرجل الصارم الرجولة • وأدل من ولعه بكلمات النساء على الجانب الأنثوى فى طبعه أنه كان يشبههن فى تدليل نفسه واظهار التمنع لطالباته كما يبدو من قوله :

قالت ثريا لأتراب لها قطف (٩٠) فمن نحيى أبا الخطاب عن كثب
فطرن حدا لما قالت وشايعها مثل التماثيل قدموهن بالذهب

أو كما يبدو من قوله الذى عيره به كثير فى بعض الروايات وهو :

قومى تصدى له ليبصرنا ثم اغمزيه يا أخت فى خفر
قالت لها قد غمزته فأبى ثم اسبطرت تمشى على أثرى
قالت لها أختها تعاتبها لا تفسدن الطواف فى عمر

وصدق كثير حيث قال : « أتراك لو وصفت بهذا الشعر هرة أهلك ألم تكن قد قبحت ، وأسأت لها وقلت الهجر ؟ » (٩١) •

ويشتد عليه العقاد وهو يسرد من كلامه وسيرته ما يدلل به على جانب الأنوثة فى طبعه فيقول : « ولعل جانب الأنوثة فيه لا يظهر من شىء كما يظهر من تدليل اسمه بين تلقيب وكناية وتسمية كما يعهد فى أحاديث النساء ، فهو تارة أبو الخطاب ، وتارة المغيرى ، وتارة عمر الذى لا يخفى كما لا يخفى القمر ، وأشباه هذه الأنثويات التى يقارب بها المرأة فى المزاح ، ويسايرها فى الحديث •

ومن قبيل هذه الأنثويات أنه كان يقول : « لقد كنت وأنا شاب أعشق ولا أعشق ، فاليوم صرت الى مداراة النساء الى الممات ، ولقد

---

(٩٠) قطف : جمع قطوف ، وهى التى تمشى بخطوات ضيقة •
(٩١) شاعر الغزل ص ٤٠ ، ٤١ •

لقيتنى فتاتان مرة فقالت لى احداهما : ادن منى يا ابن أبى ربيعة أسر اليك شيئا ، فدنوت منها ودنت الأخرى فجعلت تعضنى ، فما شعرت بعض هذه من لذة سرار هذه » .

وهذا حديث من هو عاشق لنفسه قبل أن يكون معشوقا لغيره ، ففيه خليقة المرأة أن تشعر بجنسها مطلوبة ولا تشعر بجنسها طالبة ، وما من شاب يبلغ من العمر أن تعشقه المرأة ، الا قد بلغ من العمر أن يعشقها ما لم يمنعه مانع من عرف أو زهادة ، فان لم يكن هذا المانع ففى انتظاره أن يطلب معشوقا قبل أن يطلب عاشقا أنثوية لا ترضاها طبائع الفحول » (٦٢) .

ولا يختلف الدكتور شوقى ضيف عن العقاد فى هذا الرأى فهو يقول عنه : « فعمر هو المتبوع لا التابع . وهو المطلوب لا الطالب وهو المعشوق لا العاشق ، فالنساء يفتن به ، ويتصدين له ، وينتهزن كل فرصة لقائه ، ويشرن له باليد حينا وبالعين حينا ، ويغمزنه ضروبا مختلفة من الغمز ، وهو فى كل ذلك لا يعنى ، ولا يلتفت دلالا وتيها ، وأعجابا بنفسه وجماله ، وقد عرف معاصروه ذلك فيه ، ففى أخباره أنه أنشد ابن أبى عتيق قوله :

بينما ينعتننى أبصرننى ... دون قيد الميل يعدو بى الأغر
قالت الكبرى : أتعرفن الفتى ... قالت الوسطى : نعم هذا عمر
قالت الصغرى : وقد تيمتها ... قد عرفناه وهل يخفى القمر

فقال له ابن أبى عتيق : « أنت لم تنسب بها ، وانما نسبت بنفسك كان ينبغى أن تقول : قلت لها ، فقالت لى ، فوضعت خدى فوطئت عليه » ومعنى ذلك ، أن معاصرى ابن أبى ربيعة كانوا يعرفون فيه هذا

---

(٦٢) شاعر الغزل /٤١ ، ٤٢ .

الضعف العاطفى ، وأنه مشغول فى غزلـه لا بسـيدات عصره وانما بنفسه ، وكأنما حسنه وجماله هيأه لذلك ، فانقلب يتحدث عن نفسـه وعشق السيدات والفتيات له » (٩٣) . الى غير ذلك من الأقوال التى ركزت على الجانب الأنثوى والضعف العاطفى فى عمر ابن أبى ربيعة ، والأدلة على ذلك من شعره كثيرة ، ولكننـا نعقب على هذه الأقـوال فنقول : ان المؤهلات الحسية والمعنوية التى توفرت لابن أبى ربيعة ، والتى تحدثت عنها آنفا ، قد حببت فيه النساء وجعلتهن ينشغلن به ، ويتبارين فى الحظوة لديه حتى يكون لكل منهـن نصـيب من شـعره وحديثه العذب عن النساء ، ولما تكاثرن عليه حدث له نوع من الغرور بأنه المطلوب والمعشوق والمتبوع من النساء ، ويبدو أن هذا الغرور قد ساقه الى استمراء طبع النساء فتتبع وصـفهن له وما يقلنـه عنه ، وحوارهن فى شأنه ، وحكى ذلك شعرا ، فكان فى شعره هذا أميل الى طبع النساء . من طبع الرجال المتيمين فى محبوباتهم . غير أننا نجـده فى رائيته غيره فى كثير من شعره ، اذ أنه فى هذه الرائية التى سـلك فيها سبيل الأسلوب القصصى المكتمل فى جميـع عناصره . من الحدث والشخوص والحوار والحبكة القصصية والأسـلوب البارع فى التعبير عن جميع هذه العناصر . لا يعدو أن يكون محبا ولها يتجشم الصعاب فى سبيل محبوبته ، وفى سبيل لقائها ورؤيتها والحديث معها ، فهو قد أحب « نعم » وهام بها غراما وعشقا ، ولكنها نأت عنه ونزلت مع أهلها بذى دوران ، وأراد لقاءها ، فتجشم الصعاب من أجل ذلك ، وحدث اللقاء ، وجلسا معا فى الظلام خوفا من الرقباء ، ومن عـداوة أهلهـا الذين توعدوه حين شهر بها بين الناس ، وحين لاح النهار فى الظهـور كان لابد أن يفارق الحى ، ولكن ماذا يفعل والموقف جد خطير ؟

---

(٩٣) التطور والتجديد /٢٣٠ ، وراجع : حديث ابن أبى عتيق فى الاغـانى ١١٨/١ .

عرض عليها أن يظهر لهم ، اما أن يفوت منهم ، واما أن يأخذ السيف مجراه ، ورأت هى أن هذا الرأى خطأ ، وأنه سيوضح للناس والعاذلين عنهم خاصة مكنون أمرهما ويكشف سترهما ، والأفضل من هذا أن تستشير أختيها فى أمرها ، وكيف تنحل هذه العقدة ، ويخرج معهن حتى يفوت الحى ولا أحد من الرقباء يراه ، وبالفعل تنكر عمر وخرج بينهن • ولم يفتهن أن يعطينه درسا قلن فيه :

فلما أجزنا ساحة الحى قلن لى	ألم تتق الأعداء والليل مقمر
وقلن أهذا دأبك الدهر سادرا	أما تستحى أو ترعوى أو تفكر
اذا جئت فامنح طرف عينيك غيرنا	لكى يحسبوا أن الهوى حيث تنظر

وتنتهى هذه القصة الجميلة بنهاية مأسوية حيث تعرض عنه « نعم » ولا يستطيع أن ينالها ، فيقول عمر :

فآخر عهد لى بها حين أعرضت	ولاح لها خد نقى ومحجر
سوى أننى قد قلت يا نعم قوله	لها والعتاق الارحبيات تزجر
هنيئا لأهل العامرية نشرها اللـ	ـذيذ وريـاها التى أتذكر

وهذه هى القصيدة كاملة :

أمن آل نعم أنت غاد فمبكر	غداة غد أم رائح فمهجر
بحاجة نفس لم تقل فى جوابها	فتبلغ عذرا ، والمقالة تعذر
تهيم الى نعم فلا الشمل جامع	ولا الحبل موصول ولا القلب مقصر
ولا قرب نعم ان دنت لك نافع	ولا نأيها يسلى ولا أنت تصبر
وأخرى أتت من دون نعم ومثلها	نهى ذا النهى لو ترعوى أو تفكر
اذا زرت نعما لم يزل ذو قرابة	لها كلما لاقيتها يتنمر
عزيز عليه أن ألم ببيتها	يسر لى الشحناء والبغض مظهر
ألكنى اليها بالسلام فانه	يشهر المامى بها وينكر

بآية ما قالت غداة لقيتها ... بمدفع أكنان : أهذا المشهر ؟
قفى فانظرى أسماء هل تعرفينه ... أهذا المغيرى الذى كان يذكر ؟
أهذا الذى أطريت نعتا فلم أكن ... وعيشك أنساه الى يوم اقبر ؟
فقالت : نعم لا شك غير لونه ... سرى الليل يحيى نصه والتهجر
لئن كان اياه ، لقد حال بعدنا ... عن العهد ، والانسان قد يتغير
رأت رجلا أما اذا الشمس عارضت ... فيضحى ، وأما بالعشى فيخصر
أخا سفر ، جواب أرض تقاذفت ... به فلوات ، فهو أشعث أغبر
قليل على ظهر المطية ظلاله ... سوى ما نفى عنه الرداء المحبر
وأعجبها من عيشها ظل غرفة ... وريان ملتف الحدائق أخضر
ووال كفاها كل شىء يهمها ... فليست لشىء آخر الليل تسهر
وليلة ذى دوران جشمتنى السرى ... وقد يجشم الهول المحب المغرر
فبت رقيبا للرفاق على شفا ... أحاذر منهم من يطوف وأنظر
اليهم متى يستمكن النوم منهم ... ولى مجلس لولا اللبانة أوعر
وباتت قلوصى بالعراء ورحلها ... لطارق ليل أو لمن جاء معور
وبت أناجى النفس أين خباؤها ... وكيف لما آتى من الأمر مصدر
فدل عليها القلب ريا عرفتها ... لها وهوى النفس الذى كاد يظهر
فلما فقدت الصوت منهم وأطفئت ... مصابيح شبت بالعشاء وأنور
وغاب قمير كنت أهوى غيوبه ... وروح رعيان ونوم سمر
وخفض عنى الصوت أقبلت مشية الـ ... ـحباب وشخص خشية الحى أزور
فحييت اذ فاجأتها فتولهت ... وكادت بمخفوض التحية تجهر
وقالت وعضت بالبنان فضحتنى ... وأنت امروء ميسور أمرك أعسر
أريتك اذ هنا عليك ألم تخف ... رقيبا ، وحولى من عدوك حضر ؟
فوالله ما أدرى أتعجيل حاجة ... سرت بك أم قد نام من كنت تحذر ؟

فقلت لها : بل قادنى الشوق والهوى
اليك ، وما نفسى من الناس تشعر

فقالت : وقد لانت وأفرخ روعها   كلاك بحفظ ربك المتكبر

فأنت أبا الخطاب غير مدافع   علىّ أمير ما مكثت مؤمر

فيالك من ليل تقاصر طوله   وما كان ليلى قبل ذلك يقصر

ويالك من ملهى هناك ومجلس   لنا لم يكدره علينا مكدر

يمج ذكى المسك منها مفلج   نقى الثنايا ذو غروب مؤشر

تراه اذا ما افتر عنه كأنه   حصى برد ، أو أقحوان منور

وترنو بعينيها الى كما رنا   الى ظبية وسط الخميلة جؤذر

فلما تقضى الليل الا أقله   وكادت توالى نجمه تتغور

أشارت بان الحى قد حان منهمو   هبوب ، ولكن موعد لك عزور

فما راعنى الا مناد ترحلوا   وقد لاح معروف من الصبح أشقر

فلما رأت من قد تنبه منهمو   وأيقاظهم ، قالت : أشر كيف تأمر

فقلت أباديهم ، فاما أفوتهم   واما ينال السيف ثأرا فيثأر

فقالت : أتحقيقا لما قال كاشح   علينا ، وتصديقا لما كان يؤثر ؟

فان كان ما لابد منه فغيره   من الأمر أدنى للخفاء وأستر

أقص على أختى بدء حديثنا   ومالى من أن تعلما متأخر

لعلهما أن تطلبا لك مخرجا   وأن ترحبا سرا بما كنت أحصر

فقامت كئيبا ، ليس فى وجهها دم   من الحزن تذرى عبرة تتحدر

فقامت اليها حرتان عليهما   كساءان من خز دمقس وأخضر

فقالت لأختيها أعينا على فتى   أتى زائرا ، والأمر للأمر يقدر

فأقبلتا فارتاعتا ، ثم قالتا   أقلى عليك اللوم ، فالخطب أيسر

يقوم فيمشى بيننا متنكرا   فلا سرنا يفشو ، ولا هو يظهر

فكان مجنى دون من كنت أتـــقى ثلاث شخوص كاعبان ومعصـــر
فلما أجزنا ساحة الحى قلـــن لى ألم تتق الأعـــداء والليل مقمـــر
وقلنا : أهذا دأبك الدهر ســـادرا أما تستحى أو ترعوى أو تفكر ؟
اذ جئت فامنح طرف عينيك غيرنا لكى يحسبوا أن الهوى حيث تنظر
فآخر عهد لى بها حـــين أعرضت ولاح لهـــا خـــد نقى ومحجـــر
سوى أننى قد قلت يانعم قولـــة لها والعتـــاق الأرحبيات تزجـــر
هنيئا لأهل العامرية نشرها اللـــ ـــذيذ ورياها التى أتذكـــر (٩٤)

بهذا الأسلوب القصصى الممتاز اســـتطاع عمر بن أبى ربيعة أن يكون رئيس مدرسة الغزل الاباحى القصصى . وعلى دربه سار مجموعة من الشعراء كالأحوص والعرجى والحارث بن خالد المخزومى وغـــيرهم كثيرون . ولكنهم جميعا لم ينالوا شهرته ولم يقدروا قدره ، فقد كان قائدا ورائدا فى هذا الميدان .

الغـــزل العـــذرى

اذا كان الشاعر فى اللون الاباحى من الغـــزل يتحدث عن جســـد المرأة وعن مفاتنها وعما يحدث عند لقائه بها دون حـــرج من نفســـه أو خشية من عداوة أهلها . واذا كان يتنقل هواه لأكثر من واحدة ، فاذا شبعت رغبته من واحدة ، ووجد غيرها سرعان ما ينتقـــل اليهـــا كالنحلة التى تنتقل بين أزهار الحديقة . واذا كان لا يبـــالى بالقيـــم الدينية ولا بالتقاليد القبلية ، واذا كان هدفه اشباع الرغبة أيا ما كانت الوسيلة اليها .

---

(٩٤) الديـــوان .

فان العذريين ليسوا كذلك ، فهم يتساموْن فوق الغرائز ويرضون من المحبوبة بأى شيء ، بالرفض والنفى وبالأمل الذى خاب آمله ، كما يقول جميل :

وانى لأرضى من بثينـــة بالـــذى لو أبصره الواشى لقرت بلابلـــه
بلا ، وبأن لا أســتطيع وبالمـــنى وبالأمل المرجـــو قد خاب آملـــه
وبالنظرة العجلى وبالحول تنقضى أواخره لا نلتقى وأوائلـــه (٩٥)

واعتمد هذا النوع من الحب على العفة والطهـارة والصـــدق فى القول والاخلاص الشديد للمحبوبة ، والتفانى فى مرضاتها ، والوقوف بقلبه وعقله عندها لا يبرحها الى غيرها حتى الموت •

وقد نشأ هذا النوع من الحب العميق وهذه العاطفة المتأججة فى البادية ، على خلاف الغزل الاباحى الذى نشأ فى الحضر •

وبالطبع فان نعومة الحياة ورقتها فى الحضر قد أضعفت التقاليد الشديدة والمعاملة الخشنة التى جبل عليها أهل البادية • ولذلك وجـــد الغزل الاباحى بيئة خصبة وجوا مناسبا فى الحضر •

أما البادية فانها ظلت على فطرتها وخشونتها ، وقسوة الحيـــاة فيها ، وكانت فى أثناء انتشار الغزل العذرى شبه مغلقة ، وأدى هذا الى المحافظة على القيم الدينية التى تعلموها من رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن أصحابه وأتباعه مما نزل به القرآن الكريم ، وهـــذه القيم تدعوهم الى السمو بعواطفهم وعدم الخضوع للغرائز والشهوات والى السمو بأخلاقهم فى حديثهم ومعاملاتهـــم وجميـــع تصرفاتهم • بالاضافة الى أن البادية كانت لما تزل متمسكة بعاداتها وتقاليدها وكان

---

(٩٥) ديوان جميل /١٦٨ •

من تقاليد البادية أن الشاعر اذا شهر بمحبوبته وباح باسمها فى شعره لا يتزوجها ، بل تتزوج من غيره ، وهذا ما يؤدى الى ازديـاد الكبت والحرمان ، وشدة الحزن والضـنى ، ويعيش حياتـه يهذى بحبهـا ويمرض من شدة التفكير فيها ، فهى سحر الا أن للسحر دواء ، وهى الرقيا ، وحرمانه منها ليس له دواء • فجميل يقول :

هى السحر الا أن للسحر رقيـة   وانى لا ألفى لها الدهـر راقيـا

ويقول جميل أيضا :

ومـا زلتمـو يابثـن حـتى لـو اننى
من الشـوق أسـتبكى الحمام بكى ليـا

اذا خدرت رجلى وقيـل شفاؤها   دعـاء حبيب كنت أنت دعائيـا
ومازادنى النأى المفـرق بعدكم   سلوا ولا طـول التلاقى تقاليـا
ولا زادنى الواشون الا صـبابة   ولا كـثرة الناهـين الا تماديـا
وأنت التى ان شئت كدرت عيشتى   وان شئت بعد الله أنعمت باليـا
وأنت التى ما من صديق ولا عدى   يرى نضو ما أبقيت الا رثى ليـا
لقـد خفـت أن ألقى المنيـة بغتـة
وفى النفس حاجات اليـك كمـا هيا (٩٦)

وفى نفس هذا الخط من المعانى العذرية يقول مجنـون ليلى قيس ابن الملوح العامرى :

أعـد الليـالى ليلـة بعد ليلـة   وقد عشت دهرا لا أعد اللياليـا
أرانى اذا صـليت يممت نحوها   بوجهى وان كان المصلى ورائيـا
تمر الليالى والشـهور وتنقضى   وحبـك ما يـزداد الا تماديـا
خليلى : لا والله لا أملـك الذى   قضى الله فى ليلى ولا ماقضى ليا

---

(٩٦) ديوان جميل /٢٢٠ •

قضاها لغـيرى وابتلانى بحبهـا فهلا بشىء غـير ليلى ابتلانيا ؟
أمضروبة ليلى على أن أزورهـا ومتخذ ذنبا لهـا أن ترانيـا ؟
ولـو كان واش باليمامـة داره وداري بأعلى حضرموت اهتدى ليا
وانى لأخشى أن أمـوت فجـاءة وفى النفس حاجات اليك كما هيا
وانـى ليثنيـنى لقـاؤك كلمـا لقيتـك يومـا أن أبثـك مابيـا
وقالوا بـه داء عيـاء أصـابه وقد علمت نفسى مكان دوائيا(٩٧)

وهكذا كان هذا الحب مأسويا حزينا ، يستثير الشفقة ويدعو الى العطف والرحمة ويرثى لحال المحب الولهان الذى كتب عليه الحرمـان الى نهاية حياته ، وهو فى كل أموره يتخلق بخلق الاسلام ويستحضر الله تعالى فى قلبه . ولا يفقده حرمانه وقسوة التقاليد عليه صوابه .

ويدل على ذلك قول جميل فى خطابه لبثينة :

وأنت التى ان شئت كدرت عيشتى وان شئت بعد الله أنعمت باليـا

فالله فى قلبه قبل بثينة وبعدها .

ومن ذلك أيضا قول مجنون ليلى السابق :

خليلى لا والله لا أمـلك الـذى قضى الله فى ليلى ولا ما قضى ليا
قضاها لغـيرى وابتلانى بحبهـا فهلا بشىء غير ليلى ابتلانيـا ؟

وهذا دليل قاطع على أن الاسلام هذب من أخلاقهم وتسامى بهـم عن الغرائز والشهوات الى العفة والطهارة ، فـكان تأثـيره قويا فى نفوسهم . وكان من أشهر شعراء هذا اللون العفيف فى العصر الأموى جميل بثينة ، وقيس بن الملوح صاحب ليلى العامرية ، وقيس بن ذريح صاحب لبنى ، وكثير عزة . وسمى هذا اللون من الحب بالحب العذرى

---

(٩٧) ديوان مجنون ليلى /١٦٥ .

أو الغزل العذرى نسبة الى بنى عذرة ، وهى قبيلة بدوية من بنى قضاعة بجهات وادى القرى شمال المدينة •

وقد أصابت عدوى الحب المضى ، والهوى الصادق البرىء ، والموت فى سبيل المحبوبة بظلم التقاليد ومعاكسة الحظ أفراد هذه القبيلة الا قليلا منهم ، حتى قيل لرجل منهم : « ما بال العشق يقتلكم يا بنى عذرة ؟ فقال : لأن فينا جمالا وعفة •

ولما كان الزواج من محبوباتهم هو الطريق المشروع فى اشباع رغباتهم منهن فقد أرادوه ، وحين حكمت عليهم التقاليد الظالمة بالحرمان ، لم يجدوا عوضا سوى شعرهم يبثونه وجدا وحنينا ، وبكاء وأنينا ، وأحزانا وأشجانا • وصفوا فيه آلام الروح وتباريح الفؤاد وعذاب النفس • وقد استرخص الواحد منهم كل غال ونفيس فى سبيل من يحب ، وتمنى أنكد الحالات وأسوأها مادام ذلك يجعله يحظى من محبوبته بأى شىء ولو كانت مجرد أمانى ، كما يقول جميل :

ألا ليتنى أعمى أصم تقودنى بثينة لا يخفى على كلامها

ولم يخطر لعلاقته أن تفتر أو تضعف أمام هذا الحرمان الذى ينتهى باليأس وبعده الموت ، ولكنها علاقة تجمع بين روحيهما منذ الطفولة ، وهى نامية خالدة تزيد على الدوام فيقول :

علقت الهوى منها وليدا فلم يزل الى اليوم ينمي حبها ويزيد
فلو تكشف الأحشاء صودف تحتها لبثنة حب طارف وتليد
يذكر نيها كل ريح مريضة لها بالتلاع القاويات وئيد

بل تغالى جميل فيذكر أن هذه العلاقة الروحية بينهما وجدت قبل خلقهما وحين كانا نطفة ، وحين كانا فى المهد صبيين ، وأن هذا الحب يزداد وينمو ويظل بعد موتهما ، فيقول :

تعلق روحى روحها قبـل خلقنـا ... ومن بعد ما كنا نطافا وفى المهـد
فزاد كمـا زدنا ، فأصبح ناميـا ... وليس اذا متنا بمنقض العهـد
ولكنـه باق على كل حـالة ... وزائرنا فى ظلمة القبر واللحـد

ويتمنى جوارها بعد الموت ، بأن يكون ضريحه مجاورا لضريحها فيقول :

ألا ليتنا نحيا جميعـا فان نمت ... يوافق لدى الموتى ضريحى ضريحها

ويبلغ العناء والحرمان بجنادة العذرى درجة يتمنى معهـا موت محبـوبته ، حتى يستريح من حرمانه ويتخلص من معـاناته . ولكنه يعود فيقرر أنها لو ماتت لتمنى بقاءها ، فيقول :

وقلت أهلا وسهلا من هداك لنـا ... ان كنت تمثـالها أو كنت ايـاها
من حبهـا أتمنى أن يلاقينى ... من نحـو بلدتها ناع فينعـاها
كيمـا أقول فراق لا لقـاء به ... وتضمر النفس يأسا ثم تسـلاها
ولو تمـوت لراعتنى وقلت ألا ... يابؤس للموت ليت الموت أبقاها(٩٨)

ولاشك أنه فى حبه هـذا أضعف من غيره من العـذريين الذين يعيشون لحبوباتهم ويتمنى الواحد منهم الموت لتحيا محبوبته ، ومن ذلك ما قاله مجنون ليلى من أن العشق الذى لا يقتل أهله ليس بعشق ، وقد قال هذا الكلام حينما مرض من شدة الحب وألم الحرمان ، فجاءه طبيبان لمعالجته ، فقالا له : ما عندنا للشعاق دواء هو أبلغ من حبيب ضجيع الى جنبه • يقول المجنون :

طبيبـان لو داويتمـا أجرتمـا ... فمـا لكما تستغنيان عن الأجـر
فقـالا بحـزن مالك اليوم حيلة ... فمت كمدا أوعـز نفسك بالصبر
وقالا دواء الحب غـال وداؤه ... رخيص ، لا ينبيك شىء كمن يدرى

---

(٩٨) الاغانى ١/١٧٥ .

فما برحا حتى كتبت وصيتى ... ونشرت أكفانى وقلت احفرا قبرى
فما خير عشق ليس يقتــل أهله ... كما قتل العشاق فى سالف الدهر
ألا حبذا البيض الأوانس كالدمى ... وان كن يسكرن الفتى أيما سكر(٩٩)

وهكذا ملك عليهم الحب والهوى نبض حياتهم وكل مشاعرهم ، ووقفت قريحتهم أسيرة هـذا الحب وتلك الصبابة ، ولم يكن فى قلبه مكان يسع أكثر من محبوبته التى عاش لها ومات من أجلها ، ولم يتمن شيئا من الله تعالى سواها ولكنه حرم منها ، فأخذ يشكو بثه ويتحدث عن لواعجه وعذاب نفسه • وعلى هـذا الدرب كان شـعراء الغزل العــــذرى •

٥ ــ الرجـــز :

وهو فن من فنون الشعر التى استقصاها الخليل بن أحمد وقسمها ووضع لكل قسم التفعيلة أو التفعيلات اللائقة ، كمـا وضع لهـذه التفعيلات أسماءها • فكان منها : الوافر والبسـيط والسريع والمديد والطويل •• وغيرها من بحور الشعر الستة عشر • ومن هذه البحور بحر الرجز ، وهو على ست تفعيلات فى كل شطر ثلاث • وهذه التفعيلة هى (مستفعلن) •

ومعنى ذلك • أن هـذا البحر ليس جـديدا كمـا يذكر بعض المؤلفين (١٠٠) وانما هو قديم قـدم الشـعر العربى ، بل انه كان من أوائل ما عرف فى الشـعر العربى (١٠١) ، حيث الصحراء الواسـعة

---

(٨٩) ديوان مجنون ليلى ١٦٦ •

(١٠٠) راجع : دراسات فى تاريخ الأدب العربى /٦٥ ، د/ محمد عبد المنعم خفاجى •

(١٠١) راجع : مجلة الشعر ، العدد الخامس ، مقال للدكتور / يوسف خليف ص ٢٦ •

وحياة الرعى وما تستلزمه من التنقل هنا وهناك سعيا وراء الكلا والماء، وحيث الغارات والحروب بين القبائل . وما تستلزمه الحياة بكل هذه الأمور من دوافع ومشجعات وهى فى نفسها تسلية لهم ، وهل غير الرجز ما يقوم بهذه المهمة ؟

لقد قام بها خير قيام . الا أنه كان فى أبيات قلائل ، فلما تهلهلت القصيدة وطالت وواءمت نفوس العرب أكثر من الرجز انشغل العرب فى الجاهلية بالقصيد ، وبقى الرجز يرتجل وينشد فى مناسبات خاصة وكذا فى حداء الابل وهدهدة الأطفال وما الى ذلك من موضوعاته ومناسباته .

وقد امتد الرجز فى العصر الاسلامى امتداده فى العصر الجاهلى، ونعثر على مقطوعات رجزية كثيرة قيلت فى الغزوات الاسلامية ، سواء من جانب المشركين أو من جانب المسلمين .

ومن ذلك ما قالته هند بنت عتبة عقب غزوة أحد وهى تمثل بقتلى المسلمين :

نحن جزيناكم بيوم بدر	والحرب بعد الحرب ذات سعر
ما كان عن عتبة لى من صبر	ولا أخى وعمى وبكرى
شفيت نفسى وقضيت نذرى	شفيت وحشى غليل صدرى
فشكر وحشى على عمرى	حتى ترم أعظمى فى قبرى (١٠٢)

فأجابتها هند بنت أثاثة بن عباد بن المطلب ، فقالت :

خزيت فى بدر وبعد بدر	يا بنت وقاع عظيم الكفر

---

(١٠٢) السيرة النبوية لابن هشام ٦٨/٣ تحقيق احمد حجازى السقا .

صبحك الله غداة الفجر ملها شميين الطوال الزهر
بكل قطاع حسام يفرى حمزة ايثى وعلى صقرى
اذ رام شيب وأبوك غدرى مخضبا منه ضواحى النحر (١٠٣)

ونسب ابن اسحاق لعلى بن أبى طالب هذه المقطوعة الرجزية :

لا هم ان الحارث بن الصمة كان وفيا وبنا ذا ذمة
أقبل فى مهامه مهمة كليلة ظلماء مدلهمة
بين سيوف ورماح جمة يبغى رسول الله فيما ثمة

وقال ابن هشام قالها رجل من المسلمين يوم أحد غير على »(١٠٤)
وقال ابن اسحاق أيضا . وقال عكرمة بن أبى جهل فى يوم أحد .

كلهم يزجره أرجب هلا ولن يروه اليوم الا مقبلا
يحمل رمحا ورئيسا جحفلا (١٠٥)

ولكن حين جاء العصر الأموى تطور فيه فن الأراجيز وتحول من أبيات ومقطوعات قلائل الى قصائد كاملة تنشد فى كل معنى وتزاحم القصائد فى كل أغراضها وموضوعاتها ، وتسير على نمطها حيث يستهلها الرجاز بالغزل أو الحديث عن الأطلال ثم يصف الرحلة فى الصحراء حتى يصل الى غرضه الأساسى وهو المديح ، كما تنظم الأراجيز الطوال فى الهجاء والفخر ووصف الصيد والطراد ، وغير ذلك من الموضوعات التى كانت قبل هذا العصر مقصورة على قصائد الشعر خاصة (١٠٦) .

---

(١٠٣) المصدر نفسه ٣/٦٩ .
(١٠٤،١٠٥) المصدر السابق ٣/١٢٢ .
(١٠٦) راجع : العصر الاسلامى للدكتور شوقى ضيف /٣٩٥ ، (الكتاب الثانى ، فى عصر بنى أمية) .

وكان أول من طور هذه الأراجيز لهذه الدرجة فأطالها ونوع فى موضوعاتها : الأغلب العجلى الشاعر المخضرم الذى عاش فى الجاهلية والاسلام وتوفى شهيدا بموقعة نهاوند سنة ٢١ للهجرة • يقول عنه أبو الفرج الأصفهانى : « انه أول من رجز الأراجيز الطوال من العرب » (١٠٧) • ونقل عن ابن حبيب قوله : « كانت العرب تقول الرجز فى الحرب والحداء والمفاخرة ، وما جرى هذا المجرى ، فتأتى منه بأبيات يسيرة ، فكان الأغلب أول من قصد الرجز ، ثم سلك الناس بعده طريقته » (١٠٨) ومعنى هذا أن الأغلب قد فتح لمن جاءوا بعده من رجازى العصر الأموى باب التطويل والاطالة فى الأرجوزة والتنويع فى موضوعاتها • يقول الدكتور شوقى ضيف : « ولا نتقدم فى عصر بنى أمية حتى يتكاثر من يحاكونه — أى الأغلب العجلى — وحتى يقصر بعض الشعراء النابهين حياتهم على تجويده — أى فن الأراجيز — وتحبيره ، وهم فى ذلك فريقان : فريق يجمع بينه وبين القصيد ، وفريق لا يجاوزه ، ولسنا نقصد بالفريق الأول من نظموا بعض أراجيز قليلة مثل جرير وذى الرمة ، انما نقصد من أكثروا منها ، ونظموا بين الحين والحين بعض القصيد » (١٠٩) •

وكان ممن سلكوا طريقة الأغلب العجلى فى الرجز : عبد الله بن رؤبه الملقب بالعجاج وابنه رؤبة بن العجاج وأبو النجم العجلى ، والشمردل بن شريك التميمى ، ودكين بن رجاء الفقيمى ، ودكين بن سعيد الدارمى ، والزفيان السعدى التميمى • وغيرهم •

واذا كان الرجز فى أول أمره يطلق على بحر من أبحر الشعر على وزن مستفعلن ، يتكرر ست مرات فى كل شطر ثلاث ويكون تاما بذلك ،

(١٠٧،١٠٨) الاغانى ٢١/٢٩ •

(١٠٩) العصر الاسلامى /٢٨٥

فان التطور الذى عم الرجز قد جعل التسمية سارية عليه فى كل حالات سواء أكان تاما ، أو مشطورا أو منهوكا ، كذلك أطلقت هـذه التسمية على مشطور السريع ومنهوك المنسرح ، وفى هـذه الحالة لابد من أن يصرع لأنه أصبح بيتا له قافيته .

وكما قلنا : شارك الرجز الشعر فى جميع أغراضه وموضوعاته ، ومن ذلك قول أبى النجم العجلى يصف فرسا (١١٠) :

ثم تناولنا الغلام ننزله ... فى ذى شكيم عضه يرمله (١١١)
والسوط فى يمينه ما يعمله ... عن متن سامى الطرف ما يعلله (١١٢)
تعمج الماء يفيض جدوله ... يجول فى أشطانه ويسعله (١١٣)
كل مكب الجرى أو منعثله ... فوافت الخيل ونحن نشكله (١١٤)

ويقول أبو النجم أيضا فى وصف شيطانه الذى يلهمه الشعر ، وفى هجاء بنى تميم (١١٥) :

---

(١١٠) الادب العربى فى ظل بنى امية / ٩٧ د/ جودة عبد الله مصطفى .

(١١١) الشكيم : الحديدة المعترضة فى فم الفرس . يرمله : يضمخه بالدم .

(١١٢) المتن : الظهر ، سامى الطرف : يرفع بصره لنشاطه . يعلله : يلهيه .

(١١٣) الاشطان : جمع شطن ، وهو الحبل الطويل تشد به الخيل ، يسعله : ينشطه ، تعمج الماء : تعوجه فى سيره .

(١١٤) نشكله : نشد قوائمه ، أكب فى جريه : عثر وهو يجرى . منعثل : يفرق قوائمه لعدم النشاط والقوة فكأنما ينزعها من وحل .

(١١٥) دراسات فى تاريخ الادب العربى ، د/ خفاجى ١٢١/ .

انى وكل شـــاعر من البشر   شـيطانه أنثى وشـيطانى ذكر
فما رآنى شـــاعر الا استسر   فعل نجوم الليل عاين القمـر
عيشى تميم وأصغرى فيمن صغر   وباشرى الذل وأعطى من عشر
وأمرى الأنثى عليك والذكر

وفى وصف الصيد يقول الشمردل بن شريك التميمى (١١٦) :

قد أغتـدى والصبح فى حجابه   والليـل لـم يـأو الى مآبــه
وقـد بدا أبلق من منجـــابه   بتوجى صـــاد فى شبابه (١١٧)
معـاود قـد ذل فى اصـعابه   قد خرق الضفار من جذابه (١١٨)
وعرف الصـوت الذى يدعى به   ولمعـة الملمع فى أثوابـه (١١٩)

وفى المديح : يقول أبو نخيلة الحمانى فى مدح هشام بن عبد الملك .

الى أمـير المؤمنين المجـــدى   رب معـــد وسـوى معـــد
ممن دعـا من أصـيد ونجـد   ذى المجد والتشريف بعد المجـد
فى وجهـه بدر بدا بالسـعد   أنت الهمام الفـرد عند الجـد
طوقتهـا مجتمـــع الأشـــد   فانـال لما قمت صـوت الرعـد

وفى وصف الديار والأطلال يقول العجاج :

ياصاح ما هـاج الدموع الذرفا   من طلل أمسى تخـال المصـحفا

---

(١١٦) الاغانى ١٣/٣٦١ .

(١١٧) أبلق : فيه سواد وبياض . منجابه : مكان انكشـافه .
التوجى : الصقر ينسب الى توج من قرى فارس .

(١١٨) خرق : شق . الضفار : الحبل يشد به .

(١١٩) الملمع : المشير بثوبه .

رســومه والمذهب المزخــرفا   وكل رجاف يســوق الرجفا (١٢٠)
من السحاب والســيول الجرفا   فأطرقت الا ثلاثا وقفــا (١٢١)
دواخسا فى الأرض الا شــغفا

وفى الغزل يقول رؤبة بن العجاج :

داينت (أروى) والديون تقضى   فمطلت بعضــا وأدت بعضــا
ياليت (أروى) اذ لوتك قرضا   جاءت بقرض فشكرت القرضــا

الى غير ذلك من الموضوعات والأغراض الكثيرة التى كانت قبل العصر الأموى مقصورة على القصيد ، ثم تعدته الى الرجز فى هــذا العصر .

الا أن الملاحظ على الرجز فى كثير من نمــاذجه أنه يجنح الى الغريب من ألفاظ اللغة . وبخــاصة عند العجــاج وابنه رؤبة اللذين إهتما اهتماما كبيرا بجمع شوارد اللغة فى ديوانيهما . فكان الديوانان مدرسة لتعليم اللغة وغريبها وأكب عليها الأعاجم حفظــا ودراســة يقول الدكتور شوقى ضيف، فى ذلك : « ويلقانا كثيرون لا يتجاوزون الرجز الى القصيد .. وأبرزهم جميعا : العجاج وابنه رؤبة اللذان انتهت اليهما صناعة الرجز ، ونقول صناعة ، لأن الرجز تحول عنــدهما الى صناعة لغــوية ، فلم يعد يقصــد به الى التعبير عن الأغراض الوجدانية وحدها ، بل أصبح يقصد به أيضــا الى التعبير عن غرائب اللغة .. وهو اتجاه تعليمى نظن ظنا أن الذى دعا اليه عناية الأجانب

---

(١٢٠) رجاف : سحاب يرجف بالرعد .

(١٢١) يريد : أن الاطلال خشعت وبليت عندما نزل عليها المطر ، ولم يبق منها منصوبا الا الاثافى وهى الحجارة التى يوضع عليها القدر.

بتعليم العربية ونهوض طائفة من العلماء بجمع اللغة وشــواردها ، وقد انبرى العجاج وابنه رؤبة يجمعان لهم فى شعرهما هــذه الشوارد حتى تحول ديوانهما الى معجمين للغرائب اللغوية ، وهما بحق يعدان أهم من هيأ لتحول الرجز من شعبيته القديمة الى بيئة المثقفين»(١٢٣).

وهكذا وجدت بذور الرجز وجذوره الممتدة فى العصرين الجــاهلى وصدر الاسلام وكان مقصورا على أبيات ومقطوعات قلائل ترتجل فى مناسبات خاصة به . ورواد هذا الفن وجمهوره كانوا قلائل . ولكنــه تطور فى العصر الأموى وطالت الأرجوزة الى حجم القصيدة وزاحمتها فى موضوعاتها وأغراضها ، ثم تحولت فى نهاية الأمر الى مدرسة لجمع شوارد اللغة فى الأراجيز جديدة بهذا التحول الكبير الذى صارت اليــه فى العصر الأموى .

٦ ــ الزهـــد :

وهو غــرض من الأغراض الشــعرية التى ترددت على ألســنة الشعراء فى العصر الأموى شأنه شأن بقية الأغراض الشعرية المعروفة آنذاك ، وقــد قيل عنــه أنه كان من الأغراض الجــديدة فى هــذا العصر (١٢٤) ولكنه فى الواقع ليس جديدا كله انما ما طرأ عليــه من اضافة على ما سبق ذكره فى العصرين الســابقين هو الجديد . اذ كان معروفا لدى الشعراء أن فكرة الزهد ومعناه قد ترددت فى أبيات كثيرة

---

(١٢٢) العصر الاسلامى /٣٩٦ ، ٣٨٧ ، وانظر أيضا : للدكتور شوقى ضيف : الفن ومذاهبه فى الشعر العربى /١٣٩ وما بعدها .

(١٢٣) العصر الاسلامى /٣٩٦ ، ٣٨٧ ، وانظر أيضا : للدكتور شوقى ضيف : الفن ومذاهبه فى الشعر العربى /١٣٩ وما بعدها .

(١٢٤) دراسات فى تاريخ الادب العربى ، ص ٦٥ ، د/ خفاجى .

ومتناثرة فى الشعر الجاهلى ، وبخاصة على ألسنة المتحنفين • فلما جاء الاسلام ترددت فى القــرآن الكريم آيات كثيرة تنفر من الدنيــا والانشغال بها عن الآخرة • من مثل قول الله تعالى : « اعلموا أنمــا الحياة الدنيا لعب ولهو وزينــة وتفــاخر بينكم وتــكاثر فى الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما • وفى الآخرة عذاب شــديد ومغفرة من الله ورضــوان وما الحياة الدنيا الا متاع الغرور » •

كما وردت احاديث كثيرة على لسان الرسول صلى الله عليه وسلم أيضا يخشى فيها رسول الله صلى الله عليــه وسلم من إفتتــان المسلمين بالدنيا وانشغالهم بها عن الآخرة فتكون سببا فى هلاكهم وقطع ثوابهم• ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم فيما معناه : « انى لا أخشى عليكم الفقر ، ولكن أخشى أن تبسط عليكم الدنيا كما بســطت على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها فتهلككم كما أهلكتهم » ويروى أن رجلا جاءه فقال : يارسول الله : دلنى على عمل اذا عملته أحبنى الله وأحبنى الناس . فقال : « ازهد فى الدنيا يحبك الله وازهــد فيما عنــد الناس يحبك الناس » •

ولكن ليس معنى ذلك أن يبتعد المسلم عن الدنيــا بكل ما فيهــا ويجلس فى المسجد للعبادة ، فالاسلام لا يزيد منه ذلك ، ولكنه يريد من المسلم أن يجد فيها وأن يثابر من أجل الحصول على خيرها والرزق منها كما قال القرآن الكريم : « وابتغ فيمــا آتاك الله الدار الآخــرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله اليــك » • وكثيرا ما ترددت أحاديث النبى محمد صلى الله عليــه وسلم التى تحض على العمل والجهاد فى الدنيا من غير تكالب وانشغال بها عن الآخرة •

وقد تأثر المسلمون بكل هذه المعانى القرآنية والنبوية وساروا فى اطارها مؤمنين مخلصين لله فى عبادتهم وطاعتهم ، يجـدون فى الدنيـا من غير تكـالب عليهـا مع تمثلهم للآخـرة فى كل تصرفاتهم ، وكان لشعرائهم نظم كثير فى الزهد فى الدنيا وتفضيل الآخرة عليها والأنشغال بما يقربهم منها .

وحين جاء العصر الأموى استمرت هذه المشاعر الايمانية فى نفوس المسلمين ، الا أن الدنيا قد فتحت عليهم وكثر خيرها وازداد عمرانهـا وكثرت مباهجها بعد أن فتح المسلمون البلدان ، وانهالت عليهم الأموال الطائلة التى غيرت مظاهر الحياة التى كان يحيـاها العرب المسلمون قبل هذه الفتوح ، من الطعام والشراب والملابس الفاخرة ، والقصور المشيدة ، وحياة اللهو واللعب والغنـاء والترف ، وما الى ذلك من مظاهر الحياة الجـديدة التى تقبلهـا كثير من المسلمين آنذاك وتغيروا بتغيرها عليهم ، ولم يتقبلها بعض منهم ، بل خافوا من الانخراط فى المظاهر فيكون ذلك سببا فى انحرافهم عن طريق العبـادة والطاعة ، فتركوا هذه الحياة بمظاهرها البراقة وتزهدوا فيها ، وأخذوا يعظون الناس ويذكرونهم بالآخرة . وأن الدنيا فانية والآخرة خير وأبقى ، وأن هذه الحياة التى يحياها الناس مهما طالت فان الموت يعقبها . وأخذوا يبتهلون الى الله ويتقربون اليـه تعـالى أن ينجيهم من شرور الدنيـا وعذاب الآخرة ، وأن يبـاعد بينهم وبين النـار . ومن ذلك قول ذى الرمة يناجى ربه قبل موته :

يارب قـد أشرفت نفسى وقد علمت
علمـا يقينا لقـد أحصيت آثـارى
يامخرج الروح من جسمى اذا احتضرت
وفارج الكرب زحزحنى عن النار(١٢٥)

---

(١٢٥) ديوان ذى الرمة /٦٦٧ طبعة كمبريدج .

ولما كان معروفا لكل مسلم أن الله تعالى هو الخالق الرازق ولا تموت نفس حتى تستوفى رزقها ، وما كان للانسان فى حياته يأته فقد ترجم ذلك شعرا عروة بن أذنية العالم الشاعر الذى قال فى هـذا المعنى :

لقد علمت وما الاسراف من خلقى — أن الذى هو رزقى سوف يأتنى
أسعى له فيعيينى تطلبه — ولو قعدت أتانى لا يعنينى
خيمى كريم ونفسى لا تحدثنى — أن الاله بلا رزق يخلينى

وان كان فى بيته الثانى دعوة الى التواكل ، مع أن المعروف عن الاسلام أنه دين التوكل والعمل معا وليس دين التواكل غير أنه كان شديد التوكل على الله والثقة فيه سبحانه والتعلق بصفاته ، وهـذا ما دعاه لأن يركن اليه تعالى فى كل شىء .

وهذا مسكين الدارمى الذى يتخذ من اسمه طريقا للقربى من الله تعالى فيقول :

وسميت مسكينا وكانت لحاجة — وانى لمسكين الى الله راغب

وكان عفا عند عسره متجملا ، يستحى أن يعلم أصدقاؤه فقره ، لا يفرح باقبال الدهر عليه ولا يجزع من حوادثه فيقول :

ولست اذا ما سرنى الدهر ضاحكا
ولا خاشعا ما عشت من حادث الدهر
أعف لدى عسرى وأبدى تجملا
ولا خير فيمن لا يعف لدى العسر
وانى لأستحيى اذا كنت معسرا
صديقى واخوانى بأن يعلموا فقرى

ولا يفوته أن يذكر حكمه يقول فيها :

ومن يفتقر يعلم مكان صـديقه ومن يغن لا يعدم بلاء من الدهر

وهذا أبو السعود الدؤلى ، العالم الفقيـه الذى اشتهر بورعـه وزهده وتقواه ، وكثيرا ما كان يعظ الناس ويرشدهم الى طريق الحق والصواب والى الزهد فى الدنيا والتقرب من الله تعالى بالعمل والطاعة، وأن يكون الانسان فى كل أموره متوكلا على ربه يلجـأ اليه فى كل شىء ، فيقول فى ارشاداته الحكيمة :

واذا طلبت من الحوائج حاجـة فادع الاله وأحسن الأعمـالا
فليعطينك مـا أراد بقـدرة فهو اللطيف لمـا أراد فعـالا
ودع العبـاد ولا تكن بطلابهم لهجا تضعضع للعباد سـؤالا
ان العباد وشأنهم وأمـورهم بيـد الاله يقلب الأحـوالا

ويدعو الى الجد والمثابرة والعمـل المتواصل ونبـذ التمنى مع الكسل فيقول :

وما طلب المعيشـة بالتمنى ولكن ألق دلوك فى الـدلاء
تجئـك بملئهـا يوما ويوما تجئك بحمأة وقليل مـاء
ولا تقعد على كسـل تمنى تحيل على المقادر والقضاء

ومن حكمه التى يفـرق فيها بـين جامـع المال وجامع العـلم قوله :

قد يجمع المرء مالا ثم يحرمـه عما قليل فيلقى الذل والحربا(١٢٦)
وجـامع العلم مغبـوط به أبدا ولا يحاذر منـه الفوت والسـلبا

(١٢٦) الحرب : سلب المال .

وهذا سابق البربرى من علماء وشعراء العصر الأموى . كان قاضى الرقة وامام مسجدها فى عهد عمر بن عبد العزيز ، وكان قد اشتهر بزهده وتقواه ، يدعو الناس دائما الى التقشف والفرار من الدنيا ومتاعها الزائل ، الى الله تعالى ، والى جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين . ودائما كان فى ثورة عارمة ضد الأغنياء الذين قد شغلوا بالدنيا وبجمع المال وكنزه ، فيقول :

فحتى متى تلهو بمنزل باطل ... كأنك فيه ثابت الأصل قاطن
وتجمع مالا تأكل الدهر دائبا ... كأنك فى الدنيا لغيرك خازن

ويقول :

أموالنا لذوى الميراث نجمعها ... ودورنا لخراب الدهر نبنيها
والنفس تكلف بالدنيا وقد علمت ... أن السلامة منها ترك ما فيها

ويشبه الجسد بعد خروج الروح منه بالبيت بعد خروج سكانه والغمد بعد خروج حمائله والبحر بعد أن يتخلى عنه ساحله وخفة الأرض بعد ثقل جبالها ، فكل هذه الأمور تأذن بانتهاء الحياة الدنيا ، وزوال متاعها وحينئذ يحمل كل مسيء وزره ، ولا تزر وازرة وزر أخرى . يقول البربرى فى ذلك .

اذا الجسد المعمور زايل روحه ... خوى ، وجمال البيت يا نفس أهله
وقد كان فيه الروح حينا يزينه ... وما الغمد لولا نصله وحمائله
اذا الأرض خفت بعد ثقل جبالها ... وخلى سبيل البحر يا نفس ساحله
فلا يرتجى عونا على حمل وزره ... مسيء وأولى الناس بالوزر حامله

والمتقدمون فى السن — عادة — هم أكثر الناس فرارا من الدنيا ، وهروبا منها الى الآخرة ، والى التقرب من الله عز وجل وعمل الصالحات ومن هؤلاء كان الفرزدق الذى يقول مخاطبا ابليس :

أطلعتك يا ابليس سبعين حجـة فلما انتهى شـيبى وتم تمـامى
فـرت الى ربى وأيقنت أننى مـلاق لأيام المنـون تمـامى

ومن كان على شاكلته من مطيعى ابليس لفترة طويلة من حياتهم يكون أشد الناس خوفا وهلعا من مصـيره المحتوم فى الآخـرة ومن حساب الله له ، ويفكر فى نار الجحيم وما يفعل به فيها ، وفى هـذا يقول الفرزدق :

أخاف وراء القبر ان لم يعـافنى أشد من القبر التهـابا وأضيقا
اذا جـاءنى يوم القيـامة قائد عنيف وسـواق يسـوق الفرزدقا
لقد خاب من أولاد دارم من مشى الى النار مغلول القلادة موثقـا
يقـاد الى نار الجحيم مسربلا سرابيل قطـران لباسـا محرقا

وهكذا اشتدت موجة الزهـد وما صحبها من اسـداء المواعـظ والتوجيهات الدينية فى العصر الأموى كرد فعل لانجـراف الناس فى ملاهيهم وانشغالهم بالأمـوال التى تدفقت عليهم ، فقلدوا الأعاجم فى اللهو والترف والحياة الناعمة التى كان يخشى عليهم منهـا رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قال لأصحابه فيما معناه : « انى لا أخشى عليكم الفقر ، ولكن أخشى أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم ، فتنافسوها كما تنافسوها فتهلككم كما أهلكتهم » .

ولعل الجديد فى هـذا الموضوع — أعنى الزهـد — فى العصر الأموى ، هو تلك الموجـة الحـادة من المواعظ والارشـادات وتقديم النصائح والتوجيهات فى صورة قصائد ومقطوعات شعرية كثيرة ، بلغت حدا ، أن أصبحت غرضا مستقلا كبيرا فى حجمه فى هذا العصر له رواده ورواته ، بعد أن كان ما يقال فى هذا الغرض فى العصرين السابقين لا يتعدى أبياتا متناثرة هنا وهناك أو فى ثنـايا القصائد فى الأغراض

المختلفة ، أو فى مقطوعات قصيرة لا تزيد عن الأبيات القليلة ، التى تعتبر مواعظ عامة ، ولا يقصد بها مجابهة الغنى والثراء المفاجىء الذى جرف الناس فى تياره فسكنوا القصور المشيدة ، ولبسوا ناعم الثياب ، وطعموا وشربوا أشهى أنواع المطعومات والمشروبات ، وبدءوا فى اقتناء المغنيات والراقصات ونظم الأشعار الرقيقة التى تجرى على ألسنة المغنين واللاهين • وكل هذه الأمور التى شغل بها مجموعات من الناس• قوبلت برفضها من أناس آخرين كانت وجهتهم الزهد والتقوى والعمل الصالح ، وقد ترجموا ذلك الى سلوك اعرفوا به ، والى أقوال وتوجيهات شعرية ونثرية •وأصبح الزهد الذى عرفه به هؤلاء العلماء الوعاظ يشكل اتجاها جديدا ومظهرا من مظاهر الحياة فى العصر الأموى •

وبعد . فهذه الأغراض الشعرية السابقة كان بعضها جديدا كل الجدة كالشعر السياسى والشعر الشعوبى ، وبعضها كان قديما لكنه ارتدى أثوابا جديدة من الصور والمعانى والأخيلة والاضافات التى اقتضتها ظروف العصر وسياسته فظهر فى صورة جديدة وان كانت له جذوره القدمية • ومن ذلك : النقائض والغزل — وبخاصة العفيف الطاهر منه الذى أطلق عليه الغزل العذرى — والأراجيز والزهد •

أما الأغراض التقليدية المتوارثة عن العصرين : الجاهلى وصدر الاسلام فقد بقيت كذلك فى العصر الأموى ، وان تغيرت مضامينها وموضوعاتها عن ذى قبل ، كما تغيرت الظروف الملابسة للنظم فى الغرض ذاته • ومن هذه الأغراض التى يمكن أن نضيفها فى العدد الى الأغراض السابقة •

٧ ــ المديــح :

وهو غرض من الأغراض الشعرية المعروفة فى العصر الجاهلى ، والتى كان لها حظهــا الأوفى بين الأغراض آنذاك ، حيث كان العرب يعيشون حياة قبلية ، وكل قبيلة تحب أن تظهر على غيرها ، وكل فرد يحب أن يظهر بين الأفــراد جميعهم بعاطر الثنــاء وجميل الصــفات التى يتحدث بهــا الركبان وتتنــاقلها الألســنة ، وكل ذلك لا يكون الا بالمديح ، فكان الشاعر يمــدح الرجل بالشجاعة والكرم والمروءة والوفاء وحفظ الجوار ونصرة الضعفاء ، والوقوف فى صعوفهم احقاقا للحــق واقامة للعــدل • الا أن مديحهم اختلط بفخرهم ومبــالغاتهم الكثيرة •

فلما جاء الاسلام حدّ من المبالغات الكثيرة وغير المقبوله ومن المغاظله فى القول ، وأراد من الشعراء أن يمدحوا الرجال بما فيهم وما هم أهل له من الصفات • غير أن المديح قد فتر فى صدر الاسلام شأنه فى ذلك شأن بقية أغراض الشعر لأنشغال المسلمين بالدعوة ونشر كلمة التوحيد ، والتــأمل والتــدبر فى آى الذكر الحكيم واستخراج الأحكام الفقهية منه ، وتطبيقها فى حياتهم وسلوكهم •

ولكن ما أن جاء العصر الأموى حتى عاد المديح أدراجه ، بل بلغ الذروة فى هذا العصر ، وجعله الأمويون ــ سياســة منهم ــ قســما مشتركا مع النقائض فى العراق ، والغزل والغناء فى بلاد الحجاز •

ولمــا كانت الأحزاب والتيارات السياسية كثيرة فى هذا العصر، فكان لكل حزب شعراؤه الذين يمدحون قادته ورجاله الأفذاذ ويرفعونهم فوق هامات غيرهم من رجال الأحزاب الأخرى ، الا أن الأمويين قــد استحوذوا على أكثر الشعراء يمدحونهم فى مقرهم فى بلاد الشــام ،

ويسبحون بحمدهم ويتبارون فى وصفهم بالأصاف الحسية والمعنوية على السواء ، فيصفونهم بالشجاعة والاقدام فى حروبهم وفتوحاتهم ، ويصفونهم بالكرم والعطاء والسخاء الشديد، ويصفونهم باقامة الشريعة السمحة فيما بينهم تطبيقا وسلوكا فى كل ما تتضمنه من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر واقامة العدل،والرحمة بالضعفاء والاحسان الى الجار واكرام الضيف، واعانة المحتاجين • وما الى ذلك من تعاليم الاسلام •

وكل شاعر كان يتفنن فى ابراز الصور الرائعة التى تقربه من ممدوحه ومن الأموال الطائلة التى كانوا يغدقونها على الشعراء فى سخاء وبذخ لم يسبق له نظير فى العصرين السابقين •

وكان الأمويون — خاصة — يجتذبون الشعراء بأمرين : المال يبذلونه ، وبالحلم يسع أخطاءهم ويغفر زلاتهم ، اذ كانوا يتجاوزون عما يقع منهم دون غيرهم من الناس •

وكان لكل شاعر أساوبه فى المديح • فالأخطل — وهو من الشعراء الذين قصروا مدائحهم على الأمويين — يمدح عبد الملك بن مروان بكرم الأصل والنزاهة عن قول الخنا ، والصبر على المكاره ، وسداد الرأى ، وعدم البطر والطغيان بعطاء الله له ولذويه ، وأنهم أشداء فى العداوة ، عظماء فى الصبر والحلم ، وأنهم قبل ذلك كله وبعده شجعان كرماء فيقول :

فى نبعة من قريش يعصبون بهــا	ما ان يوازى بأعلى نبتها الشجر
حشد على الحق،عن قول الخنا خرس	وان ألمت بهم مكروهة صبروا
فان تدجت على الآفاق مظلمــة	كان لهم مخرج منهــا ومعتصر
أعطاهم الله جــدا ينصرون به	لاجد الا صــغير بعــد محتقر
لم يأشروا فيه اذ كانوا مواليــه	ولو يكون لقوم غــيرهم أشروا
شمس العداوة حتى يستــقاد لهم	وأعظم الناس أحلاما اذا قدروا

لا يستقل ذوو الأضغان حربهم ولا يبين فى عيدانهم خــور
هم الذين يبارون الرياح اذا قل الطعام على العارفين أو قتروا

كما يمدحه جرير أيضا بقصيدته الحائية التى كان فيها مستجديا بصورة صريحة ومملة ، ولعلى لا أكون مبالغا اذا قلت انه كان فى هذه القصيدة شحاذا لدرجة غير مقبولة فيقول جرير :

أتصحوا أم فؤادك غير صاح عشية هم صحبك بالرواح
تقول العاذلات : علاك شيب أهذا الشيب يمنعني مراحى ؟
تعزت أم حزرة ثم قالت رأيت الواردين ذوى امتناح
تعلل وهى ساغبة بنيها بأنفاس من الشبم القراح
سأمتاح البحور فجنبينى أذاة اللوم ، وانتظرى امتياحى
ثقى بالله ليس له شريك ومن عند الخليفة بالنجاح
أغثنى — يا فداك أبى وأمى — بسيب منك انك ذو ارتياح
فانى قد رأيت على حقا زيارتى الخليفة وامتداحى
سأشكر ان رددت على ريشى وأنبت القوادم فى جناحى
ألستم خير من ركب المطايا وأندى العالمين بطون راح ؟
وقوم قد سموت لهم فدانوا بدهم فى ململمة رداح(١٢٧)
أبحت حمى تهامة بعد نجد وما شىء حميت بمستباح

وهذا عبد الله بن قيس الرقيات الذى مدح مصعب بن الزبير بقوله :

انما مصعب شهاب من الله تجلت عن وجهه الظلماء
ملكه ملك قوة ليس فيه جبروت ولا به كبرياء
يتقى الله فى الأمور وقد أفـ ـلح من كان همه الاتقاء

---

(١٢٧) الرداح : الكتيبة الثقيلة .

هو نفسه يمدح عبد العزيز بن مروان والى مصر من قبل عبد الملك بن مروان الخليفة وذلك أن ابن قيس الرقيات كان زبيريا متعصبا فى مديحه وولائه لهم ، ولكن بعد أن قضى عبد الملك بن مروان على الزبيريين بقتل عبد الله بن الزبير فى مكة وقتل مصعب فى العراق وانتهت بذلك دولة الزبيريين نهائيا ، عاد فصانع الأمويين ومدحهم فعفا عنه عبد الملك ، فأخذ طريقه الى مصر ، وفيها التقى بواليها عبد العزيز ومدحه .

ولما كانت اقامة عبد العزيز فى « حلوان » من بلاد مصر ، وصف ابن الرقيات حلوان ودعا لها بالسقيا فقال :

سقيا لحلوان ذى الكروم وما	صنف من تينه ومن عنبه
نخل مواقير بالفناء من البر	نى غلب يهتز فى شربه (١٢٨)
أسود سكانه الحمام فما تنـ	ـفك غربانه على رطبه
لتهنه مصر والعراق وما	بالشام من بزه ومن ذهبه
أثن على الطيب بن ليلى اذا أثنيت	فى دينه وفى حسبه
من يصدق الوعد والقتال ويخشى	الله فى حلمه وفى غضبه
ومن تفيض الندى يداه ومن	ينتهب الحمد عند منتهبه

وهكذا كان سطحيا فى مديحه للأمويين ووصفهم ، لأنه كان بقلبه مع الزبيريين حتى بعد موتهم ، وبعقله مع الأمويين سياسة ومداهنة ، وكانوا يعرفون فيه ذلك ، وانتقده عبد الملك بن مروان حينما قال فيه :

يأتلق التاج فوق مفرقه على جبين كأنه الذهب

---

(١٢٨) مواقير : مثقلة . البرنى : نوع من البلح . غلب : متكاثفة .

فقال عبد الملك : يا ابن قيس ، تمدحنى بالتاج كأنى من ملـوك العجم ، وتقـول فى مصعب :

انما مصعب شهاب من اللـ ـــه تجلت عن وجهه الظلماء

فعبد الملك لم يعجبه الوصف بالجمال الحسى ، الذى هو من صفات الأعاجم ، وفضل عليه الوصف بالجمال الذى وصف به ابن الزبـير لأنه أدل على الصفات العربية الأصيلة ، ولذلك حـرم ابن قيس من العطاء ، وان كان قد أعطاه الأمـان وعفا عما سبق منـه حين هجـا الأمويين أيام أن كان تابعا للزبيريين •

هذا وقد كان الشعراء الذين استهوتهم أموال الأمويين كثـيرين منهم:جرير والفرزدق والأخطل وعدى بن الرقاع وأبو دهبل الجمحى القرشى والمتوكل الليثى والكميت بن زيد الأسدى فى آخريات حياته ، وغـيرهم كثيرون •

٨ ـــ الرثـــاء :

الرثاء : مظهر اجتماعى فيه تقـدير للمرثى ووفاء له واعتـراف بفضله ونبله ، كما أن فيه تفجعا وتوجعا لفقده •

وقد حفل الشعر به فى العصرين السابقين على هذا العصر ولذلك كان النظم فى هذا الغـرض فى العصر الأموى تقليدا للنظـم فيه فى العصرين : الجاهلى والاسلامى الأول • وعادة كان الشعراء يبكون فى المرثى شجاعته واقدامه وحكمته النافذة وانتصاراته العظيمة فى الحروب وأنه بموته تموت الشجاعة والعزة وقوة الشكيمة •

كما بكوا فيه كرمه وسخاء يده وعفوه وفضـله ومروءته ، وأنه كان دائما عونا للمحتاجين ، وأن الناس كانوا يقطعون اليه الفيـافى ويتجشمون الصعاب رجاء عطائه ورغبة فى ثوابه •

ولا يبكى الشعراء وحدهم على فقيدهم ، وانما يستبكون الرياض والأزهار ، والأطيار ، ويستمطرون الغيث ويستنزلون الرحمة .. الى غير ذلك من مظاهر الحزن والحسرة والتفجع على المرثى .

والمعروف لـدى الشعـراء سواء فى العصر الأموى أو العصرين السابقين عليه ، أو فيما لحقه من عصـور الأدب ، أن الرثـاء والمديح صـنوان لا يفترقان .

فالمديح : اقرار بمآثر الممدوح ، واظهار لفضله وكرمه فى السلم وفخر بشجاعته واقدامه وقوة بأسه فى الحرب ، فهو كالبحر فى الكرم وكالأسـد فى الشجاعة .

والرثاء : هو أن يبكى الشـاعر فى المرثى هذه الأمور ويسـتبكى معه مظاهر الطبيعة،وأنه بموته قد حرم الأنام من كرمه وشجاعته معا.

واذا كان المدح والرثاء كلاهما ثناء على الميت واعتراف بفضـله فالفارق بينهما يكون فى طريقة الحديث والاسلوب بأن يخلط الشـاعر فى كلامه ما يدل على أن المقصود به ميت ، مثل : رحمة الله عليه كان كذا وكذا ، وعدمنا الفضل بموته .. وهـكذا . والرثاء يكون جيـدا قـويا له دلالته الشـعرية اذا كان صـادق العاطفة ، ولا يكون كذلك الا اذا كانت الفجيعة شديدة والحزن من القلب ، ومشاعر الأسى قوية تخرج من وجدان الشاعر وتمتلك كل مشاعره ، والفجيعة تكون عـلى هذه الصورة فى رثاء الأولاد والأحبـاب ، ومن هم على صلة قريبـة جدا بالشاعر ، أما المراثى العامة فقلما يظهر فيها التفجع والتوجع .

ومن رثاء الأولاد ما قالته أم حكيم زوج عبيد الله بن العبـاس أمير اليمن من قبل الخليفـة الرابع على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، فى رثاء طفليها اللذين ذبحهما بسر بن أرطاة قائد معاوية الذى أرسله الى اليمن ، ففر من وجهـه عبيد الله بن العبـاس ، فعمد الى طفلـيه

الصغيرين فذبحهما بمدية ، فقالت أمهما فى رثائهما تعبر عن فجيعتها وتألمها الشديد :

يا من أحس بابنى اللذين هما ... كالدرتين تشظى عنهما الصدف
يامن أحس يا بنى اللذين هما ... سمعى وقلبى فقلبى اليوم مزدهف
يا من أحس بابنى اللذين هما ... مخ العظام فمخى اليوم مختطف
نبئت بسرا وماصدقت مازعموا ... من قولهم ومن الافك الذى اقترفوا
أنحى على ودجى ابنى مرهفة ... مشحوذة وكذاك الاثم يقترف
حتى لقيت رجالا من أرومته ... شم الأنوف لهم فى قومهم شرف
فالآن ألعن بسرا حق لعنته ... هذا لعمر أبى بسر هو السرف
من دل والهة حسرى مدلهة ... على صبيين حلا اذ غدا السلف

ومن رثاء الأولاد كذلك ، ما قاله جرير فى رثاء ابنه سوادة :

قالوا : نصيبك من أجر فقلت لهم ... كيف العزاء ، وقد فارقت أشبالى
فارقتنى حين كف الدهر من بصرى ... وحين صرت كعظمة الرمة البالى
أمسى سوادة يجلو مقلتى لحم ... بازي صرصر فوق المربأ العالى (١٢٩)

ومن رثاء الأحباب ما قاله جرير أيضا فى رثاء زوجه خالدة بنت سعد :

لولا الحياء لهاجنى استعبار ... ولزرت قبرك والحبيب يزار
ولقد نظرت ، وما تمتع نظرة ... فى اللحد حيث تمكن الأخطار
ولهت قلبى اذ علمتنى كبرة ... وذوو التمائم من بنيك صغار
أرعى النجوم وقد مضت غورية ... عصب النجوم كأنهن صوار
عمرت مكرمة المساك ، وفارقت ... مامسها صلف ولا اقتار
فسقى صدى جدث ببرقة ضاحك ... هزم أجش ودمية مدرار

---

(١٢٩) الاغانى ٨/١٠ .

كانت مكرمة العشير ولم يكن ... يخشى غوائل أم حزرة جار
ولقد أراك كسيت أجمل منظر ... ومع الجمال سكينة ووقار
والريح طيبة اذا استقبلتها ... والعرض لا دنس ولا خوار
صلى الملائكة الذين تخيروا ... والصالحون عليك والأبرار
وعليك من صلوات ربك كلما ... نصب الحجيج ملبدين وغاروا
لا تكثرن اذا جعلت تلومنى ... لا يذهبن بحلمك الأكثار
كان الخليط هم الخليط فأصبحوا ... متبدلين وبالديار ديار
لا يلبث القرناء أن يتفرقوا ... ليل يكر عليهم ونهار

وكان من عادة الشعراء فى العصر الأموى ألا يخلطوا الرثاء بغيره من الأغراض الشعرية الأخرى ، اللهم الا ما كان حكمة أو مثلا يناسب موقعه فى الكلام ، وما الى ذلك مما لا يخرج عن الاطار العام للرثاء ، ولكن جريرا فى هذه القصيدة أضاف الى رثاء زوجه هجاء الفرزدق فاختلط غرضان كانا متباعدين فى معنييهما ، حتى صار الرثاء كأنه مقدمة للهجاء .

ومن اختلاط الرثاء بغيره من الأغراض أيضا فى العصر الأموى ، تلك القصيدة التى نظمها أعشى همدان فى رثاء التوابين(١٣٠) ، وقد استهلها بالغزل على عادة الشعراء فى الجاهلية فقال :

ألم خيال منك يا أم غالب ... فحييت عنا من حبيب مجانب

وظل يتغزل الى أن قال وهو يتحدث عن النساء :

فانى وان لم أنسهن لذاكر ... رزيئة مخبات كريم المناصب(١٣١)

---

(١٣٠) التوابون هنا جماعة من الشيعة ارادوا ان يأخذوا بثأر الحسين فقاتلهم والى العراق عبيد الله بن زياد وهزمهم فى سنة ٦٥هـ .
(١٣١) المخبات : كثير الخشوع لله .

توصل بالتقــوى الى الله صادقا ... وتقوى الاله خير تكساب كاسب
تخلى عن الدنيا وقال اطرحتهـا ... فلست اليهـــا ما حـــييت بآيب

ومن رثاء النفس ما قاله مالك بن الريب المــازنى التميمى يرثى نفسه به قبل موته • وكان مالك فى أول حياته لصا فاتكا ، يقطع الطريق على الناس ويخيفهم ، وحينما ولى معاوية سعيد بن عثمان بن عفان — رضى الله تعالى عنهم — خراسان ، التقى سعيد بمالك وأعجب به ونهاه عن قطع الطريق وإزاء الناس وأجرى عليه خمســمائة دينار فى الشهر ، وجعله من رجاله • ومكث مالك بخراسان مدة ثم أزمع العودة الى بادية تميم بقرب البصرة ، فلما كان فى طريقه اليها ، مرض مرضا شديدا ، وقيل لدغتــه حية • فنظــم فى مرضــه هذه القصـــيدة التى يقـــول فيها :

تذكرت من يبـــكى على فلم أجد ... سوى السيف والرمح الردينى باكيا
وأشقر محبـــوك يجـــر عنانه ... الى الماء لم يترك له الدهر ساقيا
ولكن بأطراف الســـمينة نسوة ... عـــزيز عليهن العشـــية مابيـــا
صريع على أيدى الرجال بقفرة ... يسوون لحدى حيث حم قضائيا
ولما تراءت عنـــد (مرو) منيتى ... وخل بها جسمى وحانت وفاتيـــا
أقول لأصـــحابى ارفعونى فانه ... يقر بعينى أن ســـهيل بداليــــا
فياصاحبى رحلى دنا الموت فانزلا ... برابيـــــة انى مقيـــم لياليـــا
أقيمـــا اليوم أو بعض ليلـــة ... ولا تعجـــلانى قد تبين شـــانيا
وقوما اذا ما استل روحى فهيئا ... لى السدر والأكفان عند فنائيـــا
وخطا بأطراف الأسنة مضجعى ... وردا على عينى فضـــل ردائيـــا
خذانى فجر انى بثـــوبى اليكما ... فقد كنت قبل اليوم صعبا قياديا
وقد كنت عطافا اذا الخيل أدبرت ... سريعا لدى الهيجا الى من دعانيا
وقد كنت صبارا على القرن فى الوغى ... وعن شتمى ابن العم والجار وانيا

ولا تنسيا عهدى خليلى بعـدما — تقطع أوصالى وتبلى عظـاميا
ولن يعـدم الوالون بثا يصيبهم — ولن يعدم الميراث منى المواليـا
ألم ترنى بعت الضـلالة بالهدى — وأصبحت فى جيش ابن عفان غازيا
ان الله يرجعنى من الغزو لأرى — وان قل مالى طالبا ما ورائيـا
يقولون: لاتبعد ، وهم يدفنوننى — وأين مـكان البعـد الا مـكانيا
غداة غد يا لهف نفسى عـلى غد — اذا أدلجوا عنى وأصبحت ثـاويا
وأصبح مالى من طـريف وتالد — لغيرى وكان المال بالأمس ماليـا

وهكذا كان الرثاء فى العصر الأموى كما هو فى كل عصر يتنـوع من حيث التفجع والحسرة على المرثى ، فاذا كان الراثى هو نفسه المرثى ، أو كان المرثى قريبا أو حبيبا كانت المصيبة فيه أشد ، وكان التوجع عليه أقوى وكانت عاطفة الشاعر فى رثائه قوية مشـبوبة لأنه يعبر عن أحاسيس حزينة ومشاعر ملتاعة • أما اذا كان المرثى شخصية عامة أو بعيدا عن درجـة القرابة فان تأثيره فى نفس الراثى يكون أقل من النوع الأول • ولذلك تكون العاطفة لدى الشاعر هى الأخرى أقل فى توجعها وانفعالها من عاطفة الشاعر صاحب المصيبة •

وأيضا تنوع الرثاء بين القصائد المستقلة به وبين القصائد التى استهلت بالغزل على عادة الشـعر الجاهلى ، وان كانت الاسـتهلالات بالغزل قليلة فى عصرنا هذا الذى ندرسه ، ولا أحد من الشعراء غـير جرير أضاف الى الرثاء موضـوعا آخر ، كما فعـل هو فى رثاء كأنه مقدمة للهجاء • وهذا أمر لم يتكرر لدى الشعراء •

٩ ـ الوصـف :

هذا الغرض أيضا من الأغراض القدمية التى نظم فيها الشـعراء فى العصرين السالفين ، وقد اتسع لما لم يتسع اليه غيره من الأغراض وبلغ مبلغا عظيما ، وشمل فى ثناياه أشياء جديدة وقعت عليها عيـون

الشعراء فى البلاد المفتوحة ، وبعضها أصبح مستخدما لديهم بحكم الثراء الذى عمهم من فتوحاتهم ، ولذلك نظموا فى موضوعات كثيرة واستعملوا صورا بعضها قديم منتزع من الصحراء وبعضها جديد منتزع من حياتهم الجديدة • فنجد فى شعرهم وصفا للذئب والحية والفهد والجرذان والسنانير والضباع والأسود ووصفا لأدوات الحرب المعروفة لديهم من السيوف والرماح والقسى وكذا الخيول والجمال • كما نجد وصفا لحياتهم الجديدة التى عاشوها بما فيها من ألوان ومظاهر جديدة ، فصوفوا الجداول وبناء القصور ، وألوان الترف فى الثياب والطعام ، والأعياد ونظام الاحتفال بها على غير ما تعودوه فى بواديهم ، ووصفوا كذلك أدوات الكتابة التى أهمها القلم والقرطاس ، وهذا دليل على اتساع موجة الثقافة فى هذا العصر ، ومن ذلك قول المقنع الكندى يصف قلما :

قلم كخرطوم الحمامة مائل مستحفظ العلم من علامه
يسم الحروف اذ يشاء بناءها لبيانها بالنقط من أرسامه
وبأنفه شق تلاؤم فاستوى سقى المداد فزاد فى تلامه
مستعجم وهو الفصيح بكل ما نطق اللسان به على استعجامه
وله تراجمة بألسنة لهم تبيان ما يتلون من ترجامه

ويقول ذو الرمة فى وصف الصحراء وفى وصف حال المسافرين فيها أيام الحر الشديد فى الصيف :

وساجرة السراب من المواسى ترقص فى عساقلها الأروم (١٣٢)

---

(١٣٢) ساجرة السراب : مملوءة بالسراب • العساقل : السراب • الاروم : الاعلام

تمـوت قطا الفلاة بهـا أواما ويهلك فى جوانبها النسـيم(١٣٣)
بهـا غـدر وليس بهـا بلال وأشـباح تجول ولا تريم(١٣٤)
قطعت بفتيـة وبيعمـلات تلاطمهن هـاجرة هجـوم(١٣٥)
نلـوث على معـارفنا وتـرمى محاجرنا شآمية سـموم(١٣٦)
ونرفع من صـدور شمردلات يصمك وجوهها وهج أليم(١٣٧)
تلثم فى عصـائب من لغـام اذا الأعطاف ضرجها الحميم(١٣٨)
وقـد أكل الوجيف بـكل خرق عرائكها ، وهلت الجـروم(١٣٩)

ويصف حندج بن حندج المرى مدينة صول فيقول :

فى ليل صول تناهى العرض والطـول
كأنمـا ليله بالحبـل موصـول
لا فارق الصـبح كفى ان ظفـرت به
وان بدت غـرة منـه وتحجيـل

---

(١٣٣) القطا : الحمام ، الأوام : العطش .

(١٣٤) غدر : جمع غدير . البلال : الرى . لا تريم . لا تبرح مكانها .

(١٣٥) يعملات : نوق . الهاجرة : نصف النهار عند اشتداد الحر .

(١٣٦) نلوث على معارفنا : نضع العمائم على وجوهنا . شامية : ريح من جهة الشام .

(١٣٧) شمردل : ابل طوال . يصك : يضرب .

(١٣٨) تلثم : أى تتلثم الابل بالرغاء ، الابيض ، الخارج من فمها، فى حين يعم جوانبها العرق الحار كأنه الحميم .

(١٣٩) وقد ذهب السير فى فجاج الصحراء باسمنتها ، وأنحفها حتى صارت هذه الابل كالاهلة .

لســـاحر طـــال فى صـــول تململـــه
كأنــه حيـــة بالســـوط مقتـــول
متى أرى الصـــبح قد لاحت مخـــايله
والليـــل قـــد مزقت عنـــه السرابيل
ليـــل تحـــير ما ينحـــط فى جهـــة
كأنه فـــوق متـــن الأرض مشـــكول
نجـــومه ركـــدت ليست بـــزائلة
كأنمـــا هـــن فى الجـــو القنـــاديل
ما أقـــدر الله أن يـــدنى عـــلى شـــحط
من داره الحـــزن ممن داره صـــول
الله يطـــوى بســـاط الأرض بينهما
حتى يـــرى الربـــع منه وهو مأهـــول

ولم يتوقف الوصف عند المحسوسات التى ما أكثرها فى الشـــعر العربى وانما تطرق الشعراء فى وصفهم الى حالات النفس وما يـــدور فيها والى المعنويات بكافة أشكالها ، فوصف الشعراء الغيرة والخـــوف والضيق وكثيرا من الأمور الحسية والمعنوية التى تؤدى الى الانفعالات النفســـية .

ومن ذلك ما أنشده حطان بن المعـــلى يصف فقره وحال الدهـــر معه ، ولولا بناته ورعايته لهن وخوفه عليهن لضرب فى الأرض بحثـــا عن الغنى فيقـــول :

أنزلنى الدهـــر على حكمـــه ... من شـــامخ عـــال الى خفض
وغـــالنى الدهر بوفر الغنى ... فليس لى مـــال سوى عرضى
أبـــكانى الدهر ، ويا ربمـــا ... أضـــحكنى الدهـــر بما يرضى
لولا بنـــات كزغب القطـــا ... رددن مـــن بعض الـــى بعض

كأن لى مضطرب واسع · فى الأرض ذات الطول والعرض
وانما أولادنا بيننا · أكبادنا تمشى على الأرض
لو هبت الريح على بعضهم · لامتنعت عينى من الغمض

ويتعمق الشعراء فى وصف الانفعالات النفسية أكثر من ذلك فيصف عمر بن أبى ربيعة غيرة امرأته عليه ظنا منها بأنه تزوج عليها فيقول :

خبروها بأننى قد تزوجـ · ـت فظلت تكاتم الغيظ سرا
ثم قالت لأختها ولأخرى · جزعا : ليته تزوج عشرا
وأشارت الى نساء لديها · لا ترى دونهن للسر سترا
ما لقلبى كأنه ليس منى · وعظامى كأن فيهن فترا
من حديث نما الى فظيع · خلت فى القلب من تلظيه جمرا

واذا كان عمر يصف نفسية زوجته وغيرتها الشديدة ، فان مسكين الدارمى يسجل رأيه الشخصى فى هذه الغيرة فيقول :

ألا أيها الغائر المستشيط · فيم تغار اذا لم تغر ؟
فما خير عرس اذا خفتها · وما خير عرس اذا لم تزر ؟
تغار على الناس أن ينظروا · وهل يفتن الصالحات النظر ؟
وانى سأخلى لها بيتها · فتحفظ لى نفسها أو تذر
اذا الله لم يعطنى حبها · فلن يعطى الحب سوط ممر(١٤٠)

الى غير ذلك من الأوصاف العامة والكثيرة التى أفاض فيها الشعراء فلم يتركوا شيئا مما وقعت عليه أعينهم أو أحسوه بمشاعرهم الا وصفوه .

---

(١٤٠) الاغانى ٢٠/٢٠٧ .

ويجرنا الحديث عن الوصف العام لجميع الأشياء • الى الحديث عن وصف الخمر خاصة ، وعن ساقيها وشاربها ومجالسها وأوانيها وندمائها ورائحتها وكل ما يخصها • فقد انتشرت انتشارا كبيرا فى هذا العصر ، وكثر حديث الشعراء عنها ووصفهم لها • وفى أوقات كثيرة كان الشعراء يستبدلونها بالغزل فى مقدمات القصائد أو يأتون بها بعد المقدمات الغزلية كما هو الحال مع الأخطل التغلبى النصرانى الذى كان يشربها وتفوح رائحتها من فيه فى مجلس عبد الملك بن مروان ، يقول الأخطل:

خف القطين فراحوا منك أو بكروا ... وأزعجتهم نوى فى صرفها غير
كأننى شارب يوم استبد بهم ... من قهوة ضمنتها حمص أو جدر
جادت بها من ذوات القار مترعة ... كلفاء ينحت عن خرطومها المدر(١٤١)

ولما كانت الخمر تفقد شاربها صوابه وحيويته وسيطرته على نفسه وأعضائه ، وصفها الأخطل على حالتها هذه فقال :

صريع مدام يرفع الشرب رأسه ... لتحيا ، وقد ماتت عظام ومفصل
تهاديه أحيانا ، وحينا تجره ... وما كان الا بالحشاشة يعقل
اذا رفعوا عظما تحامل صدره ... وآخر مما نال منها مخبل(١٤٢)

ويصف الوليد بن يزيد بن عبد الملك الخمر فيقول :

اصدع نجى الهموم بالطرب ... وانعم على الدهر بابنة العنب
واستقبل العيش فى غضارته ... لا تقف منه آثار معتقب

---

(١٤١) الاغانى ٢٩٣/٨ •
(١٤٢) المصدر السابق ٢٩٦/٨ •

من قهـــوة زانها تقـــادمها ... فهى عجوز تعلو على الحقب
أشهى الى الشرب يوم جلوتها ... من الفتـــاة الكريمـــة النسب
فقـــد تجلت ورق جـــورها ... حتى تبدت فى منظـــر عجب
فهى بغـــير المـــزاج من شرر ... وهى لدى المزج سائل الذهب
كأنهـــا فى زجاجهـــا قبس ... تذكو ضـــياء فى عين مرتقب
فى فتيـــة من بنى أميـــة أهـــ ... ـل المجد والمأثرات والحسب(١٤٣)

ويتحدث ابن أرطاة الى امرأته التى لامتـــه لمبيتـــه خارج البيت ظنا منها أنه تزوج غيرها • فأجابها بأنه يغيب عنها فى مجلس الشراب، وأنه فيه نديم ماجد ، لا يقذف أحدا ببهتان فيقول :

لا تعدمينى نديمـــا ماجدا أنفا ... لا قائلا قاذفا خلقا ببهتـــان
أغر راووقه صـــهباء صافية ... تنفى القذى عن جبين غير خزيان
سبيئة من قرى بيروت صافية ... عذراء، أو سبئت من أرض بيسان
انا لنشربها حتى تميـــل بنا ... كما تمايل وسنان بوسنان(١٤٤)

وينصح ابن أرطاة ، ابن عمه الحـــارث بن سريع بشرب الخمـــر وترك شرب النبيذ فيقول :

دع ابن سريـــع ما مـــات مـــرة ... وخذها سلافا حيـــة مزة الطعـــم
تدعك على ملك ابن ساسان قادرا ... اذا حرمت قراؤنـــا حلب الـــكرم
فشتان بين الحى والميت فاعتزم ... على مزة صـــفراء راووقها يهمى
فان سريعا كان أوصى بحبهـــا ... بنيه ، وعمى جاوز الله عن عمى
ويا رب يوم قد شهدت بنى أبى ... عليها الى أن غاب تالية النجـــم
حسوها صلاة العصر والشمس حية ... تدار عليهم بالصغير وبالضـــخم

---

(١٤٣) المصدر نفسه ١٩/٧ .
(١٤٤) المصدر السابق ٢٥٦/٢ .

فماتوا وعاشوا والمدامة بينهم مشعشعة كالنجم توصف بالوهم(١٤٥)

الى غير ذلك من الأوصاف الكثيرة للخمر التى تعرض لها الشعراء فقدم بها بعضهم لقصائدهم ، وأفردها بعضهم فى قصائد ومقطوعات خاصة بها • وأفاضوا فى وصفها كلون من الترف والبذخ الذى عاشوا فيه وقلدوا الأعاجم فى تمثله فى العصر الأموى •

وبعد : فهذه أغلب الأغراض الشعرية التى نظم فيه شعراء العصر الأموى ، وكان بعضها جديدا كله كالشعر السياسى والشعر الشعوبى ، وبعضها كانت له جذور قديمة امتدت من العصر الجاهلى الى ما بعده من عصور ، وأضيف اليها فى العصر الأموى مما جعلها جديدة ، أو ماجد على ما سبق فيها من المعانى والأفكار وطريقة النظم كالنقائض والغزل العذرى والأراجيز والزهد ، وهذا بالاضافة الى الأغراض التقليدية كالغزل والمدح والرثاء والوصف وغيرها من الأغراض • وكلها كانت تحمل فى محتواها أفكارا ومعانى جديدة ، وموضوعاتها ومضامينها جديدة تختلف بها عما نظمه الشعراء تحت نفس الأغراض فى العصر الجاهلى ، وصدر الاسلام ، وما قدمناه من نماذج للنظم فى هذه الأغراض فهى على سبيل التمثيل لا الحصر • فنماذج هذه الأغراض هى الشعر كله أو جله ، وهى أكبر من أن تحصى فى كتاب وتحت فصل منه •

---

(١٤٥) المصدر نفسه ٢٥٧/٢ •

الفصل الرابع

الخصائص الفنية لشعر العصر الأموى

حين نتعرض للحديث عن الخصائص الفنية التى يتميز بها شعر العصر الأموى عن شعر العصرين السابقين فاننا نتناول بالحديث : الاسلوب والألفاظ والمعانى والأخيلة والبناء الفنى للقصيدة والموسيقى الشعرية التى تأتى من الوزن والقافية ومؤالفة الألفاظ مع المعانى • وهاهى الخصائص الفنية :

الاسلوب :

هو : طريقة الشاعر والكاتب والخطيب فى التعبير عن معانيه وأفكاره وتوصيلها الى قرائه ومستمعيه •

وهناك تعريفات عدة للاسلوب وكلها تدور حول ما ذكرناه فى معناه • منها تعريف ابن خلدون له بأنه « المنوال الذى ينسخ فيه التراكيب ، أو القالب الذى يفرغ فيه »(١) •

ومنها تعريف الشايب له بأنه : « طريقة التفكير والتصوير والتعبير »(٢) •

ومنها تعريف الدكتور خفاجى له بأنه « نهج الكاتب والشاعر فى صوغ أدبه وشعره وأداء أفكاره ومعانيه ، والطريقة التى يسير عليها فى اختيار كلماته وتراكيبه وما يؤثر فى لغة تعبيره وتصويره من

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٥٧٠ •

(٢) الأسلوب ص ٣٣ وما بعدها •

سهولة أو غرابة ، ومن عذوبة أو جزالة ومن وضوح أو خفاء ، وطبع أو صـــنعة »(٣) .

أو هو : « الوسيلة التى ينقل بها الأديب والشاعر فكرتهوعاطفته وآراءه ومعانيه الى الناس ، ومقياس جودة الاسلوب هو القدرة على نقل ذلك التعبير عنه بدقة وقوة تأثير »(٤) .

وقد ذكر الدكتور خفاجى مميــزات الاسلوب الشعرى فقــال : « ويمتاز اسلوب الشعر بما فيه من حرارة وعاطفة وقوة تأثير ولطف تخييل ، وما يشتمل عليه من طبع وصدق واخلاص ، وقدرة على الهاب المشاعر ، وتأجيج العواطف ، واثارة الانفعالات النفسية العميقة»(٥).

ولما كان الاسلوب هو القالب والشكل الذى يجمع فى محتــواه : اللفظ والمعنى والصورة والخيال ، وكل ذلك يكون فى قالب غنى واطار يشمله من البناء الفنى الذى يتمثــل فى الوزن والقــافية . فلابد من الوقوف على هذه الأمور جميعها وهاهى :

الألفـــــاظ :

ولا شك أن الألفاظ التى انتظم منها الشعر الأموى كانت حصيلة تيارات مختلفة وعوامل متعددة ، أثرت جميعها فيها . واللغة العربيـــة لم تكن لغة العصر الأموى ، ولكنها كانت لغة العصر الجاهلى بالطابع البدوى الغالب عليه ،ولذلك كانت اللغة فى الجاهلية تميل الى خشـــونة البداوة وجهامة الصحراء ووعورة الصـــخور التى عليها يعيش جمـــع كبير من الشعراء الجاهليين . فلما كان العصر الأموى وظلت البـــادية

(٥،٤،٣) دراسات فى تاريخ الأدب العربى ص ١١٧ ، ١١٨ .

شبه مغلقة الا من تأثير الاسلام عليها ظل الشعراء البدويون فى أغلب شعرهم يصدرون عن نزعات وطبائع بدوية وبخاصة فى الوصف ، واذا كان الشاعر يصف ما تقع عليه عينه ، فالشاعر البدوى لا تقع عينه الا على ما هو فى بيئته ، فيصف الصحراء والناقة والحمر الوحشية وغيرها من الحيوانات المألوفة وغير المألوفة ، كما يصف مخاوف الطبيعة ومطرها وغير ذلك من الأمور التى يشاهدها وتقع عليها عينه بألفاظ غريبة وحشية لا تقل وعورة عما كان معروفا لدى الجاهليين فى أوصافهم، ومن ذلك قول ذى الرمة ــ وهو شاعر بدوى أصيل ــ فى وصف ناقته صيدح(٦) :

اذا ارفض أطراف السياط وهللت ... بجروم المطايا عذبتهن صيدح(٧)

لها أذن حشر وذفرى أسيلة ... وخد كمرآة الغريبة أسجح(٨)

وعينا أحم الروق فرد ومشفر ... كسب اليمانى جاهل حين تمرح(٩)

ورجل كظل الذئب ألحق سدوها ... وظيف أمرته عصا الساق أروح(١٠)

ويقول أيضا فى وصف الناقة(١١) :

قطعت على مضبورة أخرياتها ... بعيدة ما بين الخشاشة والرحل(١٢)

---

(٦) ديوان ذى الرمة ص ٧٧ .

(٧) ارفض : تقطع وتكسر . هللت : خمرت . جروم : أجساد .

(٨) أذن حشر : محدودة لطيفة . الذفرى : ما خلف الأذن أسيلة : ملساء مستوية . مرآة الغريبة : أى المرآة الغريبة أسجح : حسن لين .

(٩) أحم الروق : أسود القرون . كسب اليمانى : جلود البقر . جاهل : تضطرب .

(١٠) السدو : رفع اليدين فى السير .

(١١) ديوان ذى الرمة ص ٦٦٧ .

(١٢) مضبورة : مجتمعة الخلق . الخشاشة : ما يدخل فى عظم أنف البعير .

غريبة كالقليب أو داعرية زجول تباري كل معصوصب هقل(١٣)

كذلك غلب الغريب الحوشي على ألفاظ الفخر والهجاء ، وتخلل الغريب بعض الأغراض الشعرية ، وان كانت الرقة والليونة هي الأغلب وهذا كله من تأثير الجاهلية ولغتها في اللسان البدوي ابان العصر الأموي .

وحينما جاء الاسلام ونزل القرآن الكريم بنفس اللغة التي صاغوا منها شعرهم وبأسلوب فريد أعجزهم عن الاتيان بمثله وسيظل معجزا الى أن يرث الله الأرض ومن عليها . وقد كان للقرآن الكريم تأثيره في اللغة التي استخدمها الناس عامة والشعراء خاصة ، ولذلك ظهر هذا الأثر واضحا ، روحا ومعنى في عباراتهم وأساليبهم في جميع أغراضهم ، وبخاصة في الحكمة والزهد والتضرع الى الله تعالى ، وكذا في الفخر بالنبيين والانتساب اليهم . من مثل قول ذي الرمة الشاعر البدوي الذي مثلنا بنماذج من شعره في الوصف كدليل على أثر الجاهلية بغريب ألفاظها وحوشيها في لسانهم وتعبيراتهم ، أما اذا عبر الواحد منهم عن موضوعات اسلامية أو للاسلام أثر فيها فان ألفاظها تكون رقيقة عذبة وعباراتها سلسلة سهلة قريبة من الفهم والادراك .

يقول ذو الرمة في مناجاة ربه :

يا رب قد أشرفت نفسي وقد علمت
علما يقينا لقد أحصيت آثاري

---

(١٢) مضبورة : مجتمعة الخلق . الخشاشة : ما يدخل في عظم انف البعير .

(١٣) داعرية : منسوبة الى فحل منجب . زجول : سريعة . معصوصب : جاد في السير . هقل : الهقل الفتى من النعام .

يا مخرج الروح من جسمي اذا إحتضرت
وفارج الكرب زحزحني عن النار(١٤)

ويقول في الفخر بانتسابه الي النبي — صلي الله عليه وسلم — في فهو من معد والنبي صلي الله عليه وسلم منهم :

أنا ابن النبيين الكرام ومن دعا	له الشيخ ابراهيم والشيخ يذكر
ليالي تحتل الأباطح جدهم	واذا بأبيننا كعبة الله تعمر
نبي الهدى منا وكل خليفة	فهل مثل هذا في البرية مفخر
أنا ابن معد وابن عدنان انتمي	الى من له في العز ورد ومصدر
وكل كريم من أناس سدوثنا	اذا ما التقينا خلفنا يتأخر(١٥)

وقد مرت بنا نماذج من شعر الخوارج الذي كان أكثره في الزهد ومجاهدة النفس والأعداء والابتهال الى الله تعالى والتقرب منه سبحانه ، وقد كثرت المعاني القرآنية التي تأثر بها الشعراء في نظمهم ، كما كثرت الاقتباسات ، وذلك لا يكون الا مع رقة الألفاظ وعذوبتها حتى يسهل استيعابها للمعاني القرآنية بألفاظها العذبة الرقيقة • ولم يكن القرآن وحده هو صاحب التأثير في شعرهم ، بل كان الحديث الشريف كذلك له أثره الواضح في لين طبعهم ورقة ألفاظهم وعذوبة منطقهم • وبهذا يكون الاسلام له أثره العظيم في الأدب العربي بشعره ونثره ، سواء في معانيه أو في ألفاظه وتراكيبه ولم يكن هذا الأثر في شعر الحضريين فقط ، بل امتد أيضا الى البادية(١٦) ، وشعر ذي الرمة السابق أكبر دليل على ذلك •

(١٤) ديوان ذى الرمة ص ٦٦٧ •
(١٥) المصدر نفسه ص ٢٣٦ • وسوائنا : يقصد سوانا •
(١٦) راجع : كتابنا « أثر الاسلام في الشعر في عصر الرسول والخلفاء الراشدين » الطبعة الأولى • مطبعة الأمانة بالقاهرة • نشر دار المعارف •

واذا كان هذا الأثـــر اللفظى فى بعض الأغراض دون بعضـــها فى البادية فهو فى جميع الأغراض فى الحضر .

كذلك كان هناك من الأغراض التى لا يناسبها الا الرقـــة واللين لا فى الألفاظ وحدها ، ولكن فى الطبع والنفس والخلق ، وهو الغـــزل بجميع أنواعه سواء منه التقليدى الذى تستهل به القصائد أو الاباحى القصصى ، أو العذرى . وذلك لأن الغـــزل وصف للمرآة ، والمـــرأة مخلوقة رقيقـــة فلا يناسبها الا الرقـــة . ولذلك كان الغزل من دواعى الرقة فى الألفاظ والأساليب فى العصر الأموى .

ولكن على الرغم من أن الغزل العذرى بيئته البادية بما فيهـــا من خشونة وغلظة الا أنه كان أكثر رقة وعذوبة وأكثر لينا وسلاسة،وأقرب الى النفس والروح من غيره من أنواع الغزل . وذلك لأن ما عليـــه من مسحة التصوف ، وما فيه من شفافية الروح والنفس ، كانت تسمو به فوق عالم الغرائز والشهوات الى عـــالم الأحاسيس والمشاعر العفـــة الطاهرة التى تعود فى أكثرها الى الدين وقيمه الأخلاقية الرائعة.ولما كان الدين يرقق الطبع ويهذب النفس ، فقد وضحت هذه الرقة وذلك التهـــذيب فى الغزل العذرى أكثر من غيره .

وقد مر بنا قسم جميل بثنية والتزامه بمبادىء الدين حين يقول:

لا ، والذى تسجد الجباه له ما لى بما دون ثوبها خـــبر
ولا بفيهـــا ، ولا هممت به ما كان الا الحديث والنظـــر

وكان هناك تيار ثالث له أثـــره فى الشعر الأموى ، وهو تيـــار الأعاجم الذين دخلوا الاسلام بما يحملون من ألفاظهـــم وأفـــكارهم ومعانيهم ، وكذلك كان لاختلاطهـــم بالعرب واختلاط العرب بهـــم أثر كبير فى ترقيق اللغة وازدياد الدخيل من لغاتهم فيها ، ولكثـــر الألفاظ

الدخيلة كانت من الفارسية ، لأن الفرس كانوا أكثر الأعاجم دخولا في الاسلام واختلاطا برجاله ، وكان من الألفاظ الفارسية التي دخلت اللغة العربية واستعملت فيها ضمن مفرداتها : « الكوز ، والابريق والخوان ، والطبق ، والبلور ، والخز والديباج والياقوت والفيروز والزمرد والكعك والفلفل والجوز واللوز والزنجبيل والقرفة والنرجس والنسرين والسوسن »(١٧) •

ولما أكب الأعاجم على لغة الدين الذي اعتنقوه ، ولغة العرب الذين هيمنوا عليهم ، بالاضافة الى أن العرب ، قد تركوا للأعاجم مهنة التدوين والتأليف والترجمة والعمل في الوظائف الديوانية التي يجل عنها العرب ، فكان لابد لهم أن يعكفوا على اللغة العربية حفظا وفهما ودراسة حتى أصبحوا فيها كالعرب سواء بسواء ، وحتى صار منهم علماء في اللغة والدين •

ولما كانوا في بداية الأمر غرباء على العرب ولغتهم ، ثم أكبوا عليها يتعلمونها ويفهمونها ويستخدمونها في كتاباتم وخطاباتهم ومحاكاتهم وجميع أمورهم ، فقد حفظوا من اللغة العربية الرقيق والحوشي واستخدموهما معا ، فكانت أشعارهم وكتاباتم وسطا بين لغة الحضر ولغة البادية في جميع أغراض شعرهم ، اللهم الا ما كان منه غزلا أو موضوعا من موضوعات الدين أو التي تعود اليه ، فان الرقة كانت تغلب عليهم حينئذ •

وقد علمنا مسبقا أن الرجازين في العصر الأموي وبخاصة العجاج وابنه رؤبة كانوا يكثرون من الغريب والغليظ من ألفاظ اللغة لتعليم

---

(١٧) فجر الاسلام ص ١١٧ • أحمد أمين •

الأعاجم اللغة العربية كما هى فى البادية • ولا شك أن ذلك كان له أثره فى لغاتهم • فهم قد أمدوا اللغة العربية بالجديد من الألفاظ والمعانى والأفكار ، وأمدتهم اللغة العربية أيضا بالجديد عليهم من الألفاظ العربية وعذوبتها وسلاسة أساليبها وأناقتها •

وبعد هذا كله نستطيع أن نقول : ان الموضوعات التى نظم فيها شعراء البدو ، ولها اتصال بالبادية يغلب عليها الجزالة والفخامة من الألفاظ بل الغريب الحوشى منها • والموضوعات التى نظم فيها شعراء من الحضر يغلب عليها الرقة والعذوبة ، وان تخللها أحيانا بعض الألفاظ العربية •

هذا كله عدا الغزل والموضوعات الدينية ، أو التى لها اتصال بالدين ، فان ألفاظها رقيقة شجية سلسلة ، فيها أثر الاسلام وتهذيبه ولا يفترق فيها البدو عن الحضر ، بل ان شعراء البادية أرق وأعذب فى الغزل العذرى منهم فى غزلهم التقليدى والاباحى •

المعانى والأخيلة :

عرفنا أن مادة الشعر هى اللفظ المعبر عن المعنى بطريقة فى الصياغة تعرف بالاسلوب • وقد تحدثنا عن اللفظ والاسلوب • اما المعنى : فهو الفكرة وهو الخاطرة وهو الصورة الفنية التى تأتى الشاعر كما تأتى الأديب فيعبر عنها بالعبارة المناسبة لها ويضعها فى مكانها اللائق بها • والمعنى حينما يكون جديدا فانه يقع من النفس موقعا حسنا ، ويأخذ حظه من الاهتمام عند الشاعر أولا ، ثم عند السامع والقارىء ، بعد صياغته واخراجه الى حيز الواقع ، وهذه المعانى الجديدة قد تكون جزئية تصاغ فى بيت أو فى شطر من بيت وهذه تنسب لصاحبها ، ويوصف شعره بالجودة والرقى كلما أكثر منها •

وقد تكون المعانى الجديدة كبيرة وعامة يطرقها كل شاعر من شعراء العصر ويتفنن فى السبق فيها على غيره من الشعراء • وهذا النوع من المعانى أوجدته ظروف العصر وموضوعاته الجديدة التى لم يسبق بها العصر الأموى ، كالشعر السياسى الذى اقتضته الصراعات الحزبية ، والشعر الشعوبى الذى فرضته العصبية العربية ضد الأعاجم فأجبروا على رد الفعل ، وكالموضوعات التى لها جذور قديمة ولكن غلبة المعانى الجديدة عليها جعلتها فى حكم الجديدة كالغزل العذرى والغزل القصصى والنقائض والزهد والرجز وغيرها من الموضوعات التى كثرت فيها الصور الفنية الجديدة • وقد كان الأثر الاسلامى واضحا فى تعبيراتهم عن موضوعاتهم الجديدة ومعانيهم الجديدة • ومن ذلك قول الكميت بن زيد الأسدى فى بنى هاشم :

خفضت لهم منى جناحى مودة   الى كنف عطفاه أهل ومرحب

فالشطر الأول من البيت مأخوذ من قول الله تعالى : « واخفض لهما جناح الذل من الرحمة »(١٨) والبيت كله فى التواضع لأهل البيت •

ويقول الكميت فى القصيدة نفسها :

يعيبوننى من خبهم وضلالهم   على حبكم بل يسخرون وأعجب

والشطر الثانى مأخوذ من قول الله تعالى : « بل عجبت ويسخرون »(١٩) •

---

(١٨) الاسراء : ٢٤ •
(١٩) الصافات : ١٢ •

وفى القصيدة نفسها ما شهد به الجاحظ للكميت من الحجـــاج والجدال العقلى بالشعر • وذلك قوله :

فان هى لم تصـــلح لحى ســـواهم
فـــان ذوى القـــربى أحـــق وأوجـــب
يقـــولون : لم يـــورث ، ولولا تراثه
لقـــد أشركت فيه « بكيل » و « أرحب »

وغير ذلك كثير من المعانى الجديدة فى الشعر الأمـــوى ، والتى كان الشعراء متأثرين فى معظمها بالنزعة الاسلامية(٢٠) •

أضف الى هذا ما وقع للعرب فى الفتوحات الاسلامية من معان جديدة عبروا عنها وصـــاغوها بلغتهم العربيـــة • كـــذلك حـــين أكب الأعاجم على اللغة العربية وتعلموها صـــاغوا بها شعرا عربيا جـــزلا قويا فيه الكثير من الصـــور الفنيـــة الجديدة التى عـــادوا فيهـــا الى ثقافاتهم وحضاراتهم التى تركوها الى الاسلام وبلاد العرب ووظائفهم

ولكن الغـــالبية العظمى من أغراض الشـــعر فى هذا العصر كانت تقليدية قديمة ، ومن ثم كانت المعانى والصور معظمها قديمة • ولـــكل من البادية والحضر دور هام فى صياغة هذه المعانى والباسها الثـــوب المناسب للحضر أو البادية • والخيال ــ وهو ما يعتمد على التشـــبيه والاستعارة والكناية ــ له دوره فى ابراز القيمة الفنية للمعنى ، وكلما كان خيال الشاعر خصبا واسعا كلما ساعده على الاختراع والتـــوليد واظهار المعانى والصور القـــديمة التى ترددت فى الشـــعر القـــديم

---

(٢٠) راجع مجلة كلية اللغـــة العربية بالزقازيق ــ العـــدد الســـابع ١٩٨٧ م بحث للدكتور محمد عبد المنعم العربى بعنوان (الشعر فى العصر الأموى) ص ٣٦ وما بعدها •

وكذا البسيطة التى تخلو من التعقيد ، فى صورة جديدة أو كأنهـا من جما الصياغة وحسن التعبير جديدة •

انظر فى ذلك الى ذى الرمة وهو يصور الهم الشديد الـذى لحق به من شدة الفقر والحرمان فجعله شارد العقل والوجدان ، يجـلس على الأرض يخط فى التراب باصبعه — دون وعى منه لما يفعله — ثم يمحو الخط بكفه ، ثم يعيد الخط مرة ثانية • وهكذا ، ولا يصـل الى شىء مما شرد عقله فيه يقول فى ذلك :

عشـية مالى حيـلة غـير أننى بلقط الحصى والخط فىالتربمولع
أخط وأمحو الخط ثم أعيـده بكفى والغربان فى الدار وقـع

صورة بسيطة ولكنها رائعة التصوير والتعبير •

ومن ذلك أيضا قول المجنون « قيس بن الملوح » ، فى تصـوير خفقان القلب ، والتصوير لا يتضح ولا يكتمل هنا الأ بالتشبيه حـيث يشبه القلب فى خفقانه بالقطـاة التى تجـاذب الشرك بجناحيها وقـد وضعت فيه ، وجناحاها معلقان به ، فيقول :

كأن القلب ليلـة قيـل يغدى بليـلى العـامرية أو يـراح
قطاة عـزها شرك فبـاتت تجاذبه وقـد علق الجنـاح

ومن ذلك أيضا قول جرير يصور عين المرأة بأنها — على ضـعفها قاتلة للرجل القوى العاقل الذى لا يملك نفسه ومشاعره أمام لحاظهـا وجاذبيـة نظرتها :

ان العيون التى فى طرفهـا حور قتلننـا ثم لا يحيين قتـلانا
يصرعن ذا اللب حتى لاحراك به وهن أضعف خلق الله انسـانا

وصور المديح بالشجاعة والكرم فى الشعر العربى كثـيرة ، وكلها مقبولة لا بأس بها ، ولكن حـين يتصرف الشاعر فى الاسـلوب ويأتى

بالمعنى المتداول فى صورة تقريرية ثابتة تدعو الى التسليم بها واثبات أحقية صاحبها فيها دون غيره من العالمين •

فهذا أمر جميل وتصوير عجيب • ومن ذلك قول جرير فى مديح عبد الملك ابن مروان :

ألستم خير من ركب المطـــايا ... وأنـــدى العالمين بطون راح ؟

ومن جمال التصوير فى هذا البيت قالوا عنه : انه أمدح بـــيت قالته العـــرب •

والمديح يقابله الهجاء ، وكما قال جرير أمدح بيت ، قال أيضـــا أهجى بيت قالته العرب • وهو البيت الذى هجا فيه الراعى النمـــيرى بضعة قبيلته وحقارتها ، فغير مسموح له بأن يرفع رأسه ونظـــره ، اذ لم تبلغ قبيلته أقل القبائل شرفا ورفعة وهما قبيلتا كعب وكلاب• يقول جرير بصيغة الأمر وادعاء الثقة فى حقارة النميرى :

فغض الطرف انك من نمير ... فلا كعبا بلغت ولا كلابا

وكثير من الصور والمعانى القديمة التى سبق بها شـــعراء العصر الأموى غير أنهم بحسن تصرفهم فى المعـــانى ولباقتهم فى التصـــوير ، أخرجوا هذه المعانى فى صور جديدة وجذابة • ومن ذلك أيضا تصوير كثير عزة الأمل المرتجى الذى يعيد المياة الى مجاريها بينه وبين عـــزه بعد أن انقطعت العلاقة بينهما ويشبه ذلك بالغمامة التى يراهـــا من بعيد فيأمل بأن تظلله ، وبالسحابة التى يرجو ماءها ولكنها انقشـــعت دون تحقيق آماله ، فلم يظلل فى حر الظهيرة ، ولم يسق بماء المطر ، ولم تعد اليه عزة كما يريد • يقول كثير :

وانى وتهيـــامى بعزة بعدما ... تخليت عمـــا بيننـــــا وتخلت

لكالمرتجى ظل الغمـامة كلما   تبوأ منهـا للمقيـل اضمحلت
كأنى وإياها سـحابة ممحل   رجـاها فلما جاوزته استهلت

ومن المعانى العميقة التى أضفى عليها العمق جدة وجمالا قـول ذى الرمـة :

وغبـراء يقتات الأحـاديث ركبهـا
وتشفى ذوات الضغن من طائف الجهل
ترى قـورها يغـرقن فى الآل مـرة
وآونة يخـرجن من غـامر ضـحل

يصور الشاعر الصحراء بأنها فسيحة الأطراف واسعة المـدى ، متشابهة النواحى ، لا يهتدى فيها السالك ، وليس بها قوت ولا ماء ، وذلك كنى الشاعر عن عدم القوت والماء باقتيات ركبها الأحـاديث ، أى أنهم لا يتحدثون خـوف العطش والجـوع ، فيلتزمون الصـمت وكأنهم يأكلون الأحاديث ، « يقتات الأحاديث ركبها » •

ثم يعطى صورة أخرى للمشاق التى يتحملها السالكون فى الصحراء الواسعة المترامية الأطراف ، وهى أن الجمال التى تميل بطبيعتها الى العدوان ، تذهب قوتها ويقض على نشاطها من شدة متاعبها فى السير، وكأنها شفيت من ضغائنها وعدوانها • « وتشـفى ذوات الضـغى من طائف الجهل » •

ثم يعطى صورة السراب « الآل » الذى يرى وقت الظهيرة وهو يغطى الأكام « قورها » والمرتفعات من بعيد ، والسـائرون بإبلهم فى الصحراء يأملون فى أن يكون مـاء ، ولكنهم كلمـا تقدموا فى السـير وأقبلوا عليها ، رأوها تخرج مما كان يغمـرها ، وكأنها كانت فى مـاء حقيقى ، ثم خرجت منه ، وصار المكان ضحلا مما كان فيه • فتبـدد

أملهم وخاب رجاؤهم • انها صورة عميقة ودقيقة ، أضفى عليها الخيال جمالا وروعة • وغير ذلك كثير من المعانى الشعرية القديمة التى ألبسها شعراء العصر الأموى أثوابا جديدة بسعة خيالهم وحسن تصويرهم وجمال تركيبهم ، حتى بدت فى صورة جذابة،وكأنها مبتكرة لأول مرة•

البناء الفنى للقصيدة :

ألف الشعراء فى العصر الجاهلى استهلال قصائدهم بالغزل وذكر الأطلال والد من والحديث عن آثار المحبوبة ، وكذلك تعدد الأغــراض والموضوعات فى داخل القصيدة الواحدة ، ولم يكن ذلك عبثــا منهم ، ولكن الوحدة النفسية والوحدة الفنية جمعتــا بين جميع الأغــراض والموضوعات على اختلافها فى ظاهر الأمر ، اذ أن الشاعر يبدأ قصيدته بالغزل أو بالحديث عن الأطلال لعلمه بأن الحديث عن المرأة مشــوق وجاذب لانتباه السامعين ، حتى اذا ما اجتمعت قلوبهم اليه انطــلق يلقى اليهم ببقية قصيدته ؛ فيسير بهم من موضوع الى موضوع معبرا اليهم عما يعتمل فى نفسه ومشاعره ، وما يدور فى خاطره حول المعانى والأفــكار التى يريد أن يبثهــا لمستمعيه ليشــاركوه نفس المشــاعر والأحاسس فيما يتحدث عنه من أغراض وموضوعات •

فكان الشاعر يبدأ قصيدته مثلا بالغزل ، ثم ينتقل منه الى وصف الصحراء والمشاق التى تلحقه فى المهامه والقفار وحر الشمس وبــرد الشتاء ، ثم يصف ناقته وما تكابده من متاعب ، ويصف ما يواجهه من حيوانات ضارة فى سيره وكيف يتقيها حتى يصل الى الممــدوح الذى بذل كل ذلك من أجل الوصو اليه ومدحه • ويفيض بعد ذلك فى الثناء على الممدوح بما هو أهله أو بما ليس فيه من الكرم والشجاعة والشرف والرفعة • وما الى ذلك من صفات المديح والثناء ، والمديح فى هــذا

كله هو الغرض الأساسى وغيره من الأغـراض فى القصـيدة انما هى مقدمات وأغراض ثانوية تأتى بمثابة التمهيد للغرض الأصلى .

ولم يكن الأمر فى المديح وحده،وانما فى جل الأغراض والموضوعات الشعرية ، حتى الرثاء الذى لم تتهيأ الناحية النفسية فيه للغزل ، اذا به عند بعضهم يبدأ بالغزل الفا للعادة ، ومن ذلك دالية دريد بن الصمة التى رثى بها أخاه ، بدأها بقوله :

أرث جديد الحبل من أم معبد بعاقبة أم أخلفت كل موعـد
وبانت ولم أحمد اليك نوالها ولم ترج منا ردة اليوم أوغـد

ويبرر ابن رشيق هذا الاستهلال الغزلى فى قصيدة الرثاء هذه ، بأن ابن الصمة قال هذه القصيدة بعد مقتل أخيه بسنة ، وبعـد أن أخـذ ثأره(٢١) .

يقول الدكتور عزيز فهمى : « ما بدأ الجاهليون قصيدة فى المدح أو العصبية الا بدءوها بالغزل .. بل لقد بدءوا بالغزل غيره من فنون الشعر ، وهم حتى فى الرثاء ، يتشبثون به برغم ما فى ذلك من مخالفة للذوق السـليم »(٢٢) .

ولما جاء العصر الاسلامى الأول ظلت القصيدة تسـير على نفس المنهج المتعارف عليه فى العصر الجاهلى ، اللهم الا فى القصـائد التى فى النقائض بين المسلمين والمشركين فى أثناء الغزوات ، وفى غـيرها ، وكذلك المقطـوعات التى نظمـت فى الابتهـال والزهـد وفى الوعـظ والارشاد . وما الى ذلك من الموضعات الدينية ، وأيضا فى المقطوعات

---

(٢١) العمدة ٢/١٤٤ .

(٢٢) المقارنة بين الشعر الأموى والعباسى فى العصر الأول /١٠٨ ، تحقيق د/ محمد قنديل البقل ، دار المعارف ، ١٩٧٩ .

الشعرية التى كان ينشدها أصحابها ترغيبا فى لقاء الأعداء والثبات فى مواجهتهم والصمود على أرض المعركة حتى يفوزوا بالنصر أو الشهادة •

فى كل هذه المقطوعات بدأت القصيدة أو المقطوعة بدءا مباشرا بدون المقدمات الغزلية ، وذلك لأن الغزل يلزمه هدوء واستقرار نفس ، كما يلزمه وقت للتفكير فيه وانتظامه مع غيره فى قصيدة طويلة • وهذا غير متوفر فى المحارب الذى يلقى عدوه بثورة نفسية وجسمانية لا تسمح معها بالتفكير فى الغزل ، كذلك الموضوعات الدينية التى فيها يتقرب العبد من ربه ويسعى لمرضاته • هى الأخرى لا يتناسب معها الغزل ، ولكن فى غير هذه من الأغراض والموضوعات بدأها الشعراء بالغزل تقليدا للقدماء من الشعراء الجاهليين ، وليس أدل على ذلك من لامية كعب بن زهير التى أنشدها أمام النبى صلى الله عليه وسلم فى المسجد ، وقد بدأها بالغزل على عادة السابقين ، وقد بلغ عدد الأبيات التى قيلت فى الغزل خمسة وثلاثين بيتا من جملة أبيات القصيدة وهى ثمانية وخمسون بيتا • وما بقى من أبيات القصيدة وهى ثلاثة وعشرون بيتا قيلت فى الاعتذار والمديح • ومن اعجاب النبى — صلى الله عليه وسلم بتوبة كعب واعتذاره ، وأسلوب قصيدته ألقى عليه بردته •

ولما جاء العصر الأموى كان امتدادا طبيعيا العصرين السالفى الذكر كان الشعراء فى هذا العصر أيضا يبدءون قصائدهم فى مجموعها بالغزل وبكاء الديار والدمن ، ولم يخرج عن هذا النظام المتبع الا ما كان نظما فى الطاعة والابتهالات الدينية وما كان فى الزهد والوعظ وغيره من الموضوعات الدينية ، وكذا ما كان فى الجهاد والاستعداد لملاقات

الأعداء ، ومعظم شعر الخوارج من هذا النوع فلم يبدأ بالغـزل ولم تتعدد فيه الأغراض ، لأنهم ليسوا من الشـعراء المحترفين المتفرغين لنظم الشعر وانشاده ، بالاضافة الى أن نفسياتهم غير مستقرة ، وهم ليسوا من المتكالبين على الدنيا ، الراغبين فى جمالها وزخرفها •

كذلك ما كان فى الغزل الاباحى والعذرى ، فهو ليس فى حاجة الى مقدمات • وبعد ذلك كانت معظم قصائد الشعراء فى هذا العصر تنهج نهج القصيدة الجاهلية من الاستهلال بالغزل وتعدد الأغراض ، حتى كانت القصيدة من الشعر الأموى شديدة الشبه بمثيلاتها من الشـعر الجاهلى ، ومن ذلك قصيدة الأخطل التى مطلعها :

تغير الرسم من سلمى بأحفار   وأقفرت من سليمى دمنه الدار

وهى على نمط قصيدة النابغة التى يقول فى مطلعها :

عوجوا فحيوا لنعم دمنة الدار   ماذا تحيون من نوءى وأحجار

والقصيدتان تتفقـان فى الوزن ، فكلتاهما من بحـر البسـيط « مستفعلن فاعلن » ، وعلى قافية واحدة ، كما تتفقان فى بكاء الديار والدمن ، وفى كثير من الأغراض التى تشملها كلتا القصيدتين اذ أن كلا منهما قد وقف على الأطلال وتغزل ، واشتكى البعد والفراق ، وكلاهما وصف ناقته والمشـاق التى كابدتها فى الصحراء الموحشـة المترامية الأطراف وكلاهما شبه ناقته بالثور الوحشى وأطـال فى وصف هـذا الثور ، ثم افترقت القصيدتان بعد ذلك فى بقية أغراض القصـيدة ، حيث لوى الأخطل عنان شاعريته على الخمر ، ومديح بنى أمية •

ومن ذلك أيضا قصيدة الأخطل الرائية التى مدح بها عبـد الملك ابن مروان وقد استهلها بالغزل ثم انتقل منه الى الحديث عن الخمر ،

ثم الى الحديث عن وصف الرحلة فى الصحراء ، ثم بعد ذلك كله ينتقل الى مدح الخليفة عبد الملك بن مروان • ومطلع هذه القصيدة :

خف القطين ، فراحوا منك أو بكروا   وأزعجتهم نوى فى صرفها غير

وكان الشاعر الذى يبدأ قصيدته بالغزل ، عادة يتخلص تخلصا حسنا ويعقد علاقة ورابطة لطيفة بين الغزل وما يعقبه من أغراض كما كان الحال فى قصيدة جرير التى مدح بها عبد الملك بن مروان والتى يقول فى مطلعها :

أتصحوا أم فؤدك غير صاح   عشية هم صحبك بالرواح

وبعد حديثه الى زوجه وحواره معها فى مقدمة القصيدة قال مخاطبا اياها :

ثقى بالله ليس له شريك   ومن عند الخليفة بالنجاح

واسترسل بعد ذلك فى مديحه الخليفة وطلبه منه عطاء فقال :

أغثنى — يا فداك أبى وأمى —   بسيب منك انك ذو ارتياح

ومن ذلك أيضا : قصيدة أعشى حمدان التى رثى بها سليمان بن صرد ومن قتل معه من التوابين • حيث بدأها بالغزل فقال :

ألم خيال منك يا أم غالب   فحييت عنا من حبيب مجانب

وظل يسترسل فى غزله الى أن تخلص تخلصا لطيفا ، وانتقل منه الى الرثاء وهو موضوعه الأصلى وغرضه الأساسى فقال :

فانى وان لم أنسهن لذاكر   رزيئة مخبات كريم المناصب
توسل بالتقوى الى الله صادقا   وتقوى الاله خير تكساب كاسب

وخلى عن الدنيا فلم يلتبس بها ... وتاب الى الله الرفيــع المراتب
تخلى عن الدنيا وقال اطرحتها ... فلست اليهــا ما حييت بآيب
وما أنا فيما يكبر الناس فقده ... ويسعى له الساعون فيها براغب (٢٣)

وقد سار أعشى همدان فى ذلك على نهج دريد بن الصمة فى العصر الجاهلى حيث استهل قصيدته التى رثى بها أخاه بالغــزل ، كما ذكرنا ذلك آنفا ، وهو نهج قليل من سار فى اطاره ، سواء فى العصر الجاهلى أو فى العصر الأموى ، وذلك لأن الظروف النفسية تكون مختلفة بين الغزل والرثاء ، فلا يتناسب موقف الرثاء مع ذكر الغزل والاسترســال فيــه .

واســتهلال قصائد المــديح بالغزل نهــج كان متبعا فى العصر الجاهلى ــ كما عرفنا ــ وسار على نمطه شعراء العصر الأموى . ولم يخرج على هذا النمط الا القليل من شعراء هذا العصر . وعلى رأسهم جميعا الكميت بن زيد الأسدى . الذى قال قصيدة من الشعر السياسى ، وهى فى مديح آل البيت ، وبدأها بمقدمة طرب فيها لا الى الحسناوات من الفتيات ولا الى أطلالهن ولكن الى النفر البيض من بنى هاشم ، وهو مطلع جميل وغريب فى نفس الوقت يقول فيه :

طربت وما شــــوقا الى الــبيض أطرب
ولا لعبــــا منى وذو الشـــــيب يلعب
ولم تلهــنى دار ولا رســــم منـــزل
ولم يتطـــربنى بنـــــان مخضـــــب
ولكن الى أهــل الفضـــــائل والنهى
وخــــير بنى حواء والخـــير يطلب

---

(٢٣) حياة الشعر فى الكوفة ٢٨٥ ، د. يوسف خليف .

الى النفـــر البيض الـذين يحبـــهم
الـى الله فيمـــا نالـــنى أتقــــرب
بنى هاشـــم رهـــط النـبى فاننـــى
بهم ولهـــم أرضى مرارا وأغضـــب

وأحيانا — وهذا قليل جدا — تأتى القصيدة فى المديح بلا مقدمات، كما فى قصيدة جرير فى مدح المهاجرين عبد الله عامل هاشم بن عبدالملك على اليمامة ، التى يقول فيها :

ان المهاجر حين يبسط كفه   سبط البنان ، طويل عظم الساعد

وهكذا كانت القصيدة الشـــعرية فى العصر الأموى تســـير على نمط القصيدة من الشعر الجاهلى فى استهلالها بالغزل وتعدد أغراضها. ولم يســـلم من ذلك معظم الشـــعر الأمـــوى اللهم الا ما ذكرناه من الأغراض والموضوعات التى بدأها أصحابها بدون اللجوء الى المقدمات كالموضوعات الدينية وشـــعر الحروب والجهـــاد على أرض المعركة وكالغزل الاباحى والعذرى . فهذه كلها موضوعات لم تســـتهل بمطالع غزلية ، وذلك لانشغال أصحابها بالموضـــوع ذاته عن المقدمات ، لأن بعض هذه الموضـــوعات ليست فى حاجة الى مقدمات ، فالمســـتمعون مهيئون للسماع دون الحاجة الى مقدمة للتنبيه .

الموســـيقا :

معروف أن الشعراء فى العصرين : الجاهلى وصدر الاسلام قد التزموا عمود الشعر فى جميع قصـــائدهم ، بمعنى أن القصـــيدة من شعرهم كانت على وزن عروضى واحد وقافيـــة واحدة ، ولمـــا كانوا بطبعهم يميلون الى طول النفس فى القصـــيدة ، فتطول قصـــائدهم وتتعدد أغراضـــهم فى داخلها ، فقد مالوا فيهـــا الى البحور الطويلة

كالطويل والمنسرح والكامل وغيرها • وان كانت البحور القصيرة التى تسمى بالأوزان الخفيفة أيضا كالمتقارب والوافر والمتدارك وغيرها قد وجدت فى مقطوعاتهم وبعض قصائدهم •

ولما كان الشـــعر فى العصر الأموى امتـدادا لشـــعر العصرين السابقين ، وكانت البادية لا تزال على عهدها بالبادية الجاهلية أو قريبة عهد بها من حيث الشاعرية والقريحة وطريقة الأسـلوب والصـياغة والبناء الفنى للقصيدة ، وكذا بعض الموضوعات الشعرية فان شعراء البادية وبعض شـعراء الحضر مالوا هم الآخرون للأوزان الطويلة فى المديح والهجاء والفخر والوصف والرثاء ، ولكنهم مالو فى الموضوعات الدينية وفى الغزل وما ينظمونه فى مجالس الغناء والطرب الى الأوزان الخفيفة المتقاربة النغم ، وأكثروا من المجزوء فى نظمهم مثـل مجزوء الوافر والرمل والخفيف والهـزج وهو مجزوء بطبعـه وغير ذلك من البحور الخفيفة والمجزوءة ، ومن ذلك قول عمر بن أبى ربيعـة من (مجزوء الوافر) يشبب بزينب بنت موسى أخت قـدامة بن موسى الجمحى :

تصـــابى القلب وأدكرا صـــباه ولم يكن ظهرا
لزينب اذ تجـد لنـــا صــفاء لم يكن كـدرا
أليســـت بالتى قالت لمولاة لهـــا ظـــهرا
أشـــيرى بالســلام له اذا ما نحونا نظــرا
وقولى فى ملاطـــفة لزينب نولى عمـــرا
فهزت عطفهـــا عجبـــا وقالت : من بــذا أمرا
أهــذا ســحرك النسوا ن قد خبرننى الخبرا(٢٤)

---

(٢٤) الأغانى ١/٤٥ •

ويقول الوليد بن يزيد من (مجزوء المتقارب) :

سقيت أبا كامل من الأصفر البابلى
وسقيتها معبدا وكل فتى بازل
لى المحض من دونهم ويغمرهم نائلى
فما لامنى فيهم سوى حاسد جاهل(٢٥)

ولأعشى همدان وعبيد الله بن قيس الرقيات ووضاح اليمن وغيرهم من شعراء العصر الأموى قصائد ومقطعات كثيرة على وزن مجزوء الأبحر ، وبخاصة الخفيفة . وقد كثر المجزوء والمشطور والمنهوك فى الرجز ، ولما كان التصريع فى الشعر يأتى من اتفاق العروضة والضرب فى حرف الروى وحركته ، ويكون فى البيت الأول من القصيدة ، فان التصريع يكون فى العروضة والضرب فى كل بيت من أبيات الرجز وأغلب ما يأتى الرجز على بحر الرجز ومن ذلك قول العجاج فى مدح عبد العزيز بن مروان :

قلت لعنس قد ونت طليح عوجاء من تتابع التطويح(٢٦)
بالجذع بعد الجذع والتلويح والنص بالهاجرة الصموح(٢٧)
لا تأملين فى السرى ترويحى وان تشكيت أذى القروح(٢٨)

---

(٢٥) المصدر نفسه ٣٧/٧ .

(٢٦) العنس : الناقة الشديدة . ونت : فترت . طليح : من طلحت الناقة اذا تعبت وأعيت .

(٢٧) الجذع : الحبس . التلويح : العطش . النص : شدة السير . الصموح : شديدة وقع الشمس .

(٢٨) ترويحى : لا تأملين أن أروح عنك . القروح : البثور وما ينتج من احتكاك ما تحمل الناقة بجسمها .

بآهة كآهة المجروح وظاهرى السريح بالسريح(٢٩)
الى ابن ليلى فاغتدى وروحى الى فتى فى الباع ذى مندوح(٣٠)
مرزأ بسيبه نفوح فى البدو ذو بدو وذو ممنوح(٣١)

فالراجز هنا يسير على نمط القصيد فى المديح ، اذ يصف الناقة وما تحملته من المشاق فى الرحلة الى الممدوح ، ثم يتخلص من ذلك الى المديح .

وهكذا التزم شعراء العصر الأموى بعمود الشعر العربى ، واحتذوا فيه حذو الشعراء فى العصرين السابقين ، فلم يجددوا فى أوزانهم ولم يخرجوا عليهم فى شىء من بحور الشعر ، ومن القوافى ، كل ما فى الأمر أنهم توسعوا أكثر من السابقين فى استخدام الأوزان الخفيفة ، كما أكثروا من استخدام ، المجزوء والمنهوك والمشطور من الأوزان ، وفقا لسنة التطور فى الأشياء وتلبية لحاجات العصر ، وبخاصة فى مجالس الغناء والطرب وما يلزم من الموسيقى لهذه المجالس .

---

(٢٩) الآهة : التوجع . السريح : سير تشد به نعال الابل ، وظاهرى السريح بالسريح : اجعليه بعضا على بعض .

(٣٠) ابن ليلى : عبد العزيز بن مروان . مندوح : سعة . السيب : الفضل .

(٣١) ذو بدو : ذو ظهور وذو سبق ، ذو ممنوع : ذو عطاء .

راجع : ديوان العجاج ١٦٨/١ وما بعدها .

خاتمـــة

وبعد : فهذه دراسة للشعر فى العصر الأموى ، وقفنا فيها على أحداث العصر وملابساته ، وما أحدثته السياسة فى الحياة بشكل عام ، ثم على نهضة الشعر والأدب ، وعلى أغراض الشعر وخصائصه الفنية. وعرفنا من هذا كله أن السياسة ، كان لها دور كبير فى تلوين الحيـــاة واخضـــاعها لظروف العصر ، فكانت أكثر الأغراض الشـــعرية وأكبر موضوعاتها حجما وكمـــا كالمديح والنقائض والغزل ، وكذا الشـــعر السياسى والشعر الشعوبى ، وغيرها من أبواب الشـــعر وموضوعاته فى خدمة السياسة ، وان لم يشعر الشعراء بذلك . وقد أوضحنا ذلك كله فى خلال دراستنا للشعر فى هـــذا العصر . نرجـــو أن نكون — مع الايجاز — قد وفينا هـــذه الدراسة حقهـــا من البحث والتمحيص . سائلين الله تعالى التوفيق والسداد .

المراجــع

١ ــ أثر الاسلام فى الشعر فى عصر الرسول والخلفاء الراشدين ــ د/السيد عبد القادر عويضة ــ مطبعة الأمانة ــ القاهرة ١٩٨٧م

٢ ــ أدب الشيعة • د / عبد الحسيب طه حميدة ــ طبعة أولى ــ مطبعة السعادة بمصر ١٩٥٦ م •

٣ ــ الأدب العربى فى ظل بنى أمية • د / جودة عبد الله مصطفى ــ دار الحمامى للطباعه ــ القاهرة •

٤ ــ الأسلوب • د/أحمد الشايب ــ مكتبة النهضة المصرية ١٩٧٦م

٥ ــ الأغانى • لأبى الفرج الأصفهانى ــ طبعة دار الكتب المصرية •

٦ ــ البيان والتبيين للجاحظ ــ المطبعة العلمية بمصر ١٣١١ هـ

٧ ــ تاريخ الأمم والملوك ــ الطبرى ــ طبعة ليدن ١٨٩٣ م •

٨ ــ تاريخ الشعر السياسى ــ د / أحمد الشايب ــ مكتبة النهضة المصرية ١٩٤٥ م •

٩ ــ تاريخ النقائض فى الشعر العربى ــ د / أحمد الشايب ــ مكتبة النهضة المصرية ط ٣ سنة ١٩٦٦ م •

١٠ ــ التطور والتجديد فى الشعر الأموى ــ د / شــوقى ضيف • طبعة خامسة ــ دار المعارف •

١١ ــ الحب المثالى عنــد العرب ــ د / يوســف خليف ــ سلسلة اقرأ ــ دار المعارف ١٩٦١ م •

١٢ ــ حياة الشعر فى الكوفة ــ د / يوســف خليف ــ دار الكتاب العربى للطبع والنشر ١٩٦٨ م •

١٣ — ديوان جرير — دار المعارف بمصر وطبعات أخرى .

١٤ — ديوان جميل بن معمر (جميل بثينة) — طبعة بيروت .

١٥ — ديوان ذى الرمة — طبعة كمبريدج ١٩١٩ م .

١٦ — ديوان رؤبة — دار صادر بيروت .

١٧ — ديوان عبد الله بن قيس الرقيات — تحقيق محمد يوسف نجم — طبعة بيروت .

١٨ — ديوان عمر بن أبى ربيعة — مطبعة السعادة بمصر .

١٩ — ديوان العجاج — دار صادر بيروت .

٢٠ — ديوان مجنون ليلى (قيس بن الملوح) — تحقيق / محمد محيى الدين عبد الحميد — المكتبة التجارية .

٢١ — السيرة النبوية لابن هشام — تحقيق : أحمد حجازى السقا — دار التراث العربى للطباعة والنشر .

٢٢ — شعر الفتوحات الاسلامية — د / النعمان القاضى ، الدار القومية للطباعة والنشر بالقاهرة ١٩٦٥ م .

٢٣ — شاعر الغزل — عباس محمود العقاد — طبعة دار المعارف سلسلة اقرأ .

٢٤ — الطبقات الكبرى لابن سعد — دار صادر بيروت .

٢٥ — العصر الاسلامى — د / شوقى ضيف — طبعة ٩ دار المعارف .

٢٦ — العمدة لابن رشيق — مطبعة عيسى الحلبى القاهرة عام ١٩٠٧م .

٢٧ — فجر الاسلام — أحمد أمين — مطبعة الاعتماد ١٩٢٨ م القاهرة .

٢٨ ـ الفن ومذاهبه فى الشعر العربى ـ د / شوقى ضيف ، دار المعارف القاهرة .

٢٩ ـ الفهرست لابن النديم ـ طبعة أوربا .

٣٠ ـ الكامل فى الأدب واللغة للمبرد ، مطبعة الاستقامة القاهرة .

٣١ ـ مجلة الشعر ـ مقال للدكتور يوسف خليف ـ العدد الخامس يناير ١٩٧٧ م بعنوان : « قصة الشعر العربى » .

٣٢ ـ مجلة كلية اللغة العربية بالزقازيق ـ العدد السابع ، ١٩٨٧ م .

٣٣ ـ مقدمة ابن خلدون ـ المطبعة الشرفية ١٣٢٧ هـ .

٣٤ ـ المقارنة بين الشعر الأموى والعباسى فى العصر الأول ـ تحقيق : محمد قنديل البقلى ـ دار المعارف ١٩٧٩ م .

٣٥ ـ النجوم الزاهرة ـ ابن تغرى بردى ـ المؤسسة المصرية العامة للطباعة والنشر .

٣٦ ـ نقائض جرير والأخطل ـ دار صادر بيروت .

٣٧ ـ نقائض جرير والفرزدق ـ طبعة ليدن ١٩٠٥ م .

الفهـــرس

رقم الإيداع بدار الكتب ٩٤٣٠/١٩٩١